دار الثقافة
بيتر س. فان
التفكير الاجتماعي
سلسلة رسائل
أباء
الكنيسة
Bibliotheca Alexandrina
0016560

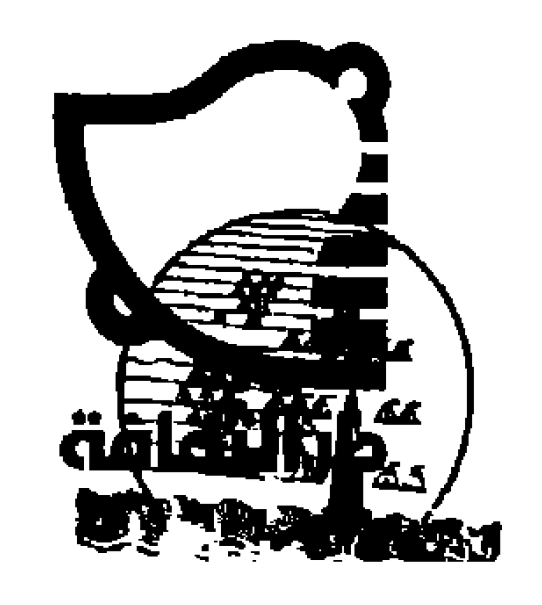
سلسلة رسائل آباء الكنيسة

الآباء والتفكير الاجتماعى

بيتر سي .فان

ترجمة

مكرم شحاته



Social Thought
Message of the Fathers of the Church
By : Peter C. Phan
This book was first published in 1984 by Michael Glazier . Inc

Translated by permission and published in Arabic , 1996

إهداء

إلى والديّ

" المؤلف "

المحتويات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مقدمة الدار

رسائل آباء الكنيسة كان لها دور فعال في صياغة الفكر اللاهوتي للكنيسة عبر عدة قرون، بل أننا نستطيع أن نقول إن آباء الكنيسة بما قدموه من اجتهادات فكرية. وتراث كنسي لازال يسهم إسهاماً كبيراً في صياغة الفكر اللاهوتي المعاصر، ومع أن منطقتنا العربية شهدت عطاء وفيراً لنخبة كبيرة من آباء الكنيسة إلا أن عدداً كبيراً من هذه الأعمال لازال حبيس لغات قديمة لا نتحدثها اليوم، مما يجعل هذا الكنز مخفي عن ملايين من القراء، لهذا رأت دار الثقافة حتمية تقديم هذه الأعمال الرائعة المتعددة لآباء الكنيسة.

إن هذه الرسائل التي تقدمها دار الثقافة إلي القاريء العربي هي سلسلة رسائل آباء الكنيسة وهي صدرت من دار نشر (The Liturgical Press) باللغة الإنجليزية. ولقد قررنا ترجمة هذه الأعمال كما هي في اللغة الإنجليزية دون إضافة أو حذف أو تعديل في المعني، فلقد اتبعنا الدقة المتناهية في عرض هذه الدراسات كما قدمها الناشر الإنجليزي، ولهذا ربما تأتي أجزاء في هذه الدراسات مناسبة لواقعنا اليوم، وقد تأتي أجزاء أخري قد تكون غير مرتبطة بالمتغيرات الكثيرة التي حدثت للبشرية في المراحل الأخيرة من تطورها، ومع هذا يسعد الدار أن تقدم هذا التراث كما هو، سواء كنا نوافق معه أو نختلف علي بعض قضاياه، فالتراث تراث، وما قاله الآباء يجب أن تتم دراسته في ضوء القرينة السياسية والثقافية والاجتماعية لعصرهم.

إن دار الثقافة تفخر بتقديمها سلسلة رسائل آباء الكنيسة متمنين أن تكون سبب تقدير وإلهام للكنيسة في مصر والعالم العربي.

دار الثقافة

مقدمة عامة

رسالة آباء الكنيسة هى عمل مرافق لرسالة العهد القديم ورسالة العهد الجديد ، وقد تم التفكير فيه والتخطيط له من منطلق أن كليهما تعاونا معاً فى تشكيل فكر الكنيسة الأولى، وحياتها، وعبادتها، ومن ثم فإن هذه السلسلة عن دراسات الآباء قد تكون وسيلة فعالة لفتح ملف التعاليم الذى أصبح مغلقاً بالفعل لقارئ اليوم . بل ويمكن أن تعمل على بعث نهضة للاهتمام بالدراسات المتعلقة بآباء الكنيسة كخطوة مصاحبة للصحوة الحالية فى دراسات الكتاب المقدس .

عادة ما يشير تعبير « الآباء » إلى الكتّاب المسيحيين الأرثوذكس الذين يتميزون بقداسة الحياة ، وهم من قدامى الكتّاب الذين تقبلهم الكنيسة. ويشير مصطلح « قدامى الكتّاب » إلى كتّاب يرجع بهم التاريخ إلى جريجورى الأكبر (+٦٠٤) أو ايزيدور الذى من سفيل (+ ٦٣٦) فى الغرب ، ويوحنا داماسين (+ ٧٤٩) فى الشرق . على أنه من الواضح أن هذه السلسلة الحالية تتصف بمرونة أكثر كما اشتملت فى بعض الأحيان على نصوص لكتّاب ليسوا أرثوذكس لإيضاح تطور الرسالة في أمور عقائدية معينة ، وتستعين الدراسة بكتابات لاحقة على منتصف القرن الثامن عشر لتتبع خط سيرالتقليد في أمور مثل لاهوت الأسرار المقدسة أو ممارسة الطقوس .

جرت محاولات جادة لاختيار مساهمين من مختلف الطوائف و مختلف العقائد ، وقد أُعطى الاعتبار لاختيار الدارسين الذين يمكنهم تناول كتابات الآباء التى كتبوها بلغتهم الأصلية ، وهى موضوعات اهتم بها الآباء اهتماماً خاصاً وأظهروا فيها كفاءة واضحة ، وتم توجيه الاهتمام ـ من ناحية النشر ـ إلى اختيار كتّاب يستطيعون عرض كتابات الآباء كما لو كان الآباء أنفسهم يتحدثون اليوم بلغتنا المعاصرة . أما من ناحية محتوى الكتابات فقد أعطيت الأهمية للموضوعات التى تناولها الآباء ، حيث إنها أنسب وأشمل من تناول الآباء كأجزاء منفصلة . إذ يساهم كل موضوع بجزء هام في تكوين الكنيسة الأولى ،

ككنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية . ويتضمن كل كتاب على مقال يحدد التطور التاريخي واللاهوتي للموضوع ، مع اهتمام العمل الأساسي بالاستشهاد بالآباء في لغة إنجليزية حديثة ، ومراعاة استخدام الحد الأدنى من التعليقات التى تربط بين الأجزاء المختلفة. وقد اشتمل الكتاب على قراءات أخرى مقترحة ، ولكن حواشي المراجع المكثفة أُختصرت بشكل واضح ، على أساس أن هذه الاختصارات العلمية لها مصادر أخرى ، ولأنها من الناحية العملية تتسبب فى فقد القراء من قراءة هذه السلاسل الشعبية. يحذر إيريناوس قراءّه فى مطلع كتابه «ضد الهراطقة » قائلاً لا تتوقعوا منى أى استعراض بلاغى لم أتعلمه على الإطلاق أو أى فخامة في التعبير لم أمارسه من قبل أو أى جمال أو جاذبية في الأسلوب لا أدّعى القدرة عليه . بنفس الصورة يمكن العثور بين الكثيرين من الآباء اليونانيين واللاتينيين على آباء متواضعين ينكرون ذواتهم . ولسوء الحظ كانت كلماتهم تؤخذ مأخذ الجد من العالم المحيط بهم ، لكنهم كانوا شخصيات نالت مستوى راقٍ من التعليم فى أفضل المدارس البلاغية بالإمبراطورية الرومانية في عصرهم وارتقت كتاباتهم إلى مرتبة التثقيف الأدبي والحضاري والروحي أيضاً. فالقديس أوغسطين له انطباعات ممتعة فى كتابه «مدينة الله » عن الحاجة إلى لغة مشتركة فى مجتمع عالمي آخذ في التوسع (فإنه بدون هذه اللغة المشتركة لا يشعر الإنسان بالألفة والتفاهم والاتصال مع شخص أجنبي) وينطبق ذلك حتى على الإمبراطورية الرومانية التي تفرض على الدول التي تتبعها نير القانون واللغة ، مما ينتج عنه أعداد وافرة من المترجمين . و من المأمول في العالم الحاضر الذي ما يزال يعاني من حواجز اللغة الدائمة أن يثبت المساهمون بهذه السلسلة جدارتهم كمترجمى عصرهم للرسالة المسيحية الحية إلى الأبد .

توماس هالتون.

تقديم

المسيحية ديانة تعتمد على الدلائل التاريخية ، ومن ثم فهي بهذه الخاصية تغمر العالم الذى تعيش به . ومنذ البداية الأولي عكس واضعو العهد الجديد العلاقة بين رسالة الخلاص التى دعا إليها المسيح ، والبيئة الاجتماعية والسياسية التى أحاطت بهذا الدين الجديد . وقد تبنى المفكرون الأوائل ممن نسميهم بشكل تقليدي آباء الكنيسة هذه المبادئ وطوروها وهيأوها للظروف التاريخية الجديدة .

وهذا الكتاب يحاول أن يقدم للقرّاء تعاليم الآباء الاجتماعية والسياسية بأسلوبهم الخاص ، حيث يوفر هذا التقديم نظرة شاملة لارتباط الكنيسة الأولى بالمجتمع في القرون الستة الأولى ، مع نبذة عن العقيدة الاجتماعية للآباء بعيداً عن الموضوعات التي تناقش الأخلاق والنساء والحرب التي عولجت فى مكان آخر من هذه السلسلة . وتقدم الفصول الأخرى الآباء بترتيب تاريخي :أولا اليونانيين ثم اللاتين مع تقدمة لأعمالهم وآرائهم الرئيسية . وقد أُعطيت عناوين أعمالهم في البداية ، ثم خطوط عريضة تلخص محتويات المقتطفات التي تقدم ، ويسبقها أرقام توضح السفر ، والفصل ، والعدد حسب الحالة .

ولا يمكن لعمل من هذا النوع أن يدّعي الاعتماد على الكتابات الأصلية ، ولكنى أعترف بالفضل للكثير من الترجمات والدراسات القائمة حالياً. وهناك عمل يستحق الذكر بشكل خاص هو كتاب (ر . سييرا برافو R . Sierra Bravo's) بعنوان : " Doctrina social y éconornica de los padres de la Iglesia" (كومبى ، مدريد ١٩٦٧)، الذي كان عوناً لي لا يُقدّر في اختيار النصوص .

كما أود أن أعبر عن شكري للدكتور توماس هالتون لدعوته لي للمساهمة فى هذه السلسلة ، وكذلك لنصحه القيّم والثمين. كما أدين بالشكر للسيدة جيري جوادا جنولي والسيدة كارولين فاوس اللتين قامتا بكتابة البحث على الآلة الكاتبة بكفاءة.

وأخيراً أقدم هذا العمل بكل احترام لوالديّ اللذين تعرضا لظلم الحرب بأكثر الطرق

المأساوية ، لكنهما بدآ بشجاعة حياة جديدة فى العالم الجديد

بيتر سى . فان

جامعة دالاس

ارفنج ـ تكساس

مقدمة

١ــ العقيدة الاجتماعية للآباء

لا شك في أن قيام الحركة الاجتماعية ، وانتشارها قد ساهم كثيراً بشكل مباشر أو غير مباشر في استرجاع الوعي الاجتماعي وشحذه في المسيحية بصفة عامة ، وفي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بشكل خاص ، و هذه أمثلة لبعض الدلائل والثمار الواضحة لهذا الحس الحاد بالمسئولية الاجتماعية ، مثل النشرات البابوية

Reum Novrum ,Quadragesimo Anno , Mater et Magistra ,
Pacem in terris , Populorum Progressio , Octogesima Adveniens

وكذلك نشرات الفاتيكان الثاني Gaudium et spe s والدوريات اللاهوتية (اللاهوت السياسي، لاهوت الحرية ، اللاهوت النسائي ، اللاهوت الأسود ، لاهوت الثورة ، الخ).

على أنه من الخطأ الادعاء بأن الاهتمام الاجتماعي هو الاكتشاف الوحيد والأصلي للاشتراكية أي أنه من الخطأ أن نظن أن الاهتمام الاجتماعى لم يكن معروفاً قبل الاشتراكية ، كذلك من الخطأ أن نظن أن المبدأ الاجتماعي للكنيسة هو مجرد محاولة متأخرة للاستجابة لتحدي الطفرات الاجتماعية الحديثة ، بل على العكس لابد من الاعتراف بأن الوعى الاجتماعى ينتمي إلى جوهر المسيحية الأصلي طالما أن الخلاص الذى تنادى به يؤثر ليس فقط على الفرد ولكن أيضا على مجتمع البشرية كله بأبعاده الاجتماعية و الاقتصادية والسياسية . فقد توصل آباء الكنيسة أنفسهم قبل ماركس بحوالى تسعة عشر قرناً إلى الكثير من الأفكار الأساسية للمذهب الاجتماعي للكنيسة، حتى أنه يمكننا التحدث عن المبدأ الاجتماعي للآباء . وتُظهر الدراسة الجادة للكنيسة الأولى كما سيتضح في سياق هذه المقدمة العامة، و كما تبينه النصوص المختارة ذاتها، حقيقة تقول : — إن الآباء لم يكونوا فقط مهتمين بالظروف الاجتماعية لمعاصريهم، و لكنهم أيضاً أظهروا بفكرهم الخطوط الأساسية لمبدأ اجتماعي يعتبر نموذجاً للعدالة والمساواة للنهوض

اقتصادياً واجتماعياً بالفئات المقهورة والمحتاجة ، وهو أيضاً نقد للاستغلال والظلم اللذين كانت ترتكبهما الفئات الحاكمة والغنية ، بل نداءً لاتخاذ إجراءات حاسمة لرفع الظلم .

على أن هذه الملاحظات لا يجب أن تصل بنا إلى أن الآباء توصلوا إلى نظام شامل ومستقل للفكر الاجتماعى ، وأن هذا النظام يرتكزعلى فهمهم الفلسفي للإنسان والمجتمع ، بل الواقع أنهم طوروا أفكارهم عن الإنسان و طبيعته الاجتماعية، وقاموا باختبار المواقف والممارسات الاجتماعية لأزمنتهم، ثم استنبطوا برامجهم الاجتماعية في ضوء الكتاب المقدس، وعلى الأخص تعاليم يسوع المسيح و الكنيسة الرسولية أكثر من تأثيرات الفلسفة القديمة . وبطبيعة الحال لا يعنى ذلك إنكار تأثير الفلسفة القديمة وخاصة الأفلاطونية والرواقية على الآباء فى نسجهم للمبدأ الاجتماعى .لكنهم لم يقرّوا هذه الفلسفات إلا بعد إجراء تقييم نقدى فى ضوء الوحى المسيحي .

قام الآباء بإجراء تحليل منطقى للتعاليم الاجتماعية للكتاب المقدس ثم طبقوها على المواقف المتغيرة لأزمنتهم . ولكى يتسنى لنا فهم مبادئهم الاجتماعية، وتقديرها ، ينصح بفحص سريع للتعاليم الاجتماعية للإنجيل ، والظروف التاريخية التى طبقت عليهاهذه التعاليم والتى تغيرت و تعدلت مع مجرى الزمن .

٢ ــ التعاليم الاجتماعية للإنجيل

يعلن جرهارد فون راد أنه لا توجد فكرة في العهد القديم تعتبر مركزية وبارزة لكل علاقات حياة البشر مثل فكرة العدالة والبر ، فالعدالة هي المبدأ الاجتماعي الذي أبقى على النسيج الاجتماعي والعبري معاً مثل الوفاء بمتطلبات العلاقة القائمة على الناموس وهى الإبقاء على مطاليب العلاقات القائمة بالقانون مثل العلاقة بين الملك والشعب ، القاضي والمتظلمين ، الأسرة والقبيلة والأقارب ، الجماعة وغريب الدار ، الإنسانية كلها والله. وبطبيعة الحال يأمر القانون نفسه بالحب ، ولكن من الناحية الفعلية فإن معنى التضامن قاصر بالجزء الأكبر على المشتركين في الدين و الجنس ، وإن كان الأنبياء غالباً ما يحثّون الشعب العبرى على تخطى هذه الحدود الضيقة .

أما فى العهد الجديد. فإن المحبة هى المبدأ الاجتماعى المركزى للدين ، لكن العدالة

بطبيعة الحال غير مرفوضة كمبدأ يحكم جميع العلاقات الاجتماعية، وإنما تأخذ الدرجة التالية للمحبة ، فالمحبة هى عدالة الله التى تفوق عدالة الإنسان. فإن كانت العدالة البشرية تعطى لكلٍ حقه فإن المحبة تعطي من ذات الشخص ومن حياته الخاصة . ويزيل قانون المحبة كل الامتيازات سواء منها المتعلق بالعنصر أو الفئة أو الجنس ، فالحب يمتد إلى الجميع . لا يكفي أن يحب الإنسان صديقه، بل يجب أن يفعل الخير لأعدائه (متى ٥ : ٤٧ - ٤٨) وتلزم الوصية الجديدة الإنسان أيضاً أن يحب جاره كما أحبه المسيح لدرجة بذل حياته من أجله (١ يوحنا ٣ : ١٦) . إنها العدالة و المحبة كما أوصى بهما العهد القديم، وكما تحققا في حياة يسوع ، ومنهما أخذت الكنيسة الأولى المبادئ التى أسست عليها الموضوعات الخاصة بالعدالة الاجتماعية واللذان قادا اهتمامها بالمجتمع الذى يحيط بها .

يتناول الدين فى العهد القديم موضوعات سياسية ، وينظر إلى السلطة التى تحكم الدولة على أنها معيَّنة من الله، ومَن ثم يعطى للحكومة طابعاً مقدساً (الثيوقراطية أو الدولة الخاضعة لحكم رجال الدين) التي يدين لها كل رعاياها بالطاعة و الولاء . أما يسوع فيعلن صراحة فى العهد الجديد بوجود عنصر علمانى في الحكومة « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متى ٢٢ : ٢١). فهو يميز بين السلطة الدنيوية و سلطة الله ، وإن كان لا يفصلهما عن بعضهما طالما أن السلطة الدنيوية ذاتها تأتي من الله . على أنه إذا حكمت السلطة السياسية بأحكام تخالف شريعة الله فلابد أن يطاع الله لا الناس (أعمال ٥ :٢٩) . وقد تصل المعارضة إلى حد الاضطهاد ، ومن ثم توجد مدينتان : مدينة الحمل (أورشليم ، الكنيسة) مقابل مدينة الوحش (روما ، الإمبراطورية) .

لا يعتبر العهد القديم مجرد وحدة اجتماعية و لكنه أيضاً وحدة دينية ، وللحفاظ على حياة الأسرة تدان خطية الزنا و الخطايا الجنسية الأخرى . كما وُضعت الأنظمة التى تكفل الحماية للأطفال و حقوقهم (سفر التثنية ٢٤ : ١٦) ، وأصبحت التضحية بالمولود الأول مرفوضة ، كما صارت المرأة من نفس طبيعة الرجل (تكوين ١ : ٢٧) ، ولكن المجتمع الإسرائيلي مجتمع يتسيد فيه الرجل ، فيجوز للزوج أن يطلق زوجته، و لكن الزوجة لا يمكنها تطليق زوجها ، لا يتضمن الزنا إلا المجامعة الجنسية بين امرأة متزوجة و رجل آخر غير زوجها . وليس هناك علاقات محرَّمة لِرجل متزوج مع امرأة غير زوجته . تخضع المرأة

شرعياً لوالدها أو زوجها أو أقرب قريب ذكر لها . لا يمكنها أن تستحوذ على ممتلكات باسمها إلا إذا لم يكن هناك وريث ذكر . تعدد الزوجات مسموح به، على الأقل في الفترة الأبوية. أما في العهد الجديد فيدين يسوع الطلاق والزنا بدرجة مساوية بالنسبة للزوج وبالنسبة للزوجة (مرقس ١٠ : ٩ و متى ٥ : ٢٧ و ٢٨) . وتعلن رابطة الزواج على أنها «سر عظيم » تشبه الاتحاد بين المسيح و الكنيسة (أفسس ٥ : ٢٩ ـ ٣٢) .

كانت الأرامل و الأيتام في المجتمع الأبوي القديم من أكثر الناس عوزاً من الناحية الاقتصادية طالما لم يكن هناك من يعولهم من رأس العائلة من الرجال . ويظهر العهد القديم اهتماماً ملحوظاً ـ ليس فقط بالأرملة واليتيم ـ ولكن أيضاً بالفقير والغريب على الأرض (خروج ٢٢ : ٢١ ـ ٢٢ ، تثنية ١٤ : ٢٩ ، إرميا ٢٢ : ١٣ ، ١٥ ـ ١٦). و يذكر أن يهوه هو المدافع عنهم و المنقذ لهم (إرميا ٢٢ : ٣ ـ ٤) ، كما أن الاهتمام الذى برز في العهد الجديد لهؤلاء لا يقل عما جاء بالعهد القديم ، فيسوع المسيح نفسه كان يعتنى بالفقير والخاطئ ويشجب الكتبة الذين يأكلون بيوت الأرامل (مرقس ١٢: ٤٠) . أعطى المسيح اهتماماً خاصاً بأرملة نايين بإقامة ابنها من الأموات (لوقا ٧: ١١ـ ١٦) ، ويعقوب يعلن أن «الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم »(رسالة يعقوب١:٢٧). كما أن الكنيسة الرسولية لم تنس الفقير والمحتاج : فخصص لهم جزءاً من موارد المجتمع ، وكان هناك أشخاصُ متميزون تلقى عليهم مسئولية العناية باحتياجاتهم (أعمال الرسل ٤ : ٣٢ ـ ٣٤ ، ٦ : ١ ، ١كورنثوس ١١ : ٨ ـ ٢٢) .

تخضع الثروة واستخدامها لكثير من التعاليم الكتابية ، إذ يُنظر إليها في العهد القديم على أنها بركة الرب ، يلزم استخدامها بحكمة ولا بد من مشاركة الفقراء فيها (تثنية ١٥ : ١١) . كما أن عدم التمسك بها أمر مطلوب بإلحاح شديد طالما أنها تسبب القلق و قد تهلك مالكها (الجامعة ٥ : ١٠ ـ ٢٠) .

أما البخل فهو أمر مدان ، والملكية وخاصة الأراضي الزراعية شئ نسبي ، فهي إشغال أكثر من كونها ملكية (اللاويين ٢٥ : ٢٣) . و في قصة الشاب الغنى الذي رفض أن يتبع يسوع ، في العهد الجديد ، أوضح يسوع أن المال عقبة لا تفوقها عقبة أخرى أمام

الخلاص ، وحثّ السامعين أن يتركوا المال جانباً (متى ١٩ : ١٦ ـ ٣٠) ويعتبر تقديم الصدقات سواء في العهد القديم أو في العهد الجديد أحد أعمال الخير الرئيسية . وقد ورد ذكر القروض فى هذه النصوص بشكل منظم . فذكر العهد القديم الالتزام بالإقراض بدون ربا (خروج٢٢ : ٢٥)، يمكن للإسرائيليينِ أن يقترضوا بالربا من الأجانب، و لكن ليس من بعضهم البعض ، و إن كان ذلك نموذجاً مثالياً أكثر من كونه ممارسةً واقعية . وفي العهد الجديد يقدم يسوع مسامحة المدين المفلس كمثال للكرم (لوقا ٧ : ٤١) . كما يشجع الكتاب الإقراض دون انتظار الاسترداد كعمل من أعمال الخير (لوقا ٦ : ٣٥) .

ينظر إلى العمل في العهد القديم من ناحيتين : فهو الهدف الذى من أجله وضع الإنسان في الجنة (تكوين٢ :١٥) و هو أيضاً لعنة بسبب الخطية (تكوين٣ :١٧ ـ ١٩) . وفى كتابات بولس يعتبر العمل مقبولاً كجزء ضرورى من المسئولية البشرية (أفسس ٤ : ٢٨، ١تيموثاوس ٤ : ١٠) .

كانت العبودية عنصراً أساسياً للحياة الاجتماعية والاقتصادية فى كل العصور القديمة ، وهو أمر لم يستثن فى إسرائيل ، وإن كانت القوانين العبرانية تطالب بمعاملة أكثر إنسانية للعبيد ، خصوصا إذا كانوا من الإسرائيليين . ولم يهاجم العهد الجديد نظام العبودية بشكل مباشر، لكنه يهاجم مبدأ عدم المساواة الذى بُنيت عليه عبودية الرقيق . فلا تمييز بين العبد والحر في المسيح (١ كورنثوس ١٢ : ١٣ ، غلاطية ٣ : ٢٨) . وطبقاً لمبادئ المحبة و الوحدانية المسيحية أصبح من غير الممكن للمسيحى أن ينظر إلى إنسان آخر على أنه عبد، مما جعل العبودية شئ غير مطبق عملياً .

هذه هى عناصر المبدأ الاجتماعي وفقاً للإنجيل بالمعنى الواسع : العلاقات بين الكنيسة والدولة ، الأسرة ، مساعدة الأرامل و الأيتام والفقراء ، الثروة ، الصدقات ، القروض ، العمل ثم الرق والعبودية ـ هذا ما ورثه الآباء و الذى بناء على عبقريتهم وأبتكارهم قاموا بتطويره و تطبيقه علي الظروف المتغيرة لعصورهم .

٣ ـ الاهتمام الاجتماعى للمسيحية الأولى

يشير عصر الآباء ـ طبقاً للتقليد ـ إلى القرون الثمانية الأولي للكنيسة وفيها اعتبرت المسيحية مذهباً يهودياً انتشر في جميع أنحاء العالم الرومانى ، وفى النهاية أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية . ويمكن تقسيم هذا العصر إلى جزءين تفصلهما ما يسمى « نقطة التحول القسطنطينية » . فقبل تحول قسطنطين إلى المسيحية، واعترافه بها كديانة الدولة ، كانت المسيحية محرمة بل في أغلب الأحيان ديانة مضطهدة بقسوة ، ومن ثم كان اهتمام المجتمع و انخراطها به متقلصاً للغاية، وكان وضعها السائد هو وضع دفاعى هدفه الأساسى مجرد البقاء والاستمرارية . وكان اهتمامها الاجتماعى في هذه الفترة موجهاً أساساً نحو أعضائها . وبدءاً من القرن الرابع بعد أصبحت المسيحية جزءاً لا يتجزأ من الحياة العامة على يد قسطنطين واجهت الكنيسة موقفاً جديداً تماماً، وأخذت فكرة «الخير» بعداً اجتماعياً . فتم تنظيم مؤسسات خيرية، ليس من أجل المسيحيين فقط تحت رعاية الكنيسة والبابا، وسنناقش باختصار تاريخ الاهتمام الاجتماعى للكنيسة فى هاتين الفترتين .

أ ـ الاهتمام الاجتماعى فى المسيحية السابقة على عصر قسطنطين

على الرغم من الاضطهادات الدموية من قبل الأباطرة ، والهجمات التي لا نهاية لها من المفكرين الوثنيين ، وعلى الرغم من البدع الداخلية لمذاهب الغنوسية والماركونية والمونتانية ، نجحت الكنيسة الرسولية في القرون الثلاثة الأولى ليس فقط أن تبقى علي قيد الحياة ولكن أيضاً أن تتسع بسرعة ، وكان ذلك نتيجة إحساسها بالشركة ، ذلك الإحساس الذى عبر عن نفسه من بين أشياء أخرى باستعداد المسيحيين لمساعدة المحتاجين وبتقديم التعاليم المتعلقة بالواجبات الاجتماعية للشخص المسيحى .

يبدو واضحاً من كل المصادر المسيحية والوثنية أن الممارسة العملية للخير نحو أخ مؤمن محتاج أو نحو وثنى يعاني المرض أو المصائب ، كانت سمة لا يمكن إنكارها فى الكنيسة الأولي . فيؤكد جاستين في دفاعياته « نحن الذين أحببنا طرق اكتساب الأموال، والحصول علي الممتلكات فوق أى شئ آخر ، نقدم الآن لصندوق الشركة ما نملك

ونشارك به مع كل شخص محتاج » (دفاع ١ / ١٤). ويوجه ترتليان هذه الملاحظة « لقد توجه اهتمامنا للمنبوذ والمهمل وأصبحت محبتنا العملية هى العلاقة المميزة لنا أمام العدو... انظر ما يقولون كيف يحبون بعضهم بعضاً و كيف هم على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل بعضهم بعضاً » (دفاع ٣٩).

أخذت هذه المحبة الصورة الملموسة في تقديم الصدقات والتى كان يقال إنها فدية روحية، و كفارة عن الخطية ، ويخبرنا ترتليان (دفاع ٣٩) أن المؤمنين أعطوا تقدماتهم أثناء الاحتفال بالقربان المقدس، وقدموها للأساقفة. وبعد تقديم هذه التقدمات للرب قام الشمامسة بتوزيعها على الحاضرين ، وأحتُجز جزء منها للمحتاجين الذين لم يحضروا الخدمة حيث حُمل بعد ذلك إلى بيوتهم . وكان الأساقفة يوجهون أعمال المعونة هذه ، لتعليم الكتاب المقدس وكان المستفيدون الأوائل من هذه المعونة هم الأرامل والأيتام . ولكن في الفترات التى كان المسيحيون يعانون فيها من السجن، والتى كانوا فيها يجبرون على المعاناة من أجل المسيح ، وجه اهتمام وحب خاص لهؤلاء. لقد كان واجباً و خاصة على الشمامسة أن يزوروا المسجون ويهتموا به ويعملوا على الإفراج عنه ، ولم يتردد أحد فى أن يقدم الرشوة (للسجانين من أجل ذلك) . كما أن المحبة المسيحية وصلت أيضاً إلى أولئك المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى المناجم (Eusabius .Hist . eccl . 6.61) ، فقد حاول الشعب المسيحى أن يكون على صلة بهم كما حاول الحصول على حرياتهم (Eusabius. Hist . eccl . 6.23) بل إن بعض المسيحيين حاولوا دفع فدية لإخوتهم المسجونين Eusabius فيذكر كليمنت الرومانى : « نحن نعلم إن كثيرين منا قد استسلموا للقيود من أجل فداء آخرين ، وأن كثيرين قد باعوا أنفسهم عبيداً ووفروا طعاماً للآخرين(Ad cor 1.2) بالثمن الذى تقاضوه وعندما قبضت الفرق النيوميدية فى عام ٢٥٣ على عدد من المسيحيين جمع المسيحيون فى قرطاج بقيادة سيبريان مبلغاً من المال للفدية ، معلنين أنهم على استعداد لتدبير المزيد عند الضرورة . وفى عام ٢٥٥ اشترك المسيحيون الرومان بأموال لفدية بعض أعضاء الشعب الكابادوكى الذى قبض عليه القوطيون (Basil , Epist . 70 Ad Damasum)

امتد نفس الحب و الرعاية أيضاً إلى المرضى و الموتى و المسافرين . فقد اعتاد الشعب زيارة المرضى وخصوصاً المصابين بأمراض مزمنة ، وفى أزمنة الوباء والكوارث العامة كانوا يقومون بمعاونة الضحايا بكرم وبلا خوف و يقدمون لهم الخدمات (Tertullian , AdUxor.204;Eusabius. Hist. eccl 7.22-9-10) واهتم المؤمنون اهتماماً كبيراً بدفن الموتى ، و كان الشعب يدفع مصاريف دفن الفقراء . وأما المسافرون الغرباء فقد كانوا ينعمون بالكرم (Didache 12 ; Hermas 8.10 ; Cyprian , Epist.7 etc.)

(Tertullian , Apol.39) وقد اشتهرت كنيسة روما بكرمها للغرباء (Eusabius Hist , eccl 4.23.10) وقد ظهر هذا الاهتمام ليس فقط بين الأفراد المسيحيين و لكن أيضاً بين الشعب المسيحى والشعوب الأخرى . وقد ذكر ديونيسيوس أسقف كورنثوس وديونيسيوس أسقف الاسكندرية وباسل أسقف قيصرية ويوسابيوس ، كيف اعتادت كنيسة روما أن تعطى اهتماماً بالكنائس الأخرى، و عندما كانت تلك الكنائس تواجه الحاجة كانت كنيسة روما ترسل لهم المعونات المالية .

كان على كنيسة القرون الثلاثة الأولي أن تعالج مسألة الرق، وكما هو الحال في العهد الجديد لم يرفض الرق كنظام اجتماعي، ولكن الكنيسة حاولت إصلاح أحوال العبيد ، وكان العبيد المخلصون يعتبرون إخوة و أخوات مع باقى المؤمنين، وكانوا يمنحون حقوقاً مساوية ، وكانت المكاتب الأكليريكية شاملة مكاتب الكهنة مفتوحة أمام العبيد، و كان العبيد من بين الشهداء سواء منهم الرجال أو النساء ، مثل بلاندينا وفليسيتى ، يلقون احتراماً مفرطاً، أما المعاملة المهينة للعبيد من قبل السادة المسيحيين فقد ووجهت بلوم قاس ، وعند الضرورة كانت تلقى عقاباً كنسياً . و فى بعض الأحيان كانت أموال الشعب تستخدم فى شراء حرية العبيد، ولكن من يحصل منهم (Ignatius,Ad polyc.4.3) علي حريته لم يكن له أن يعتبر هذه الحرية حقاً. وأخيراً كان على الكنيسة التى تتعرض للاضطهاد من قبل الدولة الوثنية أن تحدد علاقتها مع هذه السلطة الدنيوية ، فبينما كان هيبوليتوس يرى سطوة إبليس وراء سلطة الامبراطورية الرومانية ، كان أغلب الكتّاب المسيحيون بالعصر السابق على قسطنطين يتبنون اتجاهاً إيجابياً نحو الدولة الوثنية . فقد أكد كليمنت الذى

من الإسكندرية على الالتزام بالضرائب والخدمة العسكرية ، وكان يعترف بالقانون الروماني، فإذا ما اضطهدت الدولة الكنيسة كان لابد من الالتصاق بالعناية الإلهية (Paed . 2,14,1;3,91,3) وأما الشئ الوحيد الذى كان يحد الاعتراف بالقانون الرومانى هو ما يتطلب عبادة الإمبراطور وعبادة الوثن الذي تشجعه الدولة . وقد تبنى أوريجانوس هذا الاعتراف ، وكذلك ترتليان كان على اقتناع عميق (In Rom.Comm 9,39) بأن الدولة الرومانية كانت تحت سلطة الله ، رغم كل دفاعاته الجريئة عن حرية الضمير المسيحى فى مواجهة هذه الدولة الرومانية ، فكما أن الله هو رب المسيحيين فهو أيضاً رب الإمبراطور لذلك فإنهم كانوا يصلّون من أجل حسن سلوك الإمبراطور (Apol. 30 ; 32 ; 39) . بل من أجل بقاء الحكومة الرومانية .

ب- الاهتمام الاجتماعي للكنيسة منذ عصر مرسوم قسطنطين إلى نهاية عصر آباء الكنيسة

بتحول قسطنطين وحكمه المنفرد أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية . وهنا نجد أن كثيراً من الاحتمالات الايجابية والسلبية قد فرضت نفسها على الكنيسة ، وكفل القانون حرية العبادة والوعظ وأقيمت شروط جديدة لتطوير الاحتفالات الطقسية من احتمال إعادة بناء و تشييد أماكن مسيحية جديدة للعبادة والتى مولتها الدولة بسخاء وسهلت عناية الرعاة المؤمنين عن طريق تعليم شفهي غير مقيد بطريقة السؤال والجواب وعن طريق خدمات الأسرار المقدسة ، وأصبحت عملية التبشير تتم بدون إعاقة ، وفرضت الفرص نفسها للمفكرين والكتاب المسيحيين لاستخدام مواهبهم فى نشر كمٍّ من الكتابات اللاهوتية ، وفى القيام بالمهمة الضخمة لتنصير الحضارة الدنيوية والحياة العامة . وبصفة عامة يمكن القول إن الكنيسة عاشت فيما سبق بمعزل عن العالم الحضاري وانسحبت من الحياة الوثنية العامة لتحيا داخل إطارها الأخلاقى والدينى الخاص وأصبحت فى عزلة كاملة ، ولكنها الآن تتمتع بالحرية التى قادتها إلى الخارج وأجبرتها على تولى التزاماتها السياسية والاجتماعية بل إنها رسمت مبدأ يبرر اهتمامها الاجتماعى .

كانت المهمة الأولى الأكثر إلحاحاً للكنيسة هو تحديد علاقتها بالدولة وعلاقة الدولة

بها، وكان أساس هذه العلاقة هو الاتفاق من حيث المبدأ على أن تكون سلطة الدولة والكنيسة فى تعاون وثيق فى المجال العام . وقد كان هذا التعاون فى ظل حكم قسطنطين متجانساً إلى حد كبير ، فلم تكن قد نشأت بعد صراعات حادة بين الإمبراطور والكهنة ، ولم يكن حق الإمبراطور فى استدعاء مجالس السنودس محل تساؤل بأى حال من الأحوال ، كما كانت مجهوداته لقيادة سير المناقشات اللاهوتية من خلال مستشاريه الأكليريكيين مقبولة كشئ بديهى ، ولم تقابل عقوبة النفى التى أصدرها مراراً للهراطقة والمنشقين بمقاومة شديدة . ومن ناحية أخرى تعهد يوسابيوس الذي من قيصرية بتنظيم لاهوت سياسى ينظر بمقتضاه إلي الإمبراطور على أنه نائب الله على الأرض دعي ليعمل على تحقيق خطة الله للخلاص ، أصبحت تلك السلطة غير المحدودة واقعاً يمثل مشكلة خطيرة فى عهد كونستانتيوس (٣٣٧ - ٣٦١) الذى ظهر ميله لممارسة سيطرة شديدة على الكنيسة فى أثناء مجمع سارديكا (٣٤٢) ووصل ميله هذا إلى قمته بعد ذلك في مجمع ميلانو (٣٥٥) . و قد قوبل ادعاء كونستانتيوس بأنه أسقف الأساقفة بمقاومة من قبل هيلارى من بوتيرز ، ورودونيوس من تولوز ،episcopus episcuporum وهوسيوس من قرطبة وأثناسيوس من الأسكندرية الذى كان أول أسقف بالقرن الرابع يصيغ مطالبة الكنيسة بالحرية قبل الدولة . تعرضت الكنيسة فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية فى عهد فالنز (٣٦٥ - ٣٧٨) مرة أخرى للتدخل الفاشسيتى من قبل السلطة الدنيوية فى الشئون الاكليريكية وخاصة فى الجدال الآريوسى (منسوب إلى آريوس وهو كاهن اسكندري قال بأن الابن « المسيح » غير مساوٍ للآب في الجوهر) . وفي هذا الوقت قاوم باسل الإمبراطور . وكما ورد في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (١٣ : ١ - ٤). كان أسقف قيصرية مقتنعاً أن السلطان الأرضى خاضع دائماً لقانون الله ولذلك عندما تعارض الدولة القانون السماوي فإن المسيحى يضطر لمقاومتها . ولكن أمبروز أسقف ميلانو دافع عن حرية الكنيسة بشكل مطلق فى مجال نشاطها ضد تدخل الدولة ممثلة فى غراتيان (٣٧٥ - ٣٨٣). وفالنتينيان الثانى (٣٨٣ -٣٩٢) وأهم منه ثيودسيوس العظيم (٣٧٩ - ٣٩٥) وهو يرى «أن الإمبراطور ليس فوق الكنيسة . وكانت هناك حالات فردية محل تساؤل ، Sermo c. Auxentiuw , 36» مثل ذلك الجدل الذى أثاره أمبروز . فوجهة نظره الأساسية

أن هناك علاقة إيجابية بين الكنيسة والدولة ، على أن المجال الأعمق لحياة الكنيسة أي الإيمان والنظام الأخلاقى والتأديب الكنسى يبقى بعيداً عن سلطة الدولة ، وهى وجهة النظر التى صارت مبدأً فى الغرب اللاتينى بالنسبة للعلاقة بين الكنيسة والدولة .

لقد كان انخراط الكنيسة فى المجال الاجتماعى متغير الصورة واسع النطاق بشكل كبير . فقد كان لإصلاح الإمبراطورية الذى بدأه ديوكليتيان و أكمله قسطنطين آثاراً طويلة المدى لتركيبة الإمبراطورية الاجتماعية . ونظراً لأن نموذج الحياة البالغ الفخامة للبلاط ومرتبات طبقة موظفى الدولة ، والدعم الخاص بالجيش تتطلب إيرادات ضخمة ، فقد فرضت ضرائب ثقيلة حيث تحملت الصناعات الحرفية الصغيرة ، كما تحمل الفلاحون وصغار المستأجرين العبء الأكبر منها، ونتجت عن ذلك معارضة حادة بين الأغنياء وأصحاب السلطة من ناحية والفقراء والضعفاء من ناحية أخرى . وكان هذا هو الوقت الذى تمكنت فيه الكنيسة ، حيث منحت الحق الشرعى لامتلاك الأملاك أو الاستفادة بالأموال التى كان قد صادرها ديو كلينتيان بالإضافة إلى الثروات الكبيرة التى تنازل عنها للكنيسة للأشخاص الذين تحولوا إلى المسيحية ، كل هذا ساعد الكنيسة على أن تبسط معونتها وعنايتها الاجتماعية إلى الجميع . وكما هو الحال فى القرون الثلاثة الأولى ، لم تر الكنيسة نفسها مدعوة لإصلاح الهياكل الاجتماعية والاقتصادية غير العادلة التى كان ينظر إليها على أنها نتاج الخطية ومن ثم لابد من تحملها. إلا أنها شعرت أنها مضطرة لتحسين أحوال الكثيرين من أولئك الذين كانوا يعانون الفقر والاستغلال ، وهذه النظرة الأساسية واضحة جداً بالنسبة للرق ، فقد كانت الكنيسة تنظر إلى الرق من ناحية على أنه عنصر ضرورى للنظام الاقتصادي المعاصر، أو كصورة من صور الأملاك ، ومن ثم كانت تحترم سريان القانون المدنى الذى ينطبق على العبيد ، بل أنها أخذت العبيد إلى خدمتها وإلى ملكيتها عند انتقال هذه الملكية إليها بوصية ، وعند الضرورة كانت تدافع عن حقها فى امتلاكهم . ومن ناحية أخرى نجحت الكنيسة أكثر من أي مؤسسة أخرى فى ذلك الوقت في تحسين أحوال جموع العبيد واعتبرت الجميع - العبد والسيد - أعضاء متساوين ، وعاملتهم على هذا الأساس فى الطقوس وكانت العظات تحث الملاك أن يعاملوا عبيدهم برفق وأن يرعوا مصلحتهم الدينية

In ep. ad Eph. hom . 22: Ambrose , Ep. (const. Apost. 4, 6, 4: cbrysos tom 15

etc. - De civ. 14 14 2 , 31 Augustine) , ونتيجة لتأثير الكنيسة فقد بدأ من القرن الرابع نمو حركة تحرير العبيد بقدر كبير ، وفي بعض الأحيان كانت الكنيسة تشترى الحرية للعبيد بوسائلها الخاصة . و ربما كان نتيجة هذا التدخل المستمر للكنيسة وحصول العبيد على التحرر التلقائى أن أعطى قسطنطين الكنيسة عام ٣٢١ حق توقيع هذا التحرير بإجراء خاص داخل مبنى الكنيسة ، مع كل الآثار القانونية التى ترتبط بإجراءات القانون المدنى . وظهرت إمكانية أخرى لمساعدة العبيد عندما تم تطبيق النظام القديم فى حق اللجوء إلى الكنائس المسيحية ، وبذلك كان العبيد الذين يهربون إلى كنيسة ما يوضعون تحت حمايتها الخاصة .

هناك مجموعة أخرى من الناس لقيت أقصى عناية واهتمام من الكنيسة، هم الفقراء . ففى مواجهة التوزيع غير المتكافئ بشكل صارخ للملكية و الثروة ، وفى مواجهة الأغنياء الذين كانوا يرغبون فى التصرف بممتلكاتهم غير مقيدين بأى التزام تجاه الفقراء ، و فى مواجهة أسلوب الحياة المترف لأصحاب الأملاك الذين لم يضعوا حداً لاستمتاعهم بالمسرات و الثروات ، وفى مواجهة الحاجة الشديدة لاهتمام موجه من الدولة لإيجاد أساس قانونى يمكن أن يؤدى إلى تحسين حالة الضعفاء اقتصادياً واجتماعياً، قامت الكنيسة بالإضافة إلى تأكيدها على الوظيفة الاجتماعية للملكية وندائها لضمير المؤمن . وهو الأمر الذى سنعود إليه لاحقاً برعاية المؤسسات الخيرية وإدارتها . وكان هذا العمل محل دعم من أعضاء الكنائس المحلية مع تحمل الأسقف المحلى مسئوليته . وأعطيت الإدارة المباشرة لأحد الشمامسة، وكان يعاونه شماسات وأرامل للقيام بخدمات معينة ، وبذلك بدأ القديس بازل بتشييد مجموعة من المبانى على أطراف مدينة قيصرية فى كابادوكية الهدف منها استقبال الغرباء و الأشخاص المرضى، وخاصة المنبوذين منهم ، وجهز هذه المبانى بعاملين مؤهلين لذلك (sozomen , Hist . eccl . 6.34). وفى أنطاكية امتلك شعب الكنيسة مستشفىً كبيراً ونزلاً للغرباء . وحقق التقدير البالغ لكرم الرهبنة ظهور دار الضيافة (xenodocheion) بكل دير كبيرللرهبان ، كما اهتمت مراكز الرهبنة بعمل اجتماعى آخر تميزت به وهو جمع الصدقات وتوزيعها على المحتاجين (the cliaconia) . وبتأييد الحكومة الإمبراطورية انتشرت ملاجئ الفقراء بشكل واسع فى مصر و فلسطين و

شرق اليونان، و فى شبه الجزيرة الإيطالية، وحتى فى روما بعد إعادة الفتح الجستيني.

فى الغرب أيضاً ظهرت الأعمال الخيرية، و يكفى ذكر أولئك الأساقفة أمثال أمبروز فى ميلانو ، وأبيفانيوس فى بافيا ومكسيموس فى تورين وبولينوس فى نولا ومارتن فى تورز ونيسيتيوس من ليون وسيدونيوس في أبوليناريوس . وبالوصول إلى ذلك العصر تخطت أعمال الخير المنظمة بواسطة الأساقفة الشكل البسيط الذى كان يوجه أساساً لصالح المسيحيين الأخوة إلى مرحلة العمل الاجتماعى الواسع الموجه إلى الجميع . وفى روما لا يجب أن ننسى عمل الباباوات وخاصة جلاسيوس وسيماكوس الذين أسسوا ثلاثة دور للفقراء ، وأهمهم جريجوري العظيم، حيث وجه اهتمامه الأول إلى أعمال الخير. وقد كان تعبير «سلع الفقراء » يستخدم غالباً للتعبير عن أوقاف الكنيسة " نحن لا نملك ثروة خاصة بنا ، ولكن العناية بسلع الفقراء وإدارتها قد أوكلت لنا "(جريجورى Registrum Epistolorum 13.23) .

٤ ـ الرسالة الاجتماعية للآباء

قام الآباء بالإضافة إلى الاهتمام الاجتماعى بتنظيم مبدأ اجتماعى ، وقد كانت تعاليمهم الاجتماعية ، كما ذكرنا، مؤسسة على تعاليم الكتاب المقدس فقاموا بتطبيقها على الظروف التاريخية الجديدة ، وطوروها فى ضوء الظروف . وفى الجزء الأخير من هذه المقدمة سنقوم بتحليل المعتقدات الرئيسية لهذه التعاليم ، هناك جوانب لن نتعرض لها رغم صلتها الوثيقة بهذه التعاليم، لأننا سنبحثها فى أجزاء أخرى من الدراسة مثل : الأخلاق والنساء والحرب . يلخص د. سييرا برافو في مجموعته الخالدة Doctrina social y economica de los padres de la Iglesia النقاط المشتركة للتعاليم الاجتماعية للآباء كما يلى :

١ ـ خضوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية لمعايير العدالة والخير .

٢ ـ أولوية المصلحة العامة على المصلحة الفردية .

٣ ـ تساوى جميع البشر مهما كانت ظروفهم الاجتماعية .

٤ ـ تنوع الظروف الاجتماعية وتعددها يؤدى إلى عدم تساوى البشر .

٥ ـ يريد الله رفع عدم المساواة التى تنتج حتمياً بسبب الاختلافات الطبيعية ، وبسبب

حرية البشر، وذلك عن طريق تطور ونمو الحياة الاجتماعية .

٦ ـ يريد الله أن تكون هناك وظيفة اجتماعية للتميز والتفوق بدلاً من أن يكون سبباً للاختلاف .

٧ ـ لذلك يوجد التزام بالمشاركة فى خدمة الآخرين ووضع كل التميز الفردى وكل المواهب الشخصية في صف هذه الخدمة .

هذا وسنقوم بتفنيد التعاليم الاجتماعية الخاصة بآباء الكنيسة في ثلاثة مجالات هى : السياسية ، العلاقات الاجتماعية ، والاقتصاد .

أ ـ النظام السياسى : يناقش الآباء بصفة رئيسية، شرعية الدولة والتزامات وواجبات الخاضعين لها، والعلاقة بين الكنيسة والدولة .

(١) شرعية الدولة

بالاستفادة من الفلسفة السياسية القديمة، و من الكتاب المقدس يقر الآباء نظام الدولة ، لأسباب طبيعية وأخرى خارقة للطبيعة . ويعتبر لاكتانتيوس متبعاً فى ذلك أرسطو وشيشرون وسينيكا الدولة تكوين طبيعى يعيش فيه الإنسان وفقاً لطبيعته الاجتماعية ، وليس كنتيجة مباشرة للخطية الأصلية . على أنه يمكن أن نجد عند لاكتانتيوس اقتناعاً بالفكر الأبيقورى عن الدولة كوسيلة ضرورية لإنهاء العنف وتأكيد النظام طالما أنها تستخدم القوة وتمارس السيطرة ضد الشرير ، ولذلك فإن ضرورة وجودها هو نتيجة للخطية الأصلية . كذلك يطور أمبروز هذه الآراء ، فمن تصرف الطيور والنحل و السمك يستنتج أمبروز أن الإنسان أيضاً يحتاج ليس فقط إلي تنظيم اجتماعى ولكن أيضاً إلي هيكل تتحكم بواسطته الدولة . على أن أمبروز يفرق بين نموذجين من التنظيم الذى تتحكم به الدولة يميز بينهما السقوط . ففى البداية تساوى جميع الناس فى مزايا الدولة ووظائفها، ولم يكن لأحد أن يمارس سلطة استبدادية على الآخر . ولكن بعد السقوط، نتج عن الطموح والرغبة فى السيطرة نظام استبدادى تمارس فيه السلطة التى يتم الحصول عليها والاحتفاظ بها بالقوة بواسطة فرد واحد، و لمصلحته الشخصية . فنطاق الدولة ليس فقط ثمرة الخطية والمفروض فى هذا النظام أنه يحارب الشر لكنه الآن أصبح شراً فى ذاته .

وتعليقاً على ما كتب بولس الرسول (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٣: ١-٤) يفضل الآباء أن يلقوا نظرة أكثر إيجابية على هذا النص : فكل السلطان من الله والسلاطين الكائنة مرتبة من الله ، ومن ثم يؤكد أمبروز : « لا توجد سلطة شريرة فى جوهرها » (Expos. evang.sec.Lucam 111.29 -31).يتوصل أمبروز أيضاً وفقا لبولس الرسول (رومية ١٣ : ٧) إلي نظرية عن سلطة الملك التبشيرية : الملك هو ممثل الله إذا استخدم سلطته الاستخدام الصحيح (Ibid.) . وفى القرن الرابع يعلن يوسابيوس الذى من قيصرية في كتابه panegyric on constantine أن الإمبراطور ليس فقط ممثل الله ولكنه أيضاً نظيره علي الأرض المعيّن بالعناية الإلهية للمهام المقدسة الخاصة بحكم شعبه، وحماية كنيسته، وتحقيق خلاص النفوس . هذا التفسير المجد للملكية سيعمل كواحد من أساسات البابوية البيزنطية القيصرية فيما بعد.

إن لاهوت أغسطينوس السياسى يستحق النظر بصفة خاصة ، فقد تسيد على كل المناقشات اللاحقة للسلطة خلال العصور الوسطى ، باستعارته من كلا المصادر الوثنية (وخاصة أفلاطون عن طريق شيشرون) والمصادر الكتابية . يضع أغسطينوس نظرية المدينتين ، فلا تتماثل (المدينة الارضية) civitas terrena مع الدولة كما لا تتماثل civitas dei (مدينة الله) مع الكنيسة . فكلاهما مجتمعان مثاليان أولهما حسب الجسد و الآخر حسب الروح ، وكلاهما يتحققان جزئياً فى تكوينات تاريخية مجسمة . وكما أن الدولة ليست دائماً مدينة الشيطان ، ولذلك لا يدين أغسطينوس الدولة على هذا الأساس ، ولكن على أساس إنجازاتها التاريخية التى أفسدتها الرغبة فى الاستبداد وفساد الحكام واستغلال الضعفاء . (civ.dei,3,14;4,3 and 7,etc.) .

وأوغسطينوس مثل معاصريه يقر وجود الدولة بناء على أمرين : الطبيعة الاجتماعية للإنسان التى تجعل من هذه الدولة مؤسسة طبيعية (civ,dei ,18,2;19,6,12,14,19) والخطية الأصلية التى تجعل منها شراً ضرورياً (civ, dei, 19, 15) . فالدولة التى أرادها الله لابد أن تمارس سلطتها وفقاً للإرادة السماوية وبسبب أصلها فإن سلطتها لا يمكن أن تكون استبدادية ولا بدون حدود ، ووظيفتها هي تأكيد النظام والسلام والوحدة (civ, dei, 19, 13,17) كذلك لابد أن تعطى الدولة الاحتياجات والاهتمامات المادية والاقتصادية وكذلك

الأخلاقية والدينية لمواطنيها .

(٢)ـ التزامات الدولة

وفقاً لأوغسطينوس يجب أن يحكم الحاكم بالعدل دون أن ينسى أنه إنسان، فالحاكم العادل الذى يستخدم سلطته لتعزيز التعاليم الإلهية ، هو الذى يحب الله ويخافه ويكرمه ، هو ذلك الحاكم البطئ في الانتقام والسريع في الغفران ، الخاضع للقانون . أما القديس أمبروز فيرى وفقاً للقانون الرومانى (Princeps Legibus - Solutus) أن الحاكم غير مرتبط بالقوانين البشرية ، لكنه رغم ذلك مرتبط بضميره، ومن ثم لابد أن يحترم قوانين الضمير.

(٣)ـ واجبات الرعية

تلتزم الرعية بإطاعة سلطة الدولة ، وهى طاعة مطلوبة من عند الله (Augustine , ser-mo 62 , ch .8 , n. 13) . وحتى لو كان الحاكم غير عادل فإنه لابد أن يطاع بشرط أن لا تكون أوامره آثمة .

كان المدافعون عن الديانة المسيحية مهتمين بأن يوضحوا أن إخوتهم المسيحيين مواطنون صالحون يحترمون القانون و يطيعون السلاطين . فوفقاً لأمبروز (Exp.Ev.sec.Luc.,4,73) وأُغسطينوس (civ, dei, 1, 35) يجب أن يكون المسيحيون أفضل مواطنى الدولة ، كما أن أداء الوظائف العامة يعتبر صورة من طاعة الدولة وخدمتها، ودفع الضرائب واجب غالباً ما كان الآباء يؤكدون عليه (Ambrose , Ep . to va-lentinian 11 , 21 , 23 , 35 ; Augustine , Ep . 96) . كذلك لابد أن يخضع المسيحيون للعدالة الدنيوية ، فيؤكد أمبروز شرعية النظام القضائى في الإمبراطورية و يقبل عقوبة التعذيب والإعدام ، وأخيراً يلتزم المسيحيون بمراعاة القوانين المدنية واحترام النظام الاجتماعى . وكثيراً من المرات ما كان البابا جيلاسيوس يؤكد هذا الواجب (Ep.14,14;Ep.22). على أن الطاعة للدولة ليست بلا حدود، فقانون الله يعلو قانون الإنسان، ولابد للإنسان ألا يفعل شيئاً يتعارض مع قانون الله بحجة إطاعة قانون الإنسان، ومن ثم تصبح مقاومة القانون الآثم أو الأمر غير العادل عملاً قانونياً على ألا تأخذ صورة العصيان المسلح . وكلُ من أمبروز وأُغسطينوس يدين اللجوء للعنف ، إذ لابد للإنسان أن

يحتمل الظلم ، فالله وحده هو الذي يعاقب .

(٤)ـ الكنيسة والدولة

تعرض مبدأ آباء الكنيسة عن العلاقة بين الكنيسة والدولة للتطوير إبتداءً من القرن الرابع، و حتى القرن الخامس بسبب كونستانتيوس الذي تدخل بشكل غير رسمى في الشئون الكنسية ظهر مبدأ عدم التدخل وبدئ فى تعلمه على يد هوسيوس من قرطبة ولوسيفر من كاجلياري و هيلارى من بويتيرز ، وأهم من كل هؤلاء أمبروز . وخطاب هوسيوس إلى كونستانتيوس معروف جيداً : « لا تدخل في أمور كنسية ولا توجد لنا أوامر في هذا الشأن و لكن تعلم عنها منا ، لأنه في يديك وضع الله المملكة ، أما شئون الكنيسة فقد أُلزمنا بها ». (Athanasius Hist. Ar. , 44) . ويقترح أمبروز مبدأ مختلف بفارق أبسط، . فهو يميز بين الدينreligio والدولة res publica، فبينما يمارس الإمبراطور أعلى سلطة في الدولة ، يكون الإيمان و الانضباط هما المجال المحفوظ للأسقفية " Ad impe-ratorem Palatia Pertinere . ad sacerdotem ecclesiae " (Ep.20,19) فيفما يخص الأمور الدينية لابد أن يتبع الإمبراطور تعليمات الكنيسة . فهو كمسيحى يكون في الكنيسة ويخضع لقوانين الله (Contra Auxentium . 36) . ويوجد هذا المبدأ نفسه لدى غريغوريوس النازينزى (orat.17,8) ولدى يوحنا فم الذهب (In Ep. 2 ad corinth. , Hom. 15 c. 4 - 5) ، بل علاوة على ذلك لابد أن يساعد الإمبراطور الكنيسة أيضاً : يؤكد أمبروز أن على الإمبراطور أن يدعو المجلس للاجتماع ، ويعاون الأساقفة على الاشتراك فيه، ويصدق على قراراتهم ويعمل على تنفيذها .

فى بداية القرن الخامس تحسنت العلاقة بين الكنيسة والدولة واحتاجت الإمبراطورية التى ضعفت فى الغرب إلى الكنيسة، لا بل أن الكنيسة نفسها رغبت فى الحصول على مزيد من السلطة و التأثير، لذلك ظهرت طريقة جديدة للتعامل خارج نطاق عدم التدخل ، مرغوبة من كلا الطرفين ومفيدة لهما . ويساعدنا هذا الوضع الجديد على فهم مبدأ أغسطينوس عنالكنيسة و الدولة ، فهو يؤكد بوضوح أكثر من أسلافه على الفصل بين السلطتين .

فالسلطتان أي الدولة والكنيسة مختلفتان في طبيعتهما (جسدى ، أخلاقى) وفي أهدافهما (الحياة الخارجية لمختلف الشعوب ـ الحياة الروحية لكل البشرية) وفي أساليبهما (السيف ـ الخير) وفي مقاصدهما (مؤقتة ـ أبدية) علي التوالي . هذه الاختلافات تبرر استقلال كل سلطة في عالمها. علي أن المجتمع الديني والمجتمع المدني قد صنعا كلاهما من أجل الإنسان ورفاهيته ، ولذلك يوجد بينهما إذا لم يكن تطابق في الغرض فعلي الأقل توافق في المهام ، مما يسوغ ويتطلب التعاون بينهما ، فالكنيسة تساعد الدولة بصلواتها، وبتعاليمها الأخلاقية ، وبأوامرها إلي المؤمنين بأن يكونوا مواطنين صالحين ، والدولة من ناحية أخري لا بد أن تمنح الكنيسة معونة مادية وامتيازات وتؤمن سلامها (Ep. 185,28)، علي ألا يؤدي هذا التضافر والتعاون بالطبع إلي الثيوقراطية أو الحكومة الدينية .

هذا التمييز وهذا التضافر والتعاون كان محل تأكيد بعد ذلك من ليو العظيم، وسلستنيوس الأول وفلكس الثالث وأهم من هؤلاء جلاسيوس ، وقد كتب الأخير في رسالته الشهيرة إلي الإمبراطور أناستاسيوس «هناك قوتان تحكمان العالم هما : السلطة الكنسية المقدسة والسلطة المدنية ويجب أن يكون بينهما تبادل للخدمات . فالإمبراطور لا يخضع للكنيسة إلا لكونه مسيحياً وذلك فى الأمور الدينية فقط ، ولا يدّعى جلاسيوس أن له سلطة مباشرة فى الأمور الزمنية .

ب ـ العلاقات الاجتماعية

(١) الحرية والرق

كانت مشكلة الرق واحدة من أهم المشكلات الاجتماعية الأكثر أهمية فى عصر آباء الكنيسة، وقد ذكر أعلاه كيف أن الكنيسة حاولت إصلاح ظروف العبيد وكيف أن مجهوداتها نجحت على المدى البعيد فى إلغاء الرق كمؤسسة اجتماعية، ويبقى أن نفحص كيف كان الآباء ينظرون إلى الرق على هذا النحو.

لم يكن للآباء إلا أن يؤكدوا المساواة والحرية أساساً لكل البشر، وقد علمنا الكتاب المقدس أن جميع الرجال والنساء هم أولاد الله ، ومن ثم فهم إخوة وأخوات ، وادعت الرواقية أن العبيد بشر ، وأن العبد الحقيقى هو الذى يخضع للعواطف والانفعالات.

وبالنسبة لهذه النقطة كان فكر الآباء إجماعياً على أن الإنسان حر بالطبيعة (Ambrose . Ep. 37 , 24 ; John Chrysostom, Ep. ad Ephes. Homel. 22,6,2,Ep. Iad - Corinth. Hom. 15;Gregory of Nyssa , Hom. Iv in Eccl. Basil. De spiritu .Sancto, 20)

وعلى الرغم من ذلك فقد تأثر الآباء تأثراً عميقاً بروح عصرهم ، فلم ينظروا لنظام عالمى كالرق على أنه يخالف كرامة الإنسان ، فقد كان الرق يبدو لهم ضرورة اقتصادية ، وأحد نواتج الحرب ، والخطية ، وكذلك اعتبر الآباء الرق مؤسسة ضرورية للنظام الاجتماعى الذى لم تفكر الكنيسة فى هدمه، بل والواقع أن رجال الدين والهيئات الدينية نفسها كانوا يملكون عبيداً. فالرق كان صورة من صور الملكية الخاصة التى لم تتعرض لها الكنيسة بالإدانة فقط، ولكنها أيضاً كانت تعمل على تبريرها. وكانت الوصية للعبيد أن يطيعوا سادتهم «لمجد الله » . (75.1 Basil, DeSpiritu Sancto,20;Moralia) . وبينما كان كل من كليمنت وأوريجانوس يدافعان عن العبيد ، كان لترتليان وجيروم اتجاه غير رحيم للغاية نحوهم، والغريب أن ترتليان كان يقارن الشياطين بالعبيد المتمردين (Apol., 27,7)كما اتهمهم جيروم بأنهم مغتصبون للأموال وناشرون للفضائح (Ep. 38,5;54,5; 107, 8) . وقد أقر مجلس جانجا فى عام ٣٤٠ ما يلى «إذا قام أى شخص بتعليم عبد على زعم الرحمة بأن يحتقر سيده وأن يهجر عمله وألا يخدم سيده بعزيمة وبكل احترام فليكن ذلك الشخص اناثيما (Canon 3) .

يوضح البابا جلا سيوس فى كثير من رسائله ميله الشديد لاحترام حق السيد فى ملكيته، متى حق للكنيسة امتلاك العبيد.

بفحص تعليم الآباء عن الرق لا يمكن للقارئ الحديث وهو يعجب بمجهوداتهم الكريمة لتحسين أحوالهم إلا أن يرغب فيما لو أن الآباء أكدوا وفقاً لقناعتهم العميقة بالمساواة بين البشر وحريتهم ، على إدانة الرق واعتباره نظاماً آثماً.

(٢) العمل والبطالة

غالبا ما يتهم المسيحيون الأوائل بالكسل والبطالة ، وعلى هذا الاتهام يجيب ترتليان قائلاً : إن المسيحيين مثلهم فى ذلك مثل الآخرين ومع الآخرين يقومون بتجهيز السفن

للإيجار وكذلك الخدمة بالجيش والعمل في الريف وفى المدينة (Apol.,42,1). والواقع أن الآباء - طاعة للرسول بولس - كانوا يشجعون ليس فقط العبيد ولكن أيضاً المسيحيين الأحرار على العمل، حيث يكتب كليمنت من روما، "العامل الصالح يحصل على العيش فى مقابل عمله بجسارة، بينما العامل السيئ والمهمل لا يواجه صاحب العمل بجرأة (I Clement, 34:1) وتعنى الديداكي (الرسالة التعليمية) كثيراً بالمسيحيين الرحل الذين يجب أن يحصلوا على أجر مقابل بقائهم "إذا رغب فى البقاء معك وكان حرفيا، دعه يعمل ويأكل" (Didache 12:3) . وتشارك Didascalia apostolorum في نفس الرأى : " انشغل بالأشياء المتعلقة بالرب أو انخرط فى عملك ولا تكن أبداً عاطلا" . ومرة أخرى يحث المؤلف المسيحيين على أن «يعلموا أولادهم حرفاً تكون مناسبة ومطابقة للدين حتى لا يعطوا أنفسهم للعبث بسبب البطالة» . وتتكرر كل هذه الوصايا فى الدساتير الرسولية الخاصة بالقرن الرابع حيث يوجد فصل واحد تحت عنوان «المؤمنون العاطلون لا يأكلون» .

عندما يدّعى بعض المنتمين لمجموعة ميسال كلمات المسيح: «لا تهتموا بالطعام البائد»، يجيب ابيفانيوس بالتأكيد على أن المسيحيين لا يجب أن يكونوا عاطلين أو بلداء أو يأكلون فى غير أوقات الأكل بل يجب أن يعملوا بأيديهم (Cfr. Haer. Lxxx 4,1-5) . وأخيراً ينظر إلى العمل ليس فقط كوسيلة لحصول الإنسان على احتياجات الحياة الأساسية، ولكن أيضاً كطريقة لكسب الموارد المادية التى يساعد بها المحتاج والفقير. والمصدر الحقيقى للثروة هو العمل (Ambrose De Cain et Abel , 2, 2, 8) ، بل إن العمل الزراعى وملكية الأرض هى مصادر مفضلة للكسب (Ambrose De Off. , 111 , 6 , 38 - 41) .

جـ- النظام الاقتصادى

تحت هذا العنوان الأخير تتم دراسة تعاليم الآباء عن طبيعة الملكية الخاصة ووظيفة الثروة الاجتماعية ومسألة الفوائد والربا .

(١) حق الملكية

يؤكد أمبروز - مثل آباء كثيرين غيره ، متبعاً شيشرون وسينيكا وجود الدولة البدائية قبل السقوط حيث الملكية الخاصة لم تكن معروفة، فقد خلق الله أصلاً كل شئ للاستخدام

العام، ويحق لكل شخص أن يتمتع بأطايب الأرض. أما الملكية الخاصة فهى تخلق عدم المساواة في الممتلكات والظروف ، وهى بهذا المعنى تعتبر نتيجة للخطية (De Off. 1, 28. 132 ; De Nabutha, 1, 2 ; Expos. Evang, Sec Luc. 7, 124; 247)

وحتى بعد السقوط لم تكن الملكية الخاصة واضحة، وبالتعبير الدقيق لم يكن الإنسان يملك شيئاً، فكل شئ قد خلقه الله وكل شئ مملوك له . (Ep. 1 ad Corinth. Hom., 10,2) ويجب أن نتداول تعبير (استخدام الأشياء وإدارتها) بدلاً من تعبير الملكية .(Salvian , Ad Ecclesiam , 15 , 26)

يبدو ظاهراً من نصوص كتابات الآباء أنهم لم يدينوا الملكية الخاصة على هذا النحو ولكنهم يدينون إساءة استغلالها ومفاسدها. ويميز باسل فى Hom. 6 in illud Lucae "Destruam,"7 بين الهدف العام للموجودات التى خلقها الله لاستخدام الجميع، وحق الملكية الذى يعترف بشرعيته، كما يعترف بها سائر الآباء الآخرين . وعلى هذا لا يقصد الآباء الدفاع عن أى صورة لشيوعية الموجودات الأرضية . ويرى كليمنت الذى من الاسكندرية في كتابه «من هو الإنسان الغنى الذى حصل على الخلاص» أن الثروة هى وسيلة لإنتاج الأخوّة والمشاركة. ومن ثم يعتمد حق الملكية الخاصة على الفائدة الناجمة عن استخدامها . فهناك حق للملكية الخاصة، ولكن حق محدود باحتياجات إخوتنا من البشر المسيحيين أولاً ثم ربما احتياجات الآخرين.

أما أوريجانوس فإنه ينقد فى كتابه «تعليق على إنجيل متى» أى شخص لا يتبع وصايا الإنجيل حرفياً، ويبيع ممتلكاته من أجل الفقراء. ولكنه لا يضع أى نظرية عن الملكية الخاصة بل يميل إلى الفقر الاختيارى كصورة من صور الزهد. وكذلك الأمر فى قرطاجة يتحدث ترتليان عن جدوى الغنى لفعل الخير، وبينما يؤكد سيبريان عدالة الله المساوية فإنه لا يناقش شرعية الملكية الخاصة. وكان كتانتيوس صريحاً أكثر من الآخرين ، فقد هاجم فكرة الشيوعية الأفلاطونية المطبقة ليس فقط على الزوجات ولكن على الملكية المادية (تتضمن الملكية الخاصة كلا الرذائل والفضائل)، أما المشاركة الشائعة فإنها لا تحمل شيئاً إلا الترخيص بالإثم (Div. Inst. , 3 , 22). كما يقرر أن العدالة الكاملة تكمن في استخدام الثروة ليس للمتعة الشخصية ولكن لمصلحة الكثيرين (Ibid.,6,12) .

لم يحدث إلا فى العقد الأخير من القرن الرابع عندما ساءت الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للإمبراطورية بشكل كبير ، أن نجد هجوماً أكثر قوة من بعض الآباء ليس على الملكية الخاصة بقدر الهجوم على تجميع هذه الملكية بشكل زائد فى أيدى الأغنياء، ونجد بعض الآباء يهاجمون بجسارة إساءة استخدام الملكية الخاصة، حيث يشجب كل من باسل فى قيصرية وغريغوريوس النازينزى ويوحنا فم الذهب وأمبروز فى ميلانو وأغسطينوس فى هيبو بكتاباتهم، وفى عظاتهم، محبة المال وأسلوب الحياة الفاخر للأغنياء وعدم الاهتمام بالفقراء. ولكن من غير الممكن أن نجد فى كتاباتهم أي دفاع عن المشاركة على المشاع بشكل إجبارى ، وتبقى الملكية الخاصة كما هى.

(٢) الوظيفة الاجتماعية للملكية

على أن الآباء لا يدافعون بالتأكيد عن الملكية الخاصة على هذا النحو ، بل هم ببساطة ينظرون إليها على أنها أمر مسلم به ، علاوة على أن التوقع المبكر لملك الله يبعدهم عن المحبة المفرطة للأشياء العالمية، بنفس الصورة التى أثرت بها روح النسك والرهبنة، وفوق كل شئ فهم بتشربهم روح الإنجيل على فعل الخير، يصلون بنظرية الملكية الخاصة إلى فهم جديد .

يرى القانون الرومانى أن الملكية حق بشرى دون تأكيد على ما يتبع ذلك من التزامات اجتماعية . وعلى العكس يحوّل الآباء معنى الملكية ويؤكدون ضرورة الانفصال عن الماديات ويسترجعون ارتباط المسيح بالفقراء ، وأخيراً يطالبون بإعطاء الصدقات كنوع من مشاركة الأشياء الأرضية مع الآخرين.

أولاً يُنظر إلى الملكية أساساً ليس كامتلاك ولكن كوكالة، لقد جعل الله كل الخليقة متاحة لكل البشر ، والأغنياء هم أساساً وكلاء لها ، ومن ثم فإن أولئك الأغنياء لابد أن يسايروا إحسان الله وكرمه في مشاركة الأشياء المادية مع جيرانهم (الرسالة إلى ديوجنيتوس ١٠ . ٢؛ سيبريان، "عن الأعمال والصدقات"٢٥). كما يكتب أمبروز: «لقد أمر الله أن يتم إنتاج كل الأشياء حتى يكون هناك طعام للجميع وحتى تكون الأرض ملكاً مشتركاً للجميع» (De Off. 1,132) . وعلى الرغم من اعترافه بحق الملكية الخاصة يؤكد أمبروز أن الصدقة من جانب البخيل ليست إلا مجرد استعادة لأشياء مسروقة ، وما يعطى للفقير هو ببساطة

إعطاءه ما هو حق له: «إنك لا تقدم عطية من ممتلكاتك إلى الإنسان الفقير، إنك تسلمه ما هو له » (De Nabutha, 12,53). ويفرق يوحنا فم الذهب بوضوح بين الثروة التى هى عطية الله وبين الطمع بلا رحمة الذى يجعل الملكية إثماً: «إن أولئك الذين أهاجمهم ليس الأغنياء ولكن أولئك الذين يسيئون استخدام ثرواتهم .. فالثروة شئ واشتهاء ما للغير شئ آخر (Fall of eutropius 2.3) . وأُغسطينوس يشجب إساءة استعمال الملكية (Male autem- possidet , qui male utitur). (Ep. 153, 6,26) . ومن ثم فإن الأشياء الأرضية ـ حسب رأي الآباء ـ قد خلقها الله لمتعة الكل ، ولذلك يجب استخدامها للوفاء باحتياجات كل البشر، الفقراء والأغنياء على حد سواء ، ومالكو هذه الأشياء لهم الفرصة ويتحملون المسئولية لمحاكاة الله فى صلاحه وحريته.

فالأشياء المادية رغم أنها جيدة ومفيدة فى حد ذاتها لكنها خطيرة لأنها تحث على الخطيئة ، وأهم من كل شئ لا تحض على فعل الخير، لذلك فإنه يلزم التفاهم مع القلب والانفصال عن الأشياء العالمية . ويرى أغسطينوس أنه إذا لم يكن بمقدور الإنسان التنازل عن الممتلكات كليةً فإن عليه على الأقل أن يتنازل عن محبة هذه الممتلكات (Enarr. in Psalm. 131,5) . ويذكر كليمنت الذى من الإسكندرية فى كتابه «من هو الرجل الغنى الذى حصل على الخلاص؟» واجب الأغنياء أن يكونوا «فقراء فى الروح» وأن يحرموا أنفسهم من السعى المدمن وراء الثروة ، وأن يحولوا قلوبهم لمحبة الله ومحبة جيرانهم . كما يعتبر أوريجانوس الطمع صورة من صور الوثنية. ويفسر القبرصى الطمع والبخل كصور من صور العبودية فهو يكتب موجهاً كلامه إلي الأغنياء الجشعين «الظلام الدامس والعميق للبخل قد أعمى قلوبكم الجسدانية فأصبحتم أسرى وعبيداً لأموالكم، أنتم مربوطون بالسلاسل ووثائق الشح، أنتم الذين حرركم المسيح قد أصبحتم مقيدين من جديد» (عن الأعمال والصدقات ، ١٣).

كذلك بالنسبة لفم الذهب فهو يرى أن كثيراً من الرجال والنساء الأغنياء يتملكهم ولع شديد للطمع بنفس الطريقة التى كانت بها الشياطين تتملك جيراسا الممسوس بالشياطين، فالرجل البخيل عبد للمال ، هو المسيحى الذى يعبد شيطان المال لا المسيح (عن رسالة فليبى : هوميلى ٦:٥ ـ ٦). أيضاً يجب على المسيحيين أن يساعدوا الفقراء والمحتاجين ليس

لمجرد العدالة ، ولكن أهم من كل شئ لأنهم يتمثلون بالمسيح . وبعد أن دبر القبرصى أموال الفدية للإفراج عن المسيحيين النيوميديين من يد البرابرة الذين أسروهم يقول: «لابد أن يعتبر أسر إخوتنا أسر لنا وكما أن أسر المعرضين للخطر هو أسرنا.. إذ لابد أن نرى المسيح فى أخينا المأسور..» (Ep. 59) . ويذكر غريغوريوس النازينزى الأغنياء أنهم لابد أن يتبينوا المسيح فى الفقراء «لا تحتقروا هؤلاء الناس برفضهم، ولا تظنوهم بلا قيمة ـ فكروا فيهم، استرجعوا كيانهم وسوف تعرفون أنهم أناس لهم كرامة، فغالباً ما حملوا فى أنفسهم شخصية المخلص » (محبة الفقراء). ويتوصل يوحنا فم الذهب الى استنتاجات مشابهة من (متى ٢٥:٣١-٤٦) «لأنه فقيز أطعمه لتكون قد أطعمت المسيح » (عن انجيل متى: عظة ٤٨ ، ٩) . مرة أخرى : «هل ترغب حقاً فى أن تدفع البيعة لجسد المسيح؟ إذن لا تهمله عندما يكون عرياناً. وفى نفس الوقت الذى تقدره هنا بستائر مصنوعة من الحرير، لا تهمله خارجاً عندما يهلك من البرد والعرى» (نفس النص ٥٠، ٤) وأخيراً بالنسبة لأغسطينوس يوجد تطابق خفى ولكنه حقيقى بين المسيح والمسيحى، لذلك لابد للمجتمع أن يساعد المحتاج ، خذوا محبة رئيسنا أيها الإخوة في الاعتبار. هو فى السماء لكنه كان يعانى هنا طالما كانت كنيسته تعانى على الأرض. المسيح هنا جوعان وعطشان وعريان، هو غريب ومريض ومسجون لأنه قال إنه عندما يعانى إخوته الأصاغر هنا على الأرض فهو نفسه يعانى " (عظة ٨٧: ١ ـ ٢).

على أن تقديم الصدقات هو الطريق الأكثر وضوحاً من الناحية العملية لإظهار تكافل الشخص مع الفقراء، لذلك فإنه ليس من الغريب أن يلح الآباء جميعاً بشكل متكرر على واجب مشاركة ما لدينا مع الآخرين . ولم يستطع أحد أن يقر بتميز المسيحيين الأوائل فى فعل الخير مثلما أقر الإمبراطور جوليان الذى كان يريد أن يعيد الوثنية: «لم يكن لأى يهودى أن يترك ليشحذ ولم يتوقف دعم الجليليين غير الكفرة على فقرائهم بل تعدى ذلك إلى دعم فقرائنا أيضاً» (Ep. 896) . وفى كلمينت الثانية (٤:١٦) نرى أن «تقديم الصدقات حسن مثل التوبة عن الخطية وأن الصوم أفضل من الصلاة ، ولكن تقديم الصدقات أفضل من الاثنين». وفى كليمنت الثانية ٣٧ ـ ٢:٣٨ نقرأ: «على الغنى أن يوفر احتياجات الفقير، وعلى الفقير أن يقدم الشكر لله من أجل تدبيره من يقوم بالوفاء بإعوازه». ويضيف هرماس

غرضاً أخيراً إلى الصوم حيث يقول: «فى ذلك اليوم الذى تصوم به لا تذق إلا الخبز والماء، وتحسب قيمة الأطعمة التى يمكن أن تكون قد أكلتها فى ذلك اليوم الذى تلتزم به، وتعطى لأرملة أو يتيم أو لشخص محتاج ، وستوقن أنه عن طريق صيامك يجد ذلك الشخص الذى تلقّى العطية ما يملأ نفسه فيصلى إلى الله من أجلك» (Hermas. Sim. V 3.7) .

يشير كليمنت الذى من الإسكندرية في كتابه «من هو الرجل الغنى الذي حصل على الخلاص؟» إلى واجب الأغنياء أن يقدموا صدقات بكرم . ويحث أوريجانوس الكهنة بأن يكونوا أمناء وذوى إحساس فى إدارتهم لموارد الشعب من أجل الفقراء (تعليق على إنجيل متى، ٦١). ويصف ترتليان التقدمات التلقائية للمسيحيين على أنها «أموال ائتمان الرحمة» التى لم تصرف «على المآدب وحفلات الشرب ولم تصرف على بيوت تأكل بلا شكر، ولكنها تصرف لإطعام الفقراء ودفنهم وتصرف على الأولاد والبنات ممن يفتقرون إلى المأوى والعائل، ثم على العبيد المسنين والبحارة الذين غرقت سفنهم..» .(Apology 39.1, 5 -7) .

كما قدم سيبريان بحثاً فى موضوع الصدقة حيث يشير إلى أن الصدقات تزيل التلوث الناتج عن الخطيئة بعد التعميد. كما ينصح العذارى الفتيات فى كتابه «على رداء العذارى » فيقول « دع المحتاجين يشعرون أنكن غنيات، ضعوا أملاككن تحت تصرف الله، اعطوا خبزاً للمسيح» . ويطور يوحنا فم الذهب ما يصل إلى حد الهوس عن موضوع الصدقات. فيقول لمن يمتنعون عن العطاء « ليس بمقدروكم أن تتركوا ما تمتلكون، اعطوا من ممتلكاتكم، لا يمكنكم تحمل كل هذا العبء. اقتسموا ممتلكاتكم مع المسيح ، أنتم لا ترغبون فى التنازل عن كل شئ له ، فسلموه حتى النصف أو حتى الثلث » (عن سفر متى: هوميلى ٤٥ . ٢). وفى مكان آخر يوضح أن إعطاء الصدقات يغطى الخطية، ويطفئ نيرانها، لأن أعمال الرحمة توازن ثقل الخطية، إنها «مسألة رحمة » لأنه بدونها يكون فعل الخير رياء (من رسالة تيطس: ٦ و ٢) . ولا يقلّ أمبروز فى الغرب إصراراً على مهام تقديم الصدقات والعناية بالفقراء، فلابد أن يهتم الإنسان باليتامى ويوفر لتعليمهم ويقدم الدوطة للبنات اليتامى، لابد أن يكون الإنسان نشطاً فى البحث عن الفقراء الذين دون هذا البحث يظلوا مختبئين . أولئك المرضى والمحتجزين بالسجون أو من يمنعهم الخجل ببساطة عن الاستجداء . وينهى أمبروز قوله بأن الكنيسة لديها ذهب ليس للادخار ولكن للصرف على

أولئك المحتاجين ، حتى الأوعية المقدسة لابد أن تباع ليدفع ثمنها فدية للمأسورين (انظر De Off.,2) .

(٣) الفوائد والربا

على الرغم من أن الآباء لا يدينون التجارة ، إلا أنهم يشجبون مخاطرها كما يشجبون أعمال التجار الجشعين (أمبروز DeOff., 1,49,242;11,6,25) وما يزعج الآباء هو الربح الذى يستخلصه التجار من أنشطتهم، فهم يبيعون بسعر أعلى من سعر الشراء أو الإنتاج، والمتعاملون مع البنوك يحصلون على أموال تزيد عما أودعوا بها، فالمال إذا لم يكن منتجاً فى حد ذاته، فان هذا الربح يبدو تجميعاً غير عادل على حساب العملاء. بل إن هذا الربح يصبح تحت دينونة أكبر عند الحصول عليه عند رفع أسعار البضائع وقت ندرتها (أمبروز De Off., 111,9,41) أو عند بيع ممتلكات شخص ما بسعر أقل بسبب إفلاسه (امبروز De Off., 111,9,4;9 m 57;10,66)

على الرغم من أن القانون الرومانى يسمح بالفوائد ويثبت معدلاً قانونياً، وعلى الرغم من أن (سفر التثنية ٢٣: ٢٠ ـ ٢١) يسمح بالاقتراض بربا للأجانب ، إلا أن الآباء وخاصة الكابادوكيين يدينون بالإجماع أخذ الفائدة ، وذلك تأسيساً على أنه عمل غير عادل Lactantius , De inst. divina , 6 , 18 ; Epist. 64 , Hilary of poitiers ; Tract in Ps. 14 , 15 ; Augustine Enarr. in Ps. , 128 , 6 ; De Bapt. , 4 , 9) . الوحيد الذى يضع استثناء فى حالة إقراض العدو هو أمبروز فيقول: « الفائدة هى نوع من الحرب حيث يضرب شخص عدوه دون استخدام السلاح » (De Tobia, 14,51) .

٥ ــ ارتباط الفكر الاجتماعي لآباء الكنيسة بالزمن المعاصر

ختاماً يحق للإنسان أن يثير السؤال فيما إذا كان المبدأ الاجتماعي لآباء الكنيسة الذي وضع منذ حوالى ألفى وخمسمائة عام لايزال سارى المفعول فى زماننا الحالى السريع التغيير . لكن من الواضح أن وضع إجابة مفصّلة على هذا السؤال فى هذه الصفحات أمر غير عملى، لذلك فإننا سنقتصر على ملاحظات أساسية قليلة تخص النص والمنهج .

(١) أما من ناحية النص فإنه حسب تجربتنا المعاصرة توجد بوضوح جوانب معينة

لتعاليم الآباء لم تعد مقبولة سواء بالزيادة أو بالنقص. فإن اتجاههم السلبى نحو التجارة وتحصيل الفوائد لا يمكن قبوله بعد أن صارت هذه الأنشطة مسائل عادية فى حياتنا الاقتصادية الحالية. وتعتبر الإدانة المتكررة لتحصيل الفوائد من قبل المجالس والباباوات فى القرنين الرابع والخامس دلائل على أن تعاليم الآباء لم تكن فعالة بشكل عالمى. ومن ناحية أخرى يبدو موقف الآباء بالنسبة للرق كمؤسسة اجتماعية ضعيفاً فى مقابل تأكيدنا على حقوق الإنسان الأساسية والإلغاء الفعلى للرق ككيان اجتماعي.على أنه فيما يتعلق بالنقاط الأخرى لابد وأن يستمر التعليم الاجتماعى للآباء فى تشكيل نموذج التعليم الاجتماعى لكنيسة اليوم. ومن بين ذلك التأكيد على المساواة المبدئية لكل البشر، ومبدأ حق الملكية الشخصية، ومبدأ أن الأشياء المادية قسمها الله لاستخدام جميع البشر للوفاء باحتياجاتهم الأساسية، والتأكيد على ضرورة تغير القلب وابتعاده عن الالتصاق بالممتلكات الأرضية، والتأكيد على أن واجب إعطاء الصدقة ليس مجرد إحسان ولكنها أيضاً عدالة. هذه العناصر هى التراث البابوى الذى يجب على الكنيسة أن تتعلق به وتحافظ عليه فى تقديم رسالة التضامن والرجاء للعالم اليوم.

(٢) الطريقة التى نشر بها الآباء الرسالة الاجتماعية للكتاب المقدس للناس فى عهدهم لاتقل أهمية عن ذلك أيضاً، فقد حاول الآباء وهم يقعون تحت تحدى الظروف الاجتماعية والاقتصادية أولاً كأقلية مقهورة تعيش فى بيئة عدائية، ثم كديانة مميزة فى إمبراطورية متحولة نحو المسيحية ـ حاول الآباء بنجاح مضطرد أن يكونوا أمناء لرسالة الكتاب المقدس من ناحية، وتفسيره وجعله قابلاً للتطبيق فى عصورهم من ناحية أخرى. فكثيراً من كتاباتهم عن المواضيع الاجتماعية والاقتصادية لا تعدو أن تكون سوى تعليقاً على نصوص الكتاب المقدس، وعظات عنها. ولم تكن مجرد تكرار حرفى لهذه النصوص .فإن كلمة الله غنية بهذه الموضوعات ، وبالتالى لم تكن توجد حلول محددة. ولم يكن إخلاصهم لكلمة الله مجرد تكرار آلى لصيغ مغينة، لكن إعادة تفسير ابتكارى متجدد لرسالة الكتاب المقدس في مواجهة مواقف جديدة، مع حكم دقيق لها فى ضوء نصوص الكتاب. ويمكن إيضاح ذلك بسرد لأحد الأمثلة، فمن بين النصوص الكتابية القليلة المبعثرة عن العلاقة بين المسيحيين والسلطة الزمنية توصل الآباء أولاً إلى نظرية عدم التدخل : وذلك فى الثلاثة قرون الأولى عندما كانت الكنيسة والدولة تعاديان بعضهما البعض ونجد بعد ذلك نظرية التمييز بين

السلطات والتعاون ابتداء من القرن الرابع فيما بعد ، ذلك عندما اعترف المجتمعان باستقلالهما التام واحتياجاتهما المتبادل.

تواجه الكنيسة اليوم بالطبع مشكلات عديدة لم يتصورها الآباء، ولم يستطيعوا تصورها: إضرابات واتحادات، سباق التسلح والحرب النووية، زراعة الأعضاء والهندسة الوراثية، هذه بعض الأشياء القليلة التى لم يقدم لها الكتاب المقدس ، الإجابات المحددة والصريحة، ومع ذلك فعلى الكنيسة أن تفعل الآن ما فعله الآباء عندئذ وأعنى تنفيذ «مسئولية قراءة علامات الوقت وتفسيرها فى ضوء الإنجيل» (Gaudium et Spes, no.4) وبهذه الطريقة ستسترد الكنيسة ليس فقط التقاليد، ولكن أيضاً التعليم الذي بواسطته تصبح الأنباء السارة للخلاص فعالة في عالم أكثر تعقيداً مما سبق من الناحية الاجتماعية والاقتصادية.

الآباء المسيحيون الأوائل

الجزء الأول

(الآباء الرسل)

(الديداكى) (كتاب تعليم الرسل)

الاسم الكامل لهذا العمل المجهول هو «وصية الرب للأمم من خلال الإثنى عشر تلميذاً». وقد تم اكتشافه فى عام ١٨٧٥، ويرجح أنه قد تم تأليفه ما بين ٧٠م و٩٠م ، مع أن بعض النقاد يضعون تاريخ تأليفه فى ١٢٠م أو ١٥٠م. وهو يحتوي على وصايا طقسية وقوانين نظامية. هذا بجانب المبادئ الأخلاقية ، ويمكن تلخيص تعاليمه الاجتماعية كما يلى:

هذا العمل يمدح الكرم ويشجع على تقديم الصدقات ومشاركة الخيرات بقوة ، ويثنى على المعاملة الطيبة للعبيد، وهو يؤكد أيضاً على ضرورة العمل الجاد، وينتقد الخمول، وينظر إلى العمل على أنه الوسيلة لكسب المال الكافى لمساعدة الآخرين، ولا تقصد المقولة الشهيرة «لا تدعوا أى شئ أنه ملككم» إنكار الملكية الخاصة ولكنها تؤكد بقوة واجب مشاركة أطايب الأرض.

(اعطوا للجميع)

١ و ٥ اعطوا لكل الذين يسألونكم بدون انتظار مكافأة، لأن الأب يريدنا أن نتشارك فى هبته السخية لكل الناس، فالمعطي الذي يعطى بسخاء كما تحثه الوصية يكون مباركاً لأنه غير آثم، ولكن الويل للمتلقى ، فإذا كان يتلقى لأنه محتاج فهو غير آثم، أما إذا كان غير محتاج فإنه سيطلب منه الإفصاح عن سبب تلقيه الصدقة، ولأى غرض ، وسيزج به إلى السجن ويتم التحقيق فى عمله هذا ، ولن يخرج إلا بدفع البنس الأخير.

٦ ـ وتوجد مقولة إضافية تتعلق بهذا «دعوا صدقاتكم تبتل بعرق أيديكم حتى تعرفوا لمن تقدموها».

(العمل والمشاركة)

٤ و ٥ لاتكن واحداً من الذين يسارعون ليأخذوا، ويغلق يديه عند العطاء "٦" إذا ربحت من خلال عملك قدم تقدمة فداءً عن خطاياك "٧" اعط بدون تردد وبدون تذمر وستكتشف من ذا الذى يجازيك بسخاء "٨" لاترد أبداً المحتاجين، شارك جميع مقتنياتك مع أخيك، ولا تسمى أى شئ أنه ملكك ، فإذا كنت تشاركه في الأشياء الخالدة فجدير بك أن تشاركه فى الأشياء الفانية.

(العبيد)

٤ و ١٠ لا تكن قاسياً عند إصدار الأوامر للعبيد، الرجال منهم والنساء، لأن لهم الثقة في نفس الإله الذي تثق أنت فيه وإلا سيكفّوا عن مخافة من هو فوقك وفوقهم، إن الله لم يأت ليدعو الناس بناءً على مركزهم، ولكنه أتى ليدعو أولئك الذين أعدهم الروح القدس. "١١" وأما أنتم أيها العبيد فعليكم طاعة أسيادكم بوقار ومخافة كما لو كانوا ممثلين لله.

(كرم الضيافة والعمل)

١٢ و ٢ إذا كان الوافد مجرد عابر سبيل فعليكم مساعدته بقدر ما تستطيعون ولكنه يجب عليه ألا يمكث معكم لأكثر من يومين أو ثلاثة عند الضرورة . "٣" إذا كان يرغب فى الاستقرار بينكم، وتصادف أن يكون عاملاً ماهراً فعليه أن يعمل ليكتسب رزقه. "٤" أما إذا كان لا يجيد أى حرفة استخدموا حكمكم لتتأكدوا أنه لا يعيش فى خمول بدعوى أنه مسيحى ."٥" فإذا رفض أن يفعل، فهو بذلك يحاول فقط أن يستغل المسيح ويجب عليكم أن تأخذوا حذركم من هؤلاء الناس.

كليمنت من روما

مع قرب نهاية القرن الأول (٩٦ م) ثار بعض المسيحيين المتكبرين المتهورين في كنيسة كورنثوس ضد الأساقفة وعزلوهم من مناصبهم. يكتب كليمنت ـ الخليفة الثالث لبطرس فى روما ـ خطاباً لهم يُعرف الآن بالخطاب الأول للكورنثيين، وفيه ذكَّر المتمردين بواجب الخضوع للسلطة التى أرساها الله نفسه، وبالإضافة إلى تعاليمه الهامة فيما يتعلق بالسلطة الاكليركية، التعاقب البابوى، الدور المبدئى لكنيسة روما، القيامة الجسدية، والطقوس

الدينية، فإن لخطاب كليمنت أهمية كبيرة بالنسبة لنا لتركيزه على النظام والبناء الاجتماعي، وضرورة التكافل المتبادل وواجب الصلاة من أجل السلطة الحاكمة.

(النظام الاجتماعى والتعاون من أجل الصالح العام)

٣٧ ـ ١ لذلك يا إخوتى دعونا نخضع بعزم موطد لأوامره التى لا عيب فيها. "٢" فكّروا فى الرجال الذين يخدمون قادتنا في الميدان ، وكيف أنهم ينفذون أوامرهم بنظام وسرعة وطاعة. "٣" مع أنه ليس كل واحد منهم جنرالاً، عقيداً، نقيباً، ضابطاً الخ.. إلا أن كلاً منهم ينفذ أوامر الإمبراطور والجنرالات وفقاً لرتبته. "٤" فالكبيرلا يستطيع أن يحيا بدون الصغير الذى بدوره لا يستطيع أن يحيا بدون الكبير، فكل نظام يتكون من عناصر مختلفة وهذا يحقق الصالح العام . "٥" فمثلاً فى الجسم لا تستطيع الرأس أن تؤدي وظيفتها بدون الأقدام والعكس، فالأقدام لا تؤدى عملها بدون الرأس، وحتى أصغر أعضاء أجسادنا لا يمكن الاستغناء عنه، وله قيمة بالنسبة للجسم بالكامل، ومع ذلك فإنها جميعاً تعمل معاً متحدة فى طاعة واحدة لتحفظ سلامة الجسم بالكامل.

(التكافل الاجتماعى)

٣٨ ـ ١ وعلى هذا فإننا يجب أن نحفظ أجسادنا المتحدة هذه بالكامل فى المسيح يسوع، وكل منا يجب أن يخضع لقريبه وفقاً لمواهبه الخاصة. "٢" وعلى القوى ألا يتجاهل الضعيف، والضعيف يجب أن يحترم القوى، وعلى الغنى أن يساعد الفقير، والفقير يجب أن يشكر الله لأنه هيأ له من يفى باحتياجاته.

(الصلاة من أجل الفقراء)

٥٩ ـ ٤ نتضرع إليك يارب أن تكون معيننا وحامينا، أنقذ المنكوبين، ارحم المتضعين، ثبِّت الساقطين، ساعد المحتاجين، اشف المرضى، أرجع شعبك الضال ، حرر المسجونين، ساند الضعفاء، عزِّ ضعاف القلوب، دع كل الأمم تعرف أنك أنت الإله الوحيد، وأن يسوع المسيح ابنك ونحن شعبك وغنم مرعاك.

(الصلاة من أجل السلطة الحاكمة)

٦١ ـ ١ إنه أنت يارب الذى منحتهم السلطة الإمبراطورية، من خلال قدرتك المهيبة التى

لا ينطق بها، ولذلك اعترافاً منا بالمجد والشرف الذى أنعمت به عليهم، يجب علينا أن نخضع لهم، امنحهم يارب الصحة والسلام، التآلف والاستقرار كى ما يمارسوا السلطة التى منحتها إياهم بلا إثم . "٢" لأنه أنت يارب هو الملك السماوى والأبدى الذى يعطى ابن الإنسان المجد والشرف والسلطة على سكان الأرض.

تلطف ووجّه خططهم وفقاً لما فيه الخير وفيه مسرتك كى يمارسوا السلطة التى أعطيتها لهم بسلام ومراعاة وتبجيل فيستحقون بذلك رحمتك . "٣" نسبحك فأنت وحدك القادر أن تمنحنا هذه الأشياء وأفضل منها من خلال الكاهن الأكبر وحارس أرواحنا يسوع المسيح الذى بواسطته يكون المجد والقوة من الآن وإلى كل الأجيال وأبد الآبدين. آمين.

إغناطيوس من أنطاكية (Ignatius of Antioch)

كتب إغناطيوس من أنطاكية سبعة خطابات وهو فى طريقه إلى الاستشهاد في روما (عام ١٠٧). وكانت ستة من هذه الخطابات لكنائس مختلفة، وواحد منها لبوليكارب. ومع أنه كان مشغولاً جداً بوحدة الكنيسة المتجمعة حول الأساقفة في القربان المقدس وبقمع البدع ، وبرغم أنه كان متأكداً من موته إلا أنه وجد الوقت للاهتمام بالمحتاجين والعبيد.

(الأرامل والعبيد)

الخطاب إلى بوليكارب ٤ ـ١ : احذر أن تهمل الأرامل، فيجب أن تكون أنت من يدافع عنهم بعد الله، لا تعامل العبيد سواء كانوا رجالاً أم نساء بطريقة مستبدة، ومن ناحية أخرى عليهم أن لا يكونوا وقحين بل يجب عليهم أن يكونوا عبيداً صالحين لمجد الله، كى يحصلوا على حرية أفضل من عند الله، وبالإضافة إلى ذلك لا يجب عليهم أن يتعجلوا الحصول على حريتهم على حساب الكنيسة لأنه عندئذ يصبحون عبيداً لعاطفة أنانية.

الخطاب إلى ديجنيتوس (Diognetus)

كتب أحد المسيحيين غير المعروفين هذا الخطاب المسمى " الخطاب إلى ديوجنيتوس" إلى أحد المستفسرين غير المعروفين كذلك تقريباً فى الفترة ما بين ١٩٠ و٢٠٠ م. وهو فى الواقع عبارة عن دفاع عن المسيحية، ويحتمل أن يكون كوادراتوس قد كتب الفصول من ١ ـ ١٠

فى آسيا الصغرى ، أما الفصلين ١١ و ١٢ يحتمل أن يكون هيبوليتيوس هو الذي كتبهما . وما يعنينا هنا هو وصف الخطاب الذى يتكلم عن وضع المسيحى فى العالم ، وإدانته للاستغلال الاقتصادى ، وإصراره على ضرورة التمثل بسخاء الله عند إعالة المحتاجين.

(المسيحيون والعالم)

«٥ ـ ١» لا يختلف المسيحيون عن باقى الجنس البشرى بالجنسية أو اللغة او العادات. "٢" فهم لا يقطنون فى مدن خاصة بهم ، ولايتحدثون أى لغة خاصة ، ولا يمارسون أى نوع من الحياة غير العادية."٣" فالعقيدة التى يمارسونها لم تكتشفها بعد براعة ومهارة العقول الشغوفة للبحث والتحقيق لأنهم لا يقدمون مجرد تعاليم إنسانية كما يفعل البعض. "٤" فهم يقضون حياتهم فى أى مدينة ـ يونانية كانت أم بربرية ـ كلُ تبعاً لنصيبه، ويتبعون تقاليد البلد فيما يتعلق بالملبس والغذاء والعادات ، ومع ذلك يقدمون الدليل على تنظيمهم الرائع والمدهش فيما يتعلق بمصالحهم المشتركة. "٥" وعلى سبيل المثال فهم يعيشون كغرباء فى بلدهم ويلعبون دورهم الكامل كمواطنين، ولكنهم مع ذلك يتحملون كل شئ كغرباء ، وبالنسبة لهم كل بلد غريب هو الوطن الأم كما أن الوطن الأم هو بالنسبة لهم أرض غريبة. "٦" فهم يتزاوجون وينجبون الأطفال مثلهم فى ذلك مثل كل الناس ، إلا أنهم لا يتخلون عن أطفالهم "٧" وهم يشركون الآخرين فى موائدهم ولكن ليس في فراش الزواج. "٨" قدرهم أن يعيشوا في الجسد ولكن لا يحيون وفقاً للجسد . "٩" إنهم يقضون حياتهم على الأرض إلا أن وطنهم فى السماء . "١٠" إنهم يطيعون القوانين المفروضة ولكنهم يذهبون لما وراء متطلبات القانون في حياتهم الخاصة . "١١" إنهم يقدمون المحبة لكل الناس ومع ذلك يضطهدهم كل الناس. "١٢" فما زالوا مجهولين ومدانين ويحكم عليهم بالموت ومع ذلك يعطون الحياة . "١٣" ومع أنهم فقراء إلا أنهم يصبحون أغنياء، إنهم يفتقرون إلى أشياء كثيرة ومع ذلك يتمتعون بالفيض الكامل.

(دور المسيحيين في العالم)

«٦ ـ ١» باختصار إذا عرفنا ما معنى الروح بالنسبة للجسد فسنعرف ما معنى المسيحى للعالم. "٢" فكما أن الروح منتشرة فى كل جزء من الجسد هكذا أيضاً المسيحيون فى كل مدن العالم. "٣" وكما أن الروح تعيش فى الجسد و لا تكون جزءاً منه ، فهكذا أيضاً يعيش

المسيحيون فى العالم ولا ينتمون إليه. "٤" و بنفس الطريقة التى توضع فيها الروح غير المرئية تحت الحراسة فى الجسد المرئى هكذا المسيحيون : معروفون فى العالم إلا أن ديانتهم نفسها متوارية عن الأعين . "٥" وكما أن الجسد يكره الروح و يعاملها كعدو حتى بدون أى استفزاز منها، لأنه محروم من التمتع بملذاته، فكذلك أيضاً العالم يكره المسيحيين بدون سبب لأنهم ضد ملذاته "٦" وكما أن الروح تحب الجسد و كل أعضائه على الرغم من كراهيته لها، كذلك المسيحيون أيضاً يحبون من يكرهونهم . "٧ " ومع أن الروح محبوسة داخل الجسد، إلا أنها تحفظ الجسد على نحو متصل. وبينما المسيحيون مقيدون داخل العالم كما لو كانوا فى زنزانة مظلمة إلا أنهم يحفظون العالم معاً ."٨" و كما كان لزاماً على الروح الخالدة أن تعيش فى وعاء كذلك يفعل المسيحيون، فبينما هم مستقرون لبرهة بين الأشياء الفاسدة فإنهم يتطلعون إلى النقاوة فى السموات . "٩" وكما أن الروح تنمو فى النعمة عندما تمنع من الطعام والشراب ، كذلك أيضاً المسيحيون يزداد عددهم عندما يلاقون معاملة سيئة. "١١" هذه هى المكانة السامية للواجب التى وضعها الله فيهم، فعليهم ألا يحاولوا التخلص منها .

(السعادة الحقيقية)

"١ ـ ٥ " لا تكمن السعادة فى السيطرة على أقارب المرء أو فى تمنى الحصول على أكثر مما مع الأخ الضعيف، أو فى تملك الثروات و إصدار الأوامر لمن هم أقل شأناً ، فلا يستطيع أحد أن يصبح شبيهاً لله بهذه الطريقة، لأن مثل هذه الأشياء مخالفة كلية لسلطانه. "٦" ولكن إذا تحمل الإنسان عبء قريبه وكان على استعداد أن يعول حاجة الآخرين من فيضه، وإذا كان بمشاركته للنعم التي وهبها الله له مع الآخرين المحتاجين يصبح بذلك إلهاً بالنسبة للذين يتلقون خيره، فمثل هذا الرجل متمثل بالله حقاً . "٧" ولذلك فبينما تسير على الأرض فإنك ترى أن هناك إلهاً يحكم فى السموات وعندئذ تبدأ فى التحدث عن أسرار الله، وستحب وتعجب بأولئك الذين يتم عقابهم بسبب رفضهم إنكار الله.

راعى هرماس (The Shepherd of Hermas)

يفهم من مضمون (راعى هرماس) أنها كتبت على شكل سلسلة من الرؤى ، وهى أساساً رسالة أخلاقية نسكية ذات طابع شبيه بسفر الرؤيا، وهى تشمل خمس «رؤى »، اثنى عشر

«أمراً» و عشرة « تشبيهات » . وتعاليمها الاجتماعية شاملة وهامة إلى حد بعيد ، فالكاتب يعترف بوجود الطبقات الاجتماعية ، الأغنياء والفقراء ، وهو يستخدم صورة الكرمة وفروعها، ليؤكد اعتمادها المتبادل بعضها على بعض، ويقترح أنه على المرء ألا يطمع لأكثر مما فيه، وأن الثروة إنما خلقت ليتشارك فيها الجميع، وهو يعترف بأن الأغنياء يمكن أن ينجوا شريطة أن يمارسوا الكفارة وبتقديم الصدقات .

(مشاركة الخيرات مع المحتاجين)

الرؤية الثالثة ١٧ ، (٩) ٢، الآن أصغوا إلى : عيشوا فى سلام بعضكم مع بعض واهتموا بعضكم ببعض وساعدوا بعضكم ، لا تفرطوا فى التمتع بما خلقه الله وحدكم ولكن اعطوا جزءاً منه للمحتاجين. "٣" لأن بعض الناس يجلبون الأمراض لأجسادهم ويضعفونها من وفرة ما يأكلون، بينما البعض الآخر - الذين ليس لديهم شيئاً يأكلوه - توهن أجسادهم لافتقارهم إلى الطعام الكافى، ويعانون من اعتلال الصحة . وعلى هذا فإخفاقكم فى المشاركة ضار لكم يامن معكم ولا تشركون الذين ليس معهم ."٥" تذكروا الدينونة القادمة ، أيها الأغنياء ابحثوا عن الجوعى طالما أن البرج لم يُكمّل بعد، لأنكم بعد إكماله ستتمنون أن تفعلوا الخير، ولكن لن تكون لديكم الفرصة. "٦" لذلك الآن يامن تتباهون بثرائكم انتبهوا ألا يئن الفقراء فى أى لحظة ويصل صراخهم للرب فيُغلق باب البرج أمامكم وأمام خيراتكم .

(اعطوا للجميع من ثمار عملكم)

الأمر الثانى ٢ . ٤ غطوا أنفسكم بالقداسة حيث لا يوجد شر و حيث لا يوجد إثم وحيث كل شئ رقيق و مبهج ، افعلوا الخير ، ومن ثمرة عملكم الذى هو هبة الله لكم اعطوا جميع المحتاجين بلا تمييز ولا تفكروا فى من تعطون ومن تمنعون ، اعطوا للجميع لأنها مشيئة الله أن نعطى للجميع من خيراته. "٥" وأولئك الذين تلقوا العطايا يقدمون حساباً لله ، لِمَ تلقوها ولأى غرض لأن الذين يتلقونها لاحتياجاتهم إليها لن يدانوا و أما الذين يتلقونها بموجب حجج زائفة سيعاقبون ."٦" ووفقاً لهذه الظروف فإن المعطى برئ لأنه فقط أدى الخدمة التى أمره الرب بتأديتها ببساطة و بدون تمييز، سواء لمن أعطى أو لمن لم يعط. وخدمته هذه التى أداها ببساطة تصبح مقبولة فى عين الله . وعلى هذا فإن الإنسان الذى يخدم بهذه الطريقة سيحيا فى الله .

(المسيحى غريب فى هذا العالم وبثروته يجب أن يحصل على الثراء أمام الله وذلك بمشاركة الآخرين فى ثروته)

التشبيه الأول "١، ٦" ولذلك احرصوا على ألا تحصلوا على شئ مما هو أكثر من الكفاية المعقولة أثناء حياتكم فى بلد غريب، و كونوا مستعدين إذا رغب حاكم هذه المدينة فى طردكم لمعارضتكم لقانونه. قد تخرجون من مدينة و تدخلون مدينتكم حيث تطيعون قانونكم الخاص بفرح و بلا أذى لأى شخص . "٧" لذلك كن متيقظاً يامن تخدم الرب وتحتفظ به فى قلبك ، تذكر وصايا الرب ووعود الله ، وافعل أعماله ، وثق أنه سيفى بوعوده إذا حافظت على وصاياه ."٨" و لذلك فبدلاً من أن تشترى الحقول اشتر الأرواح التى تعانى من المحن وفقاً لمقدرتك . اعتنِ بالأرامل و الأيتام ولا تهملهم ، انفق ثروتك و مقتنياتك التى أنعم الله بها عليك على هذا النوع من الحقول و المنازل . "٩" فلقد جعلك السيد ثرياً لهذا الغرض ولأداء هذه الخدمة الكهنوتية له ، لأنه أفضل كثيراً لك أن تشترى مثل هذه الأراضى والمقتنيات و المنازل لأنك ستجدها عندما تستقر فى مدينتك الخاصة. "١٠" هذا هو ترفك الصالح المقدس الخالى من الحزن والخوف الملئ بالفرح ، لا تعش فى ترف الأوثان، فلا طائل لك منه يا خادم الله .

(الأغنياء والفقراء يساعدون بعضهم البعض)

التشبيه الثانى ٥ الغنى لديه ثروة ضخمة، و لكن مقارنةً بالله فهو فقير، فقد تشغله الثروة لدرجة أنه يصلى و يمجد الله بصورة أقل ، وهو حين يفعل ذلك فإن تسبيحه وصلاته تصبح مختصرة و ضعيفة ولا قوة لها لتصل أمام الله ، ولذلك فعندما يذهب الغنى للفقير ويعطيه ما يحتاج إليه ، فإنه يكون واثقاً أن ما يفعله للفقير سيجازيه الله عليه (لأن الرجل الفقير غنى فى صلاته و تسبيحه، وصلاته لها قوة عظيمة عند الله) . وحين يؤمن الغنى بذلك فإنه لن يتردد فى إمداد الفقير بكل شئ . "٦" ومن ناحية أخرى فإن الفقير الذى ساعده الغنى يتشفع له، ويقدم الشكر لله على من يحسن إليه، وهذا الأخير يلتزم أكثر بمساعدة الفقير كى لا يدعه يحتاج أى شئ أثناء حياته ،لأنه يعلم أن صلاة الفقير مقبولة وغنية أمام عين الله . "٧" وبهذه الطريقة فكل منهما يؤدى واجباته : الفقير يرفع صلاته التى هى ثروته، ويعيد للرب عطية الصلاة التى منحها إياه. وبنفس الطريقة فإن الغني يعطي للفقير بلا تردد

من الثروة التى أنعم الرب بها عليه، وهذا عمل عظيم ومقبول أمام الله، لأن الغنى يعرف كيف يدير ثروته بصورة صحيحة ويوزع على الفقير هبات الله محققاً بذلك خدمة الرب بصورة سليمة ."٨" من وجهه النظر البشرية فإن شجرة الدردار لا تقدم ثماراً ولكن الإنسان لا يعرف ولا يفكر أنه فى حالة الجفاف فإن الدردار يحتفظ بالماء ويزود الكرمة به. وهكذا فإن الكرمة التى لا ينقصها الماء تحمل ضعف مقدار الثمار لكل من نفسها وللدردار، وبنفس الطريقة فحين يرفع الفقير صلاته للآب من أجل الغنى فإنه بذلك يتمم ثروته بينما يعوض الغنى نقائص روحية عندما يتكفل باحتياجات الفقير. "٩"وبهذه الطريقة يصبح كل منهم مشتركاً فى العمل الصحيح ، وعندما تفعل ذلك فإن الرب لن يهملك بل سيكتب اسمك فى كتاب الأحياء. "١٠" مبارك أولئك الذين يمتلكون الثروات ويعرفون أن الغِنى إنما من عند الرب، فأولئك الذين يعرفون ذلك يستطيعون أن يمارسوا الأعمال الصالحة .

(الوظيفة الاجتماعية للصوم)

التشبيه الخامس ٥٦ ، (٣) ، ٦٠ هذه هى الطريقة التى تحافظ بها على الصوم الذي تنتويه : امتنع قبل كل شئ آخر عن الأعمال الضارة وعن كل رغبة شريرة، نق قلبك من كل تفاهات هذا العالم، فأنت إن فعلت ذلك سيكون صومك مثالياً . "٧" افعل ما يلى : ففي يوم صومك لا تذق إلا الخبز و الماء، واجمع المصروفات الإجمالية للطعام الذى كان من المفروض أن تأكله فى اليوم الذى نويت فيه الصيام ، واعطه لإحدى الأرامل أو الأيتام أو أى شخص محتاج. وبهذه الطريقة فإنك تتضع كى ما يقوم المستفيد من اتضاعك بإشباع روحه ويصلى للرب من أجلك . "٨" فأنت إن أديت صومك بالطريقة التى أوصيت بها الآن فإن ذبيحتك ستكون مقبولة أمام الله، وهذا الصوم سيدون لصالحك وبذلك تؤدى خدمة مبهجة ومقبولة فى عين الله .

(الجميع يجب أن يكونوا بلا مصاعب مادية)

التشبيه العاشر ١١٤ (٤) ، ٢ ، أخيراً على كل الذين يفعلون الأعمال الخيرية ألا يكفوا عن فعلها ، لأن الأعمال الصالحة مفيدة لهم . والآن أقول : - إن كل الناس يجب أن يُفرّج عنهم فى مصاعبهم ، لأن الشخص المحتاج الذى يعانى من العقبات فى حياته اليومية يعيش فى عذاب وكرب . "٣" من ينقذ شخصاً محتاجاً يحصل بذلك لنفسه على سعادة

عظيمة، لأن الإنسان المثقل بهذا النوع من المصائب يعانى من نفس العذاب والآلام التى يعانى منها المسجون، وفى حقيقة الأمر فإن أولئك الذين لا يستطيعون تحمل هذه الفواجع قد ينتحرون، ولذلك فكل من يعرف محنة هذا الشخص ولا ينقذه يرتكب بذلك خطيئة كبيرة، ويكون مذنباً فى حق ذلك الإنسان . "٤" ولذلك يا من أنعم الله عليكم بالغنى : افعلوا الأعمال الصالحة خوفاً من أن يستكمل البرج أثناء تأخيركم، لأنه قد توقف بناء البرج من أجلكم ومن ثم إن لم تسرعوا وتفعلوا خيراً فإن البرج سيكتمل وتجدون أنفسكم خارجاً .

الجزء الثانى

المدافعون عن الدين

يوستينوس الشهيد Justin Martyr

شهد القرن الثانى ميلاد نوع جديد من الأدب المسيحى، وهو الكتابات الدفاعية عن العقائد المسيحية ، وقد أُطلق اسم المدافعين على الذين حاولوا أن يثبتوا براءة المسيحيين لينعموا بالتسامح من قبل السلطة المدنية المعادية ـ ولاسيما الإمبراطور ـ كما يطلق نفس الاسم على الذين جاهدوا لإثبات قيمة وصدق دينهم خاصة للمفكرين الوثنيين .

ومن بين هؤلاء يأتى يوستينوس فى المقام الأول، وقد ولد فى فلسطين ما بين الأعوام ١٠٠ و١١٠ وتحول إلى المسيحية فى عام ١٣٠ تقريباً ولقى الاستشهاد فى روما فى عام ١٦٥ ، ومن أهم أعماله " الدفاعيات " و "حوار مع ترايفو "وستوضح مختاراتنا كيف ينظر يوستينوس لعلاقة المسيحيين تجاه السلطة المدنية والثقافة الدنيوية، ومشاركة الخيرات فى المجتمع المسيحى الأول، وقانون المحبة تجاه كافة الكائنات البشرية .

الدفاع الأول :

(مشاركة الخيرات فى المجتمع المسيحى الأول)

١٤ـ ...... أولئك الذين كانت مسرتهم فى الزنا الآن يحبون الطهارة فقط ، وأولئك الذين كانوا يستخدمون الفنون السحرية كرسوا أنفسهم لله الصالح غير المولود، نحن الذين كانت

متعتنا فى اكتناز الثروات والممتلكات، نقدم الآن ما نمتلك لصندوق مشترك ونشارك به كل المحتاجين ، نحن الذين كنا نكره ونتقاتل ولا نختلط مع الناس من القبائل الأخرى بسبب العادات المختلفة ، الآن ومنذ مجئ المسيح نعيش فى إخاء معهم، ونصلى من أجل أعدائنا، ونحاول أن نقنع الذين يكرهوننا بدون حق أن يحيوا وفقاً لوصايا المسيح الصالحة حتى يشاركوننا فى نفس الرجاء السار فى مكافأة من الله حاكم الكل .

(الخضوع للإمبراطور والصلاة من أجله)

١٧ ـ نجاهد أكثر من كل الآخرين أن ندفع الضرائب والمكوس للذين عينتهم لهذا الغرض كما علمنا يسوع المسيح ، لأنه فى إحدى المرات فى زمانه أتى إليه البعض وسألوه عما إذا كان على المرء أن يدفع الضرائب لقيصر فأجابهم : «لمن الصورة التى على العملة» فقالوا : « لقيصر » فأجابهم : « اعطوا اذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .ومع أننا نعبد الله وحده، إلا أننا فى بعض الأمور الأخرى نخدمكم بفرح معترفين بكم كأباطرة وحكام للناس، ونصلى أن تتمتعوا بالحكم الصائب جنباً إلى جنب مع السلطة الإمبراطورية .

(مساعدة المحتاجين من المسيحيين)

٦٧ ، وأنتم أيها الأغنياء ويا من تتمنون أن تصبحوا كذلك ، ليتبرع كل منكم على قدر ما يختار، وسيتم إيداع المبلغ مع الرئيس (الذى يمارس طقوس الأفخارستيا) وهو الذى سيرعى الأيتام، والأرامل، والمحتاجين بسبب المرض، أو لأى سبب آخر، والمسجونين والغرباء المقيمين بيننا، وباختصار فهو الوصى على كل المحتاجين .

الدفاع الثانى :

(موقف المسيحيين تجاه الثقافة الدنيوية)

١٣ ـ عندما علمت بالقناع الشرير الذى ألقته الأرواح الشريرة على التعاليم السماوية للمسيحيين لكى تصرف الناس عن تلك التعاليم، تعجبت من هذا القناع ومن آراء الجموع وأعترف إننى صليت، وحاولت بكل قوتى أن يرانى الآخرون كمسيحى ليس بسبب تعارض تعاليم أفلاطون مع تعاليم المسيح، ولكن بسبب عدم تشابها معها فى كل النواحى، مثلها فى ذلك مثل عقائد الآخرين من الرواقيين والشعراء والمؤرخين ، لأن ما قالوه كان صحيحاً بناء

على ما رأوا أن له صلة بالمسيحية من خلال مشاركة في العقل السماوى المتطور (الكلمة) ، بيد أن أولئك الذين نطقوا بآراء متعارضة كانوا يفتقرون إلى المعرفة غير المنظورة والحكمة السماوية ، فكل ما قاله الناس بحق في أى مكان يخصنا نحن المسيحيين لأننا نعبد و نحب العقل (الكلمة) بعد الله مباشرة ،الذى هو من عند الله ، الذى يفوق الوصف لأنه تجسد لأجلنا كى يمن علينا بالشفاء بعدما شاركنا فى آلامنا، لأن جميع المؤلفين كانوا يرون الحقيقة على نحو مظلم من خلال بذرة العقل (الكلمة) المغروزة التى تحيا بداخلهم .

الحوار مع ترايفو Dialogue with Trypho

(قانون المحبة تجاه كل البشر)

٩٣ - يضع الله أمام كل أجناس البشر كل ما هو عادل وصالح دائماً، وتعرف كل الأجناس خطية الزنا والفسق والقتل وما شابههما ، وهم يرتكبون كل هذه الأفعال وهم عالمون بالخطأ الذى يرتكبونه كلما فعلوا ذلك، باستثناء أولئك الذين تسيطر عليهم روح نجسة، والذين تأثروا بتعليم سيئ ، وعادات شريرة، وقوانين فاسدة، والذين فقدوا - أو بالأحرى - أطفأوا ودمروا أفكارهم الطبيعية، والدليل على ذلك هو عدم استعداد مثل هؤلاء الناس على أن يحتملوا نفس الأشياء التى يوقعونها على الآخرين و يوبخونهم بضمائر عدائية على الأفعال التى يرتكبونها هم أنفسهم، ومن هنا أعتقد أن ربنا ومخلصنا يسوع المسيح فعل حسناً عندما لخص البر والتقوى فى وصيتين هما «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل قدرتك وتحب قريبك كنفسك » (متى ٢٢ : ٣٧) .لأن الإنسان الذى يحب الله من كل قلبه ومن كل قدرته والمملوء بالمشاعر الصالحة لن يعبد أى إله آخر، وسيبجل أيضاً ذلك الملاك الذى يحبه نفس الرب والإله لأن الله يريد هذا، أما الإنسان الذى يحب قريبه كنفسه، يتمنى له نفس الأشياء الصالحة التى يتمناها لنفسه و بديهى ألا يتمنى إنسان أشياء شريرة لنفسه، ومن ثم فإن الذى يحب قريبه سيصلى له و يعمل من أجل أن يتمتع هذا القريب بنفس المنافع التى يتمتع هو بها .

إيريناوس من ليون (Irenaeus of Lyons)

إيريناوس هو بلا شك أهم عالم لاهوت فى القرن الثانى ، ولد فى آسيا الصغرى ما بين الأعوام ١٤٠ و ١٦٠ وأصبح فيما بعد أسقف ليون، وهو يناقش فى أعماله الخمسة

«ضد البدع » أو « دحض و هزيمة المعرفة الزائفة » ، موضوعات كثيرة ذات أهمية عظمى للنظام اللاهوتى للكنيسة المعاصرة : التقاليد ، قانون الإيمان ، سلطة الكنيسة فى روما وعقيدة « الاسترداد » و«الأخرويات». وكتاباته العديدة لا تبين أى اهتمام عميق بالمشاكل الاجتماعية .

ستوضح مجموعتنا المختارة فهم إيريناوس لوصية المسيح بخصوص المحبة وأصل السلطة البشرية و الملكية الخاصة . وفيما يتعلق بالموضوع الأخير يؤكد إيريناوس فى رده على المارسيونيين الذين اتهموا إله العهد القديم بأنه إله غير عادل لأنه أمر العبرانيين بأن يأخذوا ممتلكات المصريين، يؤكد على شرعية اكتساب الخيرات الملكية و الربح فى التجارة، ومع هذا فهو يرى نوعاً من الظلم فى كل ذلك ويرى أن الملكية تكون مقبولة فقط إذا تم مشاركة الآخرين فى الخيرات المادية .

دحض وهزيمة المعرفة الزائفة

(واجب العطاء ومشاركة الخيرات)

الكتاب الرابع ١٣ ، ٣ ولهذا السبب فبدلاً من الوصية "لا تزن " فإن الرب حرّم مجرد الشهوة ، وبدلاً من الوصية "لا تقتل " حرّم الغضب ، وبدلاً من القانون الذى يوصى بإعطاء العشور أوصانا بأن نشرك الفقراء فى كل ممتلكاتنا، وأن نحب ليس فقط جيراننا بل أعداءنا أيضاً، وألا نعطى ونمنح بسخاء فقط، ولكن أيضاً نقدم عطية مجانية لمن يأخذون خيراتنا، لأن «من أراد أن يأخذ ثوبك قدم له ردائك أيضاً، ومن اقترض منك لا تطالبه ، افعل بالآخرين ما تريد أن يفعلوه بك » . وبهذه الطريقة لا نحزن مثل أولئك غير المستعدين لأن تُسلب أموالهم، بل نفرح مثل الذين يعطون عن طيب خاطر، وأن نمنح العطايا لأقاربنا حتى لا يتعرضوا للاحتياج .

(حق اكتساب الخيرات)

الكتاب الرابع

١ ـ هؤلاء (المارسيونيون) الذين يعترضون ويجدون أخطاءً، لأن الشعب فى عشية الخروج بناء على أمر الله أخذ معه الأوعية من كافة الأنواع والملابس من المصريين، وهرب

بها واستخدمها فيما بعد فى بناء الهيكل فى الصحراء، هؤلاء يوضحون جهلهم بمعاملات الله الصالحة وتصرفاته ، لأنه فى بعض الأحوال قد يكون لدينا كميات قليلة ـ وأحياناً كثيرة ـ من الممتلكات التى اكتسبناها عن طريق غنى الظلم ، فمن أين نحصل على المنازل التى نعيش فيها، والثياب التى نرتديها، والأوعية التى نستخدمها، وكل الأشياء الأخرى التى تفيدنا فى حياتنا اليومية مالم تكن من الأشياء التى حصلنا عليها عن طريق الطمع، حين كنا أمماً أو تلقيناها من أبائنا الوثنيين أو من أصدقائنا الذين يحصلون عليها بدون حق ؟

على أننا مازلنا نحصل على هذه الأشياء حتى بعد أن عرفنا الإيمان، لأنه من ذلك الذى يبيع ولا يرغب فى أن يربح من وراء المشترى؟ أو من ذلك الذى يشترى ولا يرغب فى الحصول على سعر جيد من البائع؟ أو أين ذلك الذى يشتغل بتجارة ما، ولا يكتسب قوته بواسطتها؟ والمؤمنون فى القصور الملكية ألا يحصلون على الأوانى التى يستخدمونها من ممتلكات قيصر؟ ألا يعطى المسيحى وفقاً لمقدرته للفقراء والمحتاجين؟ لقد كان المصريون مدينين للشعب العبرانى ليس فقط فيما يتعلق بالممتلكات، ولكن أيضاً بالنسبة لحياتهم نفسها بسبب كرم أبونا يوسف فى العصور القديمة . ولكن هل الوثنيون دائنون لنا لأننا قد حصلنا على المكسب والربح منهم، فما حصلوا هم عليه بالجهد استخدمناه نحن بدون جهد رغم أننا عرفنا الإيمان .

٢ ـ كيف إذاً تصرف العبرانيون بغير حق مع أنهم أخذوا أشياءً قليلة من أشياءٍ كثيرة، فقد كان من الممكن أن يقتنوا ممتلكات كثيرة لو لم يخدموا المصريين لذلك كان يمكن أن يخرجوا بثروة كبيرة لكنهم فى الحقيقة تلقوا تعويضاً ضئيلاً عن عبوديتهم الطويلة وخرجوا فقراء، وبنفس الطريقة هل نتهم شخصاً ما أنه تصرف بطريقة خاطئة إذا كان حراً، لكنه وقع تحت سيطرة شخص آخر وأجبره على خدمته لسنوات عديدة، وبذلك تزداد مقتنيات سيده. وحين يحصل العبد على بعض الدعم فى النهاية ويعتقد أنه يستطيع أن يستولى على جزء صغير من مقتنيات سيده ويهرب بها، بعدما تلقى مكافأة ضئيلة عن أعمال كبيرة قدمها لسيده ومن مقتنيات ضخمة حققها السيد؟

٣ ـ ولأن الله يعلم أننا سنستخدم ممتلكاتنا التى نحصل عليها من الآخرين بطريقة صالحة فهو يقول: «من له ثوبان فليعط من ليس معه ومن له طعام فيفعل هكذا»، و«لأنى

جعت فأطعمتمونى، عطشت فسقيتمونى، عرياناً فكسوتمونى» و«أما أنت فمتى صنعت صدقة لا تعرف شمالك ما تفعل يمينك» . ونحن نثبت أننا أبرار عندما نفعل كل شئ صالح وبذلك نطهر ممتلكاتنا من (الأيدى الغريبة) لأن كل ما حصلنا عليه بغير حق عندما كنا وثنيين أصبح بحق بعدما صرنا مؤمنين عن طريق تسخيره لصالح الله.

(أصل ووظيفة السلطة)

الكتاب الرابع

٢٤ ـ حين انفصل الإنسان عن الله أصبح قاسياً لدرجة أنه ينظر إلى أخيه كعدو، وارتكب كل أنواع الأفعال الشرسة من قتل وجشع بلا خوف، لذلك غرس فيه الله الخوف من أخيه الإنسان لأنه لم يعد يخاف الله. وهكذا وبعد أن أصبح خاضعاً لسلطة الإنسان، ومقيداً بقوانينه، يستطيع عندئذ أن يحصل على قسط من العدالة ويمارس الرفق المتبادل من خلال خوفه من السيف الماثل دائماً أمامه، ولهذا السبب أيضاً فإن القضاة أنفسهم الذين عندهم القوانين كغطاء للعدالة لا يتشكك أحد فى سلوكهم إذا حكموا بالطريقة العادلة الشرعية ولن يكونوا أيضاً عرضة للعقاب. وأما إذا ارتكبوا أعمال الظلم، بدون حق، وبغير ورع، وبطريقة غير قانونية واستبدادية، فإن كل هذه الأشياء تكون سبباً لموتهم، فدينونة الله العادلة تطبق على الجميع بالمساواة وهى لا تخطئ أبداً. وعلى هذا فإن السلطة الأرضية هى من عند الله لصالح كل الشعوب، وليس من عند الشيطان الذى لا يهدأ أبداً ولا يرغب فى أن يراهم يعيشون فى سلام. ولذلك فإن الإنسان حين يخاف من الحكم البشرى لن يلتهم أخاه الإنسان مثلما يفعل السمك ، ولكن عن طريق القوانين الموضوعة يقلل الإنسان من حجم الشر بين الشعوب، وبموجب وجهة النظر هذه فإن أولئك الذين يجبون الضرائب منا هم «خدام الله الذين يخدمون هدفه».

آباء القرن الثالث

الجزء الأول
مدرسة الاسكندرية

كليمنت من الاسكندرية

ولد كليمنت فى أثينا فى عام ١٥٠ تقريباً وأصبح مسيحياً وتلميذاً لبانتانوس، وخلف سيده بعد ذلك كرئيس مدرسة الذين يتلقون التعليم الدينى قبل المعمودية. وتضم أعماله الرئيسية «نصيحة لليونانيين» و«المعلم» و«Stromata» . وأما آراؤه فى الموضوعات الاجتماعية فنجدها فى عظته عن (مرقس ١٠: ١٧ ـ ٣١) «من هو الغنى الذى يخلص». وبظهور كليمنت بدأت مرحلة جديدة من مراحل آباء الكنيسة، فقبل القرن الثالث كانت معظم الكتابات دفاعية أو ضد البدع، أى أنها كانت منصرفة إلى الدفاع والهجوم. وحين بدأت المسيحية فى اختراق العالم القديم ظهرت الحاجة إلى دراسة شاملة ومنظمة للإيمان المسيحى، وقد كانت مدرسة الاسكندرية من أشهر مراكز التعليم اللاهوتى للذين يتلقون التعليم الدينى، وشكلت البيئة الثقافية التى تطورت فيها هذه المدرسة اهتمامها الواضح بالاستقصاء التجريدى لعقيدة الإيمان ، وميلها للفلسفة الأفلاطونية وتفسيرها المجازى للكتاب المقدس.

فيما يتعلق بالنظرية الاجتماعية فإن أنسب عمل لكليمنت هو بالطبع: «من هو الغنى الذي يخلُص» ، فقد كان كليمنت يتذكر مستمعيه الأغنياء الذى وصف أسلوب حياتهم المترف بأدق التفاصيل فى «المعلم» ، وواجه بعض الصعوبة في التفسير الحرفى لمرقس ١٠:١٧ ـ ٣١ ولاسيما وصية يسوع: «اذهب وبع كل مالك واعط الفقراء» (مرقس ١٠ : ٢١) . وعند تفسيره لهذه الآية الكتابية فإن كليمنت يناقش موضوعين هامين وهما:" حق الملكية الخاصة، وغرض الثروة ".

فيما يتعلق بالموضوع الأول كان رد كليمنت ضد كاربوكراتيس الغنوسى (مذهب المعرفة وهو مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا بأن المادة شر وبأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية). وابنه ابيفانيس الذى يؤيد فكرة المشاركة فى الخيرات وفى النساء أيضاً ، كان رده قاطعاً: «إن الرب لذلك لم يمنعنا من أن نكون أغنياء ولكنه منعنا من أن نصبح كذلك بغير حق وبلا شبع» (Stromata 3,6) و«إن الرب لم يأمر (الشاب الغنى) بأن يتخلى عن ثروته وعن ممتلكاته الخاصة به » (من هو الغنى الذى يخلص) . وكذلك يطور كليمنت النظرية القائلة إن الثروة «وسيلة نافعة»: «هذه الأشياء تسمى مُقتنيات، لأنها تُقتنى وتسمى « ثروة »، لأنها نافعة وينعم الله بها ليستخدمها الإنسان» (من هو الغنى الذي يخلص ١٤).

ويعتقد كليمنت أنه مع أن امتلاك الثروة ليس شراً في حد ذاته، ولا يحرم المرء من الخلاص، إلا أن الثروة قد تكون محفوفة بالمخاطر إذا تعلق بها قلب المرء، وإذا لم تُستخدم لصالح الكل، وهو يرى أن مشاركة الآخرين فى الخيرات ليست مجرد إحسان واجب بل عدالة اجتماعية أيضاً، لأن الله خلق كل شئ ليستخدمه الجميع «ولذلك فإن كل شئ مشترك ولا يحق للغنى أن يأخذ حصة أوفر...» وقال إن الله قد منحنا القوة لنستخدم مقتنياتنا، ولكن فقط بالدرجة الضرورية ، فهو يرغب أن تكون هذه المقتنيات مشتركة. إنه لشئ غريب أن يعيش أحدنا في ترف بينما يعانى كثيرون آخرون من الفقر» (المعلم ٢ و ١٢).

النصيحة لليونانيين

(التجرد من الثروة والغنى الحقيقى)

دعونا إذاً نسعى إلى ما هو صالح، دعونا نحب الله ونحصل على أعظم الأشياء التى لا يمكن أن تتلاشى، وأعنى به الله والحياة . منقذنا هو «الكلمة» فدعونا نثق به، دعونا لا نتوق أبداً إلى الذهب والفضة والمجد ولكن بالحرى نتوق إلى كلمة الحق نفسه لأننا لن نجد مسرة عند الله مهما بالغنا فى قيمة الأشياء الثمينة ، ورفعنا من قيمة الأعمال الشائنة، وعقوق الحماقة ، والجهالة ، والطيش ، والوثنية . إذاً لقد حان الوقت أن نقول إن المسيحى الورع فقط هو الغنى والحكيم والنبيل ، وهو الذى يجب أن نؤمن أنه صورة الله ونلقبه كذلك بهذه الصفة، إنه صورة الله ومثاله لأنه قد أصبح باراً ومقدساً وحكيماً بيسوع المسيح ومن خلاله يصبح مثل الله.

«المعلم»

(تجنبوا الحياة المترفة وتعلموا المشاركة)

٢.٣.٣٨... أؤكد إذاً أن الطعام والثياب والأطباق، وباختصار كافة لوازم المنزل يجب أن تكون - كقاعدة عامة - مطابقة لطريقة الحياة المسيحية ووفقاً لما هو نافع وملائم لحياة ومهنة المرء، فحيث إننا خدام لله الواحد يجب أن نراعى أن تكون مقتنياتنا وأثاثاتنا مجرد وسيلة للحياة الجميلة، وعلى كل واحد منا - بإيمان لا يتطرق إليه شك - أن ينفذ الواجبات التى تُستمد من ، والمنسجمة مع هذه العقلية. ولذلك فالأشياء التى حصلنا عليها بلا صعوبة والتى نستخدمها بسهولة ، نمتدحها ونحافظ عليها . ومع ذلك فإن الأشياء النافعة أفضل، والأشياء الرخيصة أفضل بدون شك من الأشياء الغالية ، وبصفة عامة فإن الثراء الذى ليس تحت السيطرة الكاملة هو معقل الشر، والذين تتعلق أعينهم به ويشتهونه لن يدخلوا أبداً ملكوت السموات لأنهم يسمحون لأنفسهم أن تلوثها أشياء هذا العالم ويعيشون بافتخار فى ترف. أما أولئك الذين يهتمون بخلاصهم يجب أن ينتبهوا لهذا المبدأ الأول، مع أن كل الخليقة هى لنا لنستخدمها إلا أنها خلقت لأجل الكفاية الذاتية. وأولئك الذين يجدون المسرة فيما ادخروه في مخازنهم هم حمقى فى جشعهم فالكتاب المقدس يذكرنا أن: «الآخذ أجرة يأخذ أجرة لكيس منقوب» .إنه انسان يحصد ويخزن محصوله ثم يصبح فقيراً لعدم مشاركته ثرائه مع أحد.

أنه لشئ سخيف أن يستخدم الناس مباول من الفضة ومباول مرمرية في حجرات النوم كما لو كانوا يقدمون نصائحهم داخل هذه المباول ، وأن تستخدم السيدات الثريات أوعية ذهبية للبراز كما لو كانوا لا يستطيعون أن يُفرجوا عن أنفسهم إلا بهذا الأسلوب الفخيم . وكم أتمنى أن يعتبروا أن الذهب لا يساوى إلا الروث . ولكن الحقيقة هى أن محبة المال هى معقل الشر أو كما في كلمات الرسول «أصل كل الشرور» «الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة» (١تيموثاوس ٦:١٠) . فالغنى الحقيقى هو الفقر فى الرغبات، والنُبل الحقيقى ليس فى الثراء ولكن ذلك الذى يأتى من ازدرائه، وأما التفاخر بالمقتنيات فهو شئ شائن، لأنه من الخطأ أن تقلق كثيراً عما يمكن أن يشترى من السوق، فالحكمة لا يمكن أن تشترى بعملة أرضية أو من السوق، إنما تحصل عليها من السماء وبسعر جيد . الكلمة القويمة ذهب الملوك .

(كونوا قانعين بالشئ الكافى وشاركوا الخيرات مع الآخرين)

٢ ، ١٢ ، ١٢٠ الله نفسه خلق البشر مع بعضهم البعض، وذلك بأن شارك نفسه أولاً بإرسال كلمته إلى كل الناس على السواء وبأن جعل كل الأشياء مشتركة ولذلك فلأن كل شئ مشترك فلا يحق للغنى أن يأخذ حصة أوفر، فتعبير «أنا أمتلك شيئاً ما، ولدىّ أكثر مما هو كان فلم لا أتمتع به ؟» لايليق بالإنسان ولا يجدى فى مشاركة الخيرات، ومن الخير أن نقول: «لدى شئ ما فلمَ لا أشاركه مع المحتاجين؟» ومن يقول هذا ينفذ الوصية: «حب قريبك كنفسك» وهو يكون بذلك كاملاً ، وهذه هى الرفاهية الحقيقية. أما الذى يكنز الأموال أو يصرفها بحمق فهذا يعتبر تبديداً وليس إنفاقاً.

أعترف أن الله أعطانا القدرة لنستخدم مقتنياتنا، ولكن لقضاء الضرورة فقط ، أما رغبة الله فهى أن تكون المقتنيات مشتركة ، فمن الغريب أن يعيش البعض فى ترف بينما يعانى آخرون كثيرون من الفقر، فكم يكون رائعاً أن نخدم كثيرين بدلاً من أن نحيا فى ترف، وكم يكون معقولاً أن ننفق الأموال على البشر بدلاً من الأحجار والذهب، وكم يكون مفيداً أن يكون لدينا أصدقاء كزينة بدلاً من الزخارف التى لاحياة فيها، أيمكن أن يعطى امتلاك الأراضى للمرء نفعاً أكثر من ممارسة المعروف؟ وعلى هذا فإن السؤال الوحيد المتروك للإجابة هو: لمن توجد الأشياء الثمينة إذا اختار الجميع كل ما هو أقل ثمناً؟ أقول للبشر شريطة أن نستخدمها بلا تعلق أو تمييز، وإذا كان من المستحيل أن نمارس كلنا ضبط النفس فعلى الأقل عند استخدامنا للضروريات دعونا نُقصر أنفسنا على الأشياء التى يمكن الحصول عليها بسهولة وألا نسعى وراء الأشياء الغريبة.

(كيف نشارك ثروتنا)

٦،٣ ، ٣٤ الثروة يجب أن تقتنى بطريقة ملائمة، وأن تُشارك بسخاء وليس بطريقة آلية أو تفاخرية ، ويجب أن ننتبه ألا نحول حب كل ما هو جميل إلى حب النفس خشية أن يقول لنا أحدهم: «جواده أو أرضه أو خادمه أو طبقه الذهبى يساوى خمسة عشر طالن (وحدة نقد قديمة) أما هو نفسه فيساوى ثلاثة سنتات فقط» .

أولاً وقبل كل شئ انزع الزينة عن المرأة، والخدام من السادة وستكتشف أن السيد ليس مختلفاً عن العبيد الذين اشتراهم، ليس فى طريقة المشى أو المنظر أو الصوت فهو فى واقع الأمر متشابه معهم في كل هذه الأشياء، إلا أنه يختلف عن عبيده فى شئ واحد فقط، وأعنى به أنه أكثر ضعفاً وعرضة للمرض بسبب نشأته.

وعلى أى حال يجب أن تكرر فى كل مناسبة أن أكثر الشعارات تنويراً هو أن الإنسان الصالح فى اعتداله وبره «يكتنز كنوزاً في السماء» فمن يبيع مقتنياته الأرضية ويوزعها على الفقراء سيجد الكنز غير القابل للفناء حيث لا يوجد سوس أو لصوص، ومثل هذا الإنسان مبارك حقاً حتى إن كان صغيراً وضعيفاً وضئيلاً وهو غنى فعلاً بأعظم ثراء، ومن ناحية أخرى إذا أصبح الإنسان أكثر ثراءً ولكنه كان ظالماً ومتغطرساً مثل الإنسان الذى كان مترفاً في الثياب الأرجوانية والبز، وازدرى بلعازر ، فإن مثل هذا الإنسان تعيس يحيا فى بؤس ولن يجد أبداً الحياة الحقيقية. فإن الثروة تبدو لى كما لو كانت حية تلتف حول اليد وتلدغ إذا لم يعرف المرء كيف يمسكها على نحو ملائم ويُدليّها بدون خطر من الذيل، وبنفس الطريقة فإن الثروة التى تتدلى فى الأيادى الخبيرة أو غير الخبيرة تميل الى الالتصاق فى اليد وتلدغ، هذا إذا لم يرتفع الشخص عليها ويستخدمها بحذر كى يسحق الوحش بسحر الكلمة فينجو غير مصاب بأذى.

ومع ذلك ففى اعتقادى أن الغنى الحقيقى هو ذلك الذى يقتنى الأشياء ذات القيمة الثمينة، مع أن البعض قد لا يراه كذلك. فليست الجواهر أو الفضة أو الثياب أو الجمال الجسدي هى تلك الأشياء ذات القيمة الثمينة، بل الفضيلة هى الكلمة مترجمة فى صورة أعمال صالحة يوجهها المسيح المعلم..

(الغنى هو ذلك الإنسان الذى يعطى)

٣٥.٦.٣ إذا تم وضع فوارق فلنسلم جدلاً بأن الغنى هو ذلك الذى لديه الكثير من المقتنيات والمحمل بالذهب مثل الجرذان القذرة ، ولكن البار وحده هو الإنسان الأمين، لأن الأمانة هى الصفة التى تحفظ النظام والتوازن المناسب بين الإدارة والعطاء، مكتوب «يوجد من يفرّق فيزداد أيضاً» (أمثال ١١ : ٢٤). وعن هؤلاء يقول الكتاب المقدس:«فرّق واعطي الفقراء فيبقى إلى الأبد عدله» (مزامير١١١:٩). ولذلك فالغنى هو الذى يعطى وليس الذى

يقتنى ويُحجب ثروته ،لأن ما يجعل الإنسان مسروراً هو العطاء وليس الأخذ، والسخاء هو ثمرة الروح، والغنى الحقيقى يسكن في القلب.

الإنسان الصالح يسعى لامتلاك الأشياء الصالحة فقط ، ولكن المسيحيين صالحون، فالأحمق والفاسق لايستطيعان أن يدركا أو يقتنيا الشئ الصالح، ولذلك فالمسيحيون فقط يقتنون الأشياء الصالحة، ولايوجد أى شئ يجلب ثراءً أكثر من الأعمال الصالحة، ولذلك فالمسيحيون فقط هم الأغنياء، فالقداسة ثروة حقيقية ، أما الكلمة فهى أكثر قيمة من كل الكنوز، وهذه الأشياء لا تزداد بالماشية أو الحقول، ولكنها معطاة من الله ، وهى لا يمكن أن تنتزع لأن النفس فقط هى كنز ذلك الإنسان وهى أفضل ما يمكن اقتناؤه لأنها تجعل الإنسان مباركاً حقاً، فإذا توقف الإنسان عن تمنى ما ليس له ولكن يكتفى بأن يسأل الله الأشياء التى يرغبها بطريقة مقدسة، أليس مثل ذلك الإنسان غنياً بسعة وهو يمتلك كل شئ حيث أن لديه الله ككنز أبدى ؟

(الملكية والنظام الاجتماعى)

٣ ـ ٦ ... تبنى كاربوكراتيس وأتباعه فكرة خاطئة عن المشاركة، وهذه الفكرة يمكن دحضها بالطريقة الآتية، لقد قال الرب فعلاً:فمن سألك فاعطه» وأضاف قائلاً : «ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده» هذا هو نوع المشاركة الذى علَّم به المسيح وليس النوع الخاص بممارسة القسوة مع ذوى القربى ، والآن كيف يستطيع الذى يسأل أن يأخذ ممن ليس معه أى شئ يعطيه أو يقرضه؟

ماذا قصد الرب حين قال «لأنى كنت جوعاناً فأطعمتمونى، عطشاناً فسقيتمونى، غريبا فآويتمونى، عرياناً فكسوتمونى» ، وهو يضيف: «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم» .ألم يعلن العهد القديم نفس هذه القوانين: «من يرحم الفقير يقرض الرب» و:«لا ترفض معروفاً لمن يسألك» ومرة أخرى: «من يقرض ماله بلا ربا يعطى مجداً» .

ألم يوضح الكتاب المقدس أنه مثلما أن العالم مصنوع من الأضداد، ساخن وبارد، رطب وجاف ، يوجد أيضاً من يعطون ومن يأخذون؟ ونفس الشئ أكده الرب حين قال: «إن أردت

أن تكون كاملاً فاذهب وبع مالك واعط الفقراء» . وهكذا وبخ الإنسان الذى تفاخر بأنه حفظ كل هذا منذ حداثته، ولم ينفذ الوصية الأخرى: «حب قريبك كنفسك». وعندما رفع الرب هذه الوصية إلي درجة الكمال علمنا واجب المشاركة بمحبة.

الرب إذاً لا يمنعنا من أن نكون أغنياء، ولكن منعنا من أن نصبح كذلك بغير حق وبلا شبع. «المقتنيات التى تتراكم بلا حق تتلاشى». «يوجد من يفرق فيزداد أيضاً ومن يمسك أكثر من اللائق فإلى الفقر». وعن الأول مكتوب: «فرق أعطى المساكين، بره قائم إلى الأبد» وأولئك الذين «يزرعون يحصدون أكثر» وهم الذين عن طريق مشاركة وتوزيع الخيرات الأرضية يكسبون الخيرات السماوية والأبدية، ومن الناحية الأخرى فإن الذين لا يعطون أى شئ لأى شخص يكتنزون الكنوز عبثاً على الأرض «حيث يفسد السوس والصدأ» وعن هؤلاء مكتوب: «الآخذ أجرة يأخذ أجرة لكيس منقوب» .

من هو الغنى الذى يخلص ؟

الحاجة إلى فهم قول الرب فى متى (١٩ : ٢٤)

٢ ـ قد يكون هناك عدة أسباب ـ وليس سبباً واحداً ـ لصعوبة خلاص الغنى أكثر من الفقير، فالبعض بمجرد سماع قول الرب: «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله» وبدون تفكير فيه يتخلون عن ربح الحياة الأبدية ويسلمون أنفسهم بالكامل إلى العالم، ويتمسكون بحياتهم الحالية، كما لو كانت الشئ الوحيد الباقى لهم، وهكذا يبتعدون أكثر عن طريق الحياة الآتية ولا يتساءلون عمن يسميه الرب والسيد بالغنى وكيف أن غير المستطاع للإنسان مستطاع عند الله، والبعض الآخر يفهم هذا القول على أنه صحيح وممكن إلا أنهم يعلقون أهمية ضئيلة على الأعمال التى تقود للخلاص، ومن ثم فإنهم لا يعتدون بالأشياء الضرورية لرجائهم..

(الخلاص ممكن للغنى ولكن ليس بلا عناء)

٣ ـ أولئك الذين يحبون الحقيقة ويحبون إخوانهم والذين لا يهاجمون الأغنياء الذين دعوا للإيمان أو يتملقونهم لأهدافهم الأنانية. يجب عليهم أولاً أن يريحونهم من قنوطهم الذى لا أساس له، وأن يقدموا لهم التفسيرات الكافية لأقوال الرب ، وأن يبينوا لهم أنهم لم

يُعزلوا تماماً من ميراث ملكوت السموات إذا أطاعوا الوصايا، وبعد ذلك بينوا لهم أن خوفهم لا سبب له وأن الرب سيستقبلهم بفرح ، شريطة أن يكونوا مستعدين ، ويجب أن يعرفوا كيف وبأية أعمال وتصرفات يمكن أن يربحوا موضوع رجائهم طالما أنه ليس بعيداً عنهم، وفى نفس الوقت لا يمكن الحصول عليه بلا عناء ، ولكن كما فى حالة الرياضيين الذين يبدأون بأشياء صغيرة وينتهون بأشياء كبيرة ومميتة، دع الإنسان المتمتع بالثروة الأرضية يعتبر أن هذا يعتمد على نفسه..

(معنى قصة الشاب الغنى فى متى ١٩: ٢٦ ـ ٢٢)

١١ ـ ما الذى جعل (الشاب الغنى) يمضى ويترك معلمه ويرفض توسله ورجاءه وحياته وإنجازه الماضى؟ «بع كل أملاكك» ولكن ماذا يعنى هذا؟ إنه ليس ـ كما تفسره أنت بسرعة ـ أمراً بأن يلقى ما يمتلكه ويتخلي عن ثروته، كل ما طُلب منه هو أن يطرح من روحه كل أفكاره عن الثروة، وتعلقه بها، ورغبته الجامحة فيها، وابتهاجه المرضى بها وقلقه عليها، وتلك هى أشواك الوجود التى تخنق بذرة الحياة الحقيقية.

ليس مطلوباً ألا يكون لدى المرء أية أموال، ما لم يكن ذلك لغرض ربح الحياة الحقيقية، ويجب ألا يقال إن الذين ليس لديهم أى شئ بالمرة، المُعدمون الذين يتسولون خبزهم اليومي فى فقر مُدقع على قارعة الطريق حتى وإن كانوا «لايعرفون» الله ولا «بره» يكونون مباركين أكثر من كل بنى البشر، وأعزاء عند الله والمالكون الوحيدون للحياة الأبدية لمجرد افتقارهم الكامل لكل سبل أو طرق المعيشة، وبسبب عوزهم لأقل الضروريات. ومرة أخرى فليس هناك جديد فى التخلى عن الثروة وتقديمها بمحبة للفقراء أو للوطن. فكثيرون فعلوا ذلك قبل مجئ المخلص ليتفرغ بعضهم لمتابعة الحكمة المُجرّدة وآخرون ليكسبوا سمعة جوفاء وزهو ـ أناس مثل اناكسا جوراس وديموكرتيوس وكريتس .

(المسيح يطلب منا أن نتخلى عن رغباتنا)

١٢ ـ لماذا يعطى المسيح إذاً وصية سبق وأن أخفقت فى أن تخلص القدماء كما لو كانت شيئاً جديداً سماوياً، شيئاً يعطى الحياة بصورة فريدة؟ فإذا كان هناك شئ غير عادى تكشفه الخليقة الجديدة، فأين الإنسان، وأين ما تعلمه ؟ فليس الفعل الخارجى إذاً هو الذى يوصى به المسيح لأن آخرين فعلوا ذلك، فالوصية يجب أن تكون شيئاً آخر يبين من

خلالها ـ شيئاً أعظم وأكمل وأكثر قداسة، إنه نزع الرغبات من الروح نفسها ومن تصرفاتها، كل ما هو غريب يجب أن يُقتلع من العقل وهذا هو الدرس المناسب الذى يجب أن يتعلمه المؤمن والعقيدة الجديدة التى يعلم بها المخلص .

لقد تخلى القدماء عن ممتلكاتهم، وأهملوها كلية فى ازدرائهم للأشياء الخارجية ، ولكنهم احتفظوا برغبات أرواحهم فأصبحوا متعجرفين ومتباهين وتافهين ومزدرين للآخرين كما لو أنهم فعلوا شيئاً فوق طاقة البشر، كيف إذاً أعطى المخلص هؤلاء الموعودين بالحياة الأبدية ما قد يتحول إلى وصية ضارة ومؤذية فيما يتعلق بذات الحياة التى يعد بها؟

وعلاوة على ذلك قد يتخلص المرء من عبء الثروة، ومع ذلك لايزال يشتهيها ويتوق إليها، فهو قد تخلى عن استخدامها، ولكن عندما يجد نفسه يحتاج ويتوق إلى ما تخلى عنه يعانى الضعف من غيابها، ويشعر بالندم ،لأنه عندما يفتقر المرء لضرورات الحياة فإن روحه تتحطم ولن يكون لديه متسع من الوقت للأشياء الفضلى، لأنه يبذل قصارى جهده ليحصل على ما يحتاج إليه كيفما وكلما يستطيع.

(حق الممتلكات والاستخدام المشترك)

١٣ ـ هناك حالة أخرى غير السابقة تعتبر أكثر نفعاً وفائدة، فليست الفكرة أن يمتلك الفرد ما يكفيه فقط حتى لا يقلق ، ولكن يمكن للفرد أن يمتلك أكثر مما يكفيه وفى نفس الوقت يقدم مما له لمساعدة الآخرين كما ينبغى، لأنه إن لم يمتلك أحد أى شئ فما هى الفرصة المتاحة لمشاركة الخيرات؟ ألا تبدو هذه الفكرة متعارضة بصورة مباشرة مع تعاليم الرب الممتازة الأخرى ؟ «اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتى إذا فنيتم يقبلونكم فى المظال الأبدية» «بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لاينقب سارقون ولا يسرقون»، كيف يستطيع المرء أن يعطى طعاماً للجوعان وشراباً للعطشان وكساءً للعريان ومأوى لمن لا مأوى له (والذين لايفعلون ذلك مهددون بالنار والظلمة الخارجية)، ألم يكن هو نفسه لديه أى من هذه الأشياء؟ الرب نفسه نزل ضيفاً على زكا ومتّى جابيا الضرائب الغنيان، ولم يطلب منهما أبداً أن يتخليا عن ثروتهما ولكنه بعدما أمر بالاستخدام العادل ومنع الاستخدام الظالم لها قال : «اليوم حصل خلاص لهذا البيت لأنه أيضاً ابن ابراهيم» . وهكذا فهو يمتدح استخدام الممتلكات، مع أنه يضيف الوصية

بضرورة مشاركتها وذلك عن طريق إعطاء شراب للعطشان، وخبز للجوعان، وإيواء من لا مأوى له وكساء العريان. فإذا كان من المستحيل أن نقدم هذه الاحتياجات إلا بالثروة ومن ثم يوصينا الله أن نتخلى عن الثروة فإن ما يفعله الرب إذاً هو أنه يخبرنا أن نعطى وألا نعطى، أن نطعم وألا نطعم ، أن نأوى وأن نطرد، أن نشارك وألا نشارك، وهذا شئ غريب حقاً.

(الثروة وسيلة مفيدة لفعل الخير)

١٤ ـ لا يجب علينا إذاً أن ننبذ الثروة، فهي مفيدة لأقاربنا، فهذه الأشياء تسمى مقتنيات لأنها "تقتنى" "وهى ثروة " لأنها مفيدة، وقد أنعم الله بها ليستخدمها الإنسان فهى تقع تحت تصرفنا مثل المواد أو مثل الوسائل التى يمكن أن تستخدم على نحو جيد من جانب الذين يعرفون كيف يفعلون ذلك، فالوسيلة إذاً استخدمناها بمهارة، ستنتج تأثيراً جيداً، أما إذا افتقرت إلى المهارة فستتأثر بذلك ، لكن الخطأ هنا ليس خطأ فى الوسيلة نفسها.

الثروة وسيلة من هذا النوع، فإذا كنت قادراً على أن تستخدمها على نحو جيد فهى إذاً ستخدم العدالة، وأما إذا استخدمتها على نحو سيئ فستخدم الظلم لأن طبيعتها هى أن تخدم لا أن تحكم، فالشئ فى حد ذاته غير قادر على فعل الخير أو الشر ولا لوم عليه ، أما ذلك القادر على أن يستخدم الأشياء على نحو جيد أو سيئ بمحض اختياره الحر فهو المسئول، وهو العقل البشرى الذى يمتلك كل من الحكم المستقل والقدرة على الاختيار الحر فى التصرف فيما أُعطى. وعلى هذا فإن الذى يجب أن يُدمر ليس هو مقتنيات المرء بل بالأحرى رغبات الروح التى تحول دون الاستخدام الصالح لممتلكات المرء، فإذا أصبح المرء باراً وصالحاً بهذه الطريقة فعندئذ يستطيع أن يستخدم ثروته على نحو جيد، إذاً التخلى عن المقتنيات وبيعها يُفهم فيما يتعلق برغبات الروح.

(الرغبات والاستخدام الأمثل للثروة)

١٥ ـ لا يسعنى أن أضع الموضوع كما يلى: هناك أشياء تختص بالروح من الداخل وبعضها من الخارج، وتلك الأخيرة تبدو صالحة إذا استخدمتها الروح على نحو جيد، وتبدو سيئة إذا أُستخدمت على نحو سيئ . ولذلك فعندما يوصينا الرب بأن نتخلص من ممتلكاتنا فهل تبقي رغباتنا كما هى؟ فالإنسان الذى يتخلى عن ثروته العالمية قد لايزال غنياً بالرغبات حتى بعد ذهاب ممتلكاته المادية، لأن ميوله تنتج نفس الآثار التى تخنق وتعوق

الصواب وتشعل بداخله الشهوات الموروثة. وهكذا فليس فى صالحه أن يكون فقيراً مادياً غنياً في الرغبات، فمثل هذا الانسان يشبه شخصاً حرم نفسه من الأشياء التى من الممكن أن تخدمه وفى نفس الوقت أشعل نار الشر بداخله بافتقاره إلى الأشياء الخارجية. علينا إذاً أن نتخلى عن الممتلكات الضارة فقط ، وليست الممتلكات النافعة لنا إذا عرفنا كيف نستخدمها على نحو جيد. فأى شئ يستخدم بتعقل واعتدال وورع هو مفيد، وأما الأشياء الضارة فيجب أن تُنبذ. وهكذا فإن الرب يسمح لنا باستخدام الأشياء الخارجية، والشئ الذى يأمرنا بنبذه ليس وسائل الرزق بل الأشياء التى تستخدم على نحو سيئ ، وقد رأينا أن السوء يأتى من نقائص ورغبات الروح وليس من الممتلكات.

(الفقير فى الروح)

١٦ ـ إن ثروة الرغبات تميت الجميع ، ولذلك ففى القضاء عليها يمكن الخلاص، وهذه هى الثروة التى يجب أن تُطَّهر منها الروح، عندئذ فقط يستطيع الإنسان أن يسمع دعوة المخلص "تعال واتبعنى"، لأنه هو الطريق للقلب النقى، ولكن نعمة الله لا تستطيع أن تخترق القلب غير الطاهر، فالروح الغنية بالشهوات هى روح غير طاهرة، وهى الميول الدنيوية.

تخيل الإنسان الذى يحتفظ بمقتنياته وذهبه وفضته ومنازله كعطايا من الله، والذى يخدم الإله الذى أعطاه هذه الأشياء، باستخدامها لخير الإنسانية، والذى يعلم أنه إنما يمتلكها لخدمة إخوته أكثر من نفسه والذى يعرف أنه أعلى من هذه المقتنيات، وليس عبداً لها، والذى لا يتجول وقلبه متعلق بمقتنياته أو أن يجعل نفسه مطوقاً بها، والذى دائماً ما يعمل أعمالاً صالحةً ومقدسةً، والذى إذا حُرم منها يستطيع أن يحتمل ذلك، ويفرح كما كان يفرح عند وفرتها، فمثل هذا الإنسان هو الذى يدعوه الرب "مباركاً" و"فقيراً فى الروح"، وهو جدير بأن يرث ملكوت السموات، وهو ليس الغنى الذى لا يستطيع أن يحصل على الحياة.

(التعلق الضار بالمقتنيات)

١٧ ـ على النقيض من ذلك تخيل إنساناً يحمل في قلبه الذهب أو الأراضى وليس روح الله فيه، والذى يزيد من مقتنياته باستمرار . هذا الإنسان وقع فى فخ العالم وهو من الأرض وإلى الأرض يعود، فكيف لمثل هذا الإنسان أن يضع رغباته وأفكاره على ملكوت

السموات ، وهو يحمل معه إما ضيعة أو كنزاً وليس قلباً؟ أين يعثر عليه بين هذه الأشياء التى علق عليها اختياره؟ "حيث يكون كنزك يكون قلبك أيضا".

أوريجانوس (Origen)

يعتبر أوريجانوس (١٨٥ ـ ٢٥٣ م) واحداً من أعظم المفكرين وأكثرهم أصالة فى الكنيسة القديمة، وخلف كليمنت فى مدرسة الإسكندرية للتعليم الدينى قبل المعمودية، كتاباته عديدة وهى ذات طابع تفسيرى، دفاعى، عقائدى ونسكى، وقليل جداً من أعماله تعالج الموضوعات الاجتماعية على نحو واضح، وموقفه يتفق أساساً مع التعاليم التقليدية: فهو يعترف بشرعية الملكية ويؤكد على واجب مشاركتها مع الآخرين بالإضافة الى المسئولية التى تستلزمها الملكية، ومما هو جدير بالملاحظة بصفة خاصة هو تقسيمه للأشياء إلى صالحة وضارة ووسط. أما الثراء الذى أعطاه كليمنت تعريف (الوسيلة)، فهو ينتمى عند أوريجانوس إلى الفئة الثالثة، ولأوريجانوس آراء هامة فيما يتعلق بالقانون الطبيعى والنظام السياسى وفهمه للإنسان كمخلوق ذو حاجات لا حصر لها ، وعليه أن يستخدم ذكاءه لإشباعها.

ضد سلسوس (Against Selsus)

(ذكاء الإنسان واحتياجاته وظهور الفنون)

٤ .٧٦ ـ لم يدرك سلسوس أن الرغبات تدفع العقل البشرى ليعمل على الدوام لكى لا يصاب بالخمول ، ولكى لا يكون جاهلاً بالفنون المختلفة ، خلق الله الإنسان وجعل منه كائناً متعدد الحاجات وهذه الحاجات تدفعه لكى يستخدم ذكاءه ليكتشف فنون عدة كفن إعداد الطعام والحماية. ولهذا فإن من يميل إلى دراسة الفلسفة يجب أن يختبر المعاناة الفكرية ـ فمن خلال هذه المعاناة يكتشفون الفنون . وهم إن لم يعملوا تفكيرهم بهذا الشكل فسوف تخمد ملكاتهم العقلية.

ولكى نحصل على احتياجات الحياة توصل الإنسان إلى فن الزراعة والحرث، فن البستنة والنجارة والحدادة وهذه صنعت بدورها الآلات اللازمة للفنون التى تقدم الطعام للإنسانية، والتى توفر له المأوى والحماية، فظهر فن النسيج ثم تمشيط الصوف، وعرفت البشرية فن

البناء فتقدم العقل وعرف العمارة، وهناك شئ آخر تعلمته البشرية من نقص بعض الضروريات وهو ظهور فن الملاحة حتى يمكن نقل منتجات مكان ما إلى مكان آخر يحتاج إليها. أما إذا عاشوا فى رغد فإنهم سيهملون مواهبهم العقلية .

ولهذه الأسباب يُعجَب المرء بالعناية الإلهية التى جعلت المخلوق العاقل مختلفاً عن الحيوانات غير العاقلة فهو متعدد الاحتياجات وهذا فى صالحه، فالحيوانات غير العاقلة تحصل على طعامها جاهزاً لأن ليس لديها ما يحثها على ممارسة الفنون ، وهى أيضاً لديها حماية طبيعية لأنها مغطاة بالشعر أو الريش أو الحراشف أو بالصدفات.

(القانون السماوى والقانون الطبيعى)

٥ . ٤ ـ ويطبق سلسوس وجهة نظره هذه على كافة القوانين المختلفة فيقول: «يبدو لى أن بندار كان محقاً حين قال إن القانون هو مَلِك على الجميع». دعونا نناقش هذه المقولة أيضاً، أى قانون هذا يا سيدى الذى تقول عنه إنه مَلِك الجميع؟ إذا كنت تعنى القوانين التى تحكم مدناً معينة فإن هذه المقولة غير صحيحة على الإطلاق لأن الناس لا تحكم بنفس القوانين، كان جديراً بك أن تقول: «القوانين هى ملوك الجميع» لأن فى كل أمة يوجد قانون ما ، وهو الملك على كل مواطنيها، بيد أنك لو فهمت القانون بالمعنى الصحيح فإنه فعلاً بالطبيعة ملك الجميع حتى وإن كان هناك لصوص ينكرون وينتهكون هذه القوانين ، وكما أن هناك أناس ينكرون وجود القوانين ولكننا نحن المسيحيين نعرف أن القانون بالطبيعة ملك على الجميع عندما يكون مثل قانون الله ونحاول أن نحيا وفقاً له، ولنبدأ من القوانين التى ليست قوانين.

تعليق على متى.

(خلاص الغنى ليس مستحيلاً وإنما صعباً)

١٥ ـ ٢٠ ـ وبمجرد أن مضى (الشاب الغنى) قال يسوع لتلاميذه: «الحق أقول لكم إنه يعثر أن يدخل غنى إلى ملكوت الله». ومن الضرورى أن نلاحظ المعنى الدقيق لكلمات المخلص كما كُتبت، فهو لم يقل إن الغنى لن يدخل ملكوت السموات، فإذا كان قد قال ذلك فهو بذلك يستثنى الأغنياء من ملكوت السموات .إن ما قاله هو «يعثر أن يدخل غنى ملكوت الله» فأوضح بذلك صعوبة خلاص الغنى وليس استحالته ، ويمكن أن يُرى صدق هذا من

النص نفسه لأنه بصعوبة يستطيع أن يقاوم الأغنياء رغباتهم وميولهم الآثمة وألا يسمحوا لها بأن تسيطر عليهم. وعلاوة على ذلك إذا كان يشار للغنى بمعنى رمزى فمن الملائم أن نتساءل لمَ سيدخل ملكوت السموات بصعوبة؟ وبالإضافة لذلك فإن الصعوبة كما ينبغى أن تفهم مُفسرة فى المقارنة: «مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غنى إلى ملكوت الله». فالغنى هنا يقارن بجمل ليس فقط بسبب نجاسة الحيوان كما يعلمنا الناموس ولكن أيضاً بسبب انحرافه الكامل، ومن ناحية أخرى فإن ملكوت السموات يشبه ثقب إبرة لتبين مدى ضيق وصعوبة المدخل إلى ملكوت السموات بالنسبة للغنى، فالرب إذاً يعلن أنه من المستحيل للجمل أن يمر من ثقب إبرة ولكن حيث أن كل الأشياء مستطاعة عند الله فهو يجعل مثل هذا المرور ممكناً. والدليل على أن الرب أخذ مثل ثقب الإبرة والجمل ليعلن صعوبة ـ وليس استحالة ـ دخول الغنى إلى ملكوت السماء عندما سأل التلاميذيسوع: «إذاً فمن يستطيع أن يخلص»؟ فأجابهم: «الغير مستطاع عند الناس مستطاع عند الله» . ومعنى ذلك أنه من الممكن تماماً أن يمر جمل من ثقب الإبرة ولكن ذلك غير ممكن لإنسان، وبنفس الطريقة فإنه من الممكن أن يدخل غنى ملكوت الله. فبأى الطرق والسبل يجعل الله ذلك مستطاعاً؟ هو وحده يعلم ذلك ومسيحه والذين يريد أن يكشف لهم ذلك.

عظة من سفر اللاويين
(سبع طرق للحصول على غفران الخطايا)

العظة ٢، ٤ ـ سمعتم كم من ذبائح كانت فى الناموس للتكفير عن الخطايا، استمعوا الآن لتعرفوا عدد الطرق الموجودة لمغفرة الخطايا فى الإنجيل، أول طريقة لمغفرة الخطايا هى من خلال المعمودية، والثانية عن طريق الاستشهاد، والثالثة بواسطة تقديم الصدقات كما يقول المخلص: «متي قدمت صدقة فكل الأشياء تصبح طاهرة لك». والطريقة الرابعة عندما نغفر خطايا إخواننا، والطريقة الخامسة للحصول على مغفرة الخطايا هى التوبة عن كل آثام الخطية فى حياة المرء، والطريقة السادسة من خلال وفرة الإحسان، وأخيراً الطريقة السابعة لمغفرة الخطايا تتميز بأنها صعبة وشاقة، وهى تتم بواسطة الكفارة عندما يغرق الخاطئ مضجعه بالدموع التى تصبح طعامه نهاراً وليلاً، وعندما لا يخجل من أن يخضع نفسه لحكم كاهن الرب، ويسأل عن الدواء كما هو مكتوب: «قلت أعترف للرب بذنبى وأنت رفعت آثام خطيتى».

الجزء الثانى

الكُتّاب الأفارقة

ترتليان Tertullian

مع أن كنيسة أفريقيا بدأت متأخرة نسبياً، إلا أنها قدمت للمسيحية اللاتينية أكثر المفكرين أصالة فى مرحلة ما قبل المجمع المسكونى المنعقد فى نيقية بآسيا الصغرى عام ٣٢٥م وهو ترتليان، وكذلك أحد الأساقفة الشهداء وهو سيبريان واثنين آخرين من علماء اللاهوت العلمانيين وهما ارنوبيوس ولاكتانيوس .

يجمع ترتليان بين معرفة عميقة فى الفلسفة والقانون والثقافة اليونانية واللاتينية، مع قوة لا تنضب وبلاغة متأججة وهجاء لاذع، وبعدما تحول إلى المسيحية فى عام ١٩٥م تقريباً ترك روما ليعود إلى قرطاج مدينته الأصلية، وأصبح معلماً للدين بطريقة السؤال والجواب، وكاهناً وفقاً لما يرويه جيروم، وقد دفعته صداقته الى التعاطف مع المونتانية (Montanism) فانضم إلى الطائفة رسمياً فى ٢٠٧م وبعد ذلك أسس الحزب الخاص به وهو الترتوليانية (Tertullianists) .

عادة ما تقسم كتاباته العديدة إلى أربع مجموعات: دفاعية (دفاعاً عن المسيحية) وجدلية (ضد البدع)، وأخلاقية (تفسر الأخلاق والفضائل المسيحية)، والنظام الخاص (بالأسرار المقدسة).

ومع أن عقائده فيما يتعلق بالثالوث المقدس والكريستولوجيا والكهنوت والأسرار المقدسة أكسبته لقب مؤسس اللاهوت فى الغرب، إلا أن ترتليان يقدم تعاليم فرعية فيما يتعلق بالموضوعات الاجتماعية، وهو يعترف بشرعية الملكية الخاصة مع أن مقولته «كل الأشياء مشتركة بيننا فيما عدا زوجاتنا» (Apology 39) وهذا يبين أنه يؤيد شكلاً من أشكال الشيوعية، إلا أنه يتضح من النص أنه لايعنى شيوعية بقدر ما يعنى مشاركة الخيرات. وأفكار ترتليان فيما يتعلق بعلاقة المسيحية بالثقافة والسلطة المدنية جديرة بالدراسة والملاحظة.

الدفاع "The Apology"

(موقف المسيحى تجاه الإمبراطور)

٢٩ - هذا إذاً هو الأساس الذى نُتهم بمقتضاه بخيانة السلطة الإمبراطورية وأعنى به أننا لا نعتبره خاضعاً لشعبه ، وأننا لا نتظاهر كذباً بتخصيص صلوات من أجل سلامته ، بينما نحن لا نؤمن أن سلامه يكمن فى أيادى صبت من الرصاص . ولكن من المؤكد أنك لا تتصف بالتقوى فى طلبك لها حيث لا توجد ، والتماسها ممن لا يملكون إعطاءها ، متجاهلاً من فى قدرته أن يعطيها . والأكثر أنك تضطهد الذين يعلمون من أين يلتمسونها ، والذين - لأنهم يعلمون - قادرون علي الحصول عليها .

٣٠ - نحن نرفع صلوات من أجل سلام الإمبراطور لله الأبدى الحقيقى الحى الذى على الإمبراطور نفسه أن يرغب فى عطفه أكثر من الآخرين .

٣١ - ولكنك تقول إننا فقط نتملق الإمبراطور ونرفع صلواتنا لنتجنب الاضطهاد.. ادرس كلمات الله وكتبنا المقدسة التى لا نواريها والتى قد تتسبب حوادث كثيرة في وضعها فى أيدى الذين لا ينتمون إلينا، وتعلم منها أن وفرة غزيرة من الخير موعودة لنا طالما صلينا لله من أجل أعدائنا وباركنا مضطهدينا.

٣٢ - هناك ضرورة أخرى لكى نصلى من أجل الإمبراطور بل من أجل الاستقرار الكلى للإمبراطورية، ولصالح روما بصورة عامة ، لأننا نعلم أن هناك كارثة عظمى مقبلة على الأرض كلها، بل أنها ليست كارثة فقط ولكنها نهاية كل الأشياء وبداية ويلات رهيبة، وهذه الكارثة مؤجلة فقط بسبب فترة الراحة الممنوحة للإمبراطورية الرومانية، وليس لدينا إذاً أى رغبة فى أن تلحقنا هذه الأحداث الرهيبة، وحين نصلى من أجل تأجيل مجيئها فإننا نعمل من أجل بقاء روما، ففى الإمبراطور نحن نحترم حكم الله الذى جعله على كل الأمم.

(الاهتمام الاجتماعي للمسيحيين الأوائل)

بعد أن قمت بتنفيذ الافتراءات ضد المسيحيين، سأبدأ الآن فى توضيح أعمالهم الصالحة، فنحن نكوِّن جسداً واحداً يربطه معاً الإيمان المشترك والنظام المشترك ورباط الرجاء المشترك، ونلتقى سوياً كاجتماع لنقدم صلاة لله بجبهة موحدة، ونتصارع مع الله

بواسطة تضرعاتنا، وهذا العنف يُبهج الله. ونصلى كذلك من أجل الإمبراطور ورجاله، ولكل الذين فى السلطة ومن أجل خير العالم، ومن أجل أن يسود السلام، ومن أجل تأجيل الدينونة النهائية . نجتمع لنقرأ الكتب المقدسة حيث نجد التحذيرات الضرورية لكل حالة عملية، وعلى أية حال فإننا بالكلمات المقدسة نغذى إيماننا، نشعل رجاءنا ونقوى ثقتنا، وبوصايا الله نحسن انضباطنا، ونؤكد فضائلنا، وفي هذا الاجتماع أيضاً تُعطى النصائح ونقدم التوبيخ المقدس.

يرأسنا رجال لهم شخصيات جيدة، وهم يكتسبون هذا الشرف ليس بالمال ولكن بفضيلتهم ومقدرتهم . فأشياء الله لا يمكن أن تُباع أو أن تشترى، فمع أن لدينا صندوق كنوز إلا أن محتوياته ليست من الممتلكات، كما لو كان من الممكن أن نحصل على الدين بثمن، فكل عضو يضع عطية ضئيلة مرة شهرياً. هذا إذا رغب وعلى مقدار استطاعته ولا يوجد إجبار بالمرة، فكل شئ يتم بمحض الاختيار، وهذه العطايا عبارة عن صندوق إيداعات للتقوى ، ولا يتم السحب منها للإنفاق على الموائد والشراب والطعام ، ولكن لإعالة ودفن الفقراء، ولمساعدة الأولاد والبنات المحتاجين والأيتام والعجائز الملازمين للبيت ، وتستخدم أيضاً لمساعدة الذين تعرضوا للتحطيم، والذين حُكم عليهم بالعمل فى المناجم والمُرحلّين إلى الجزر أو المسجونين لإخلاصهم لقضية الله.

وحيث إننا نُشكّل عقلاً واحداً وقلباً واحداً فنحن لا نتردد فى مشاركة خيراتنا الأرضية بعضنا مع بعض، فكل الأشياء مشتركة بيننا باستثناء زوجاتنا، فنحن لا نمارس الملكية المشتركة فى ناحية واحدة فقط كما يمارسها الآخرون الذين ليس فقط ينالون زوجات أصدقائهم ، ولكنهم أيضاً يقدمون زوجاتهم لأصدقائهم بمنتهى الرضا متبعين مثال أولئك الحكماء فى العصور القديمة مثل سقراط اليونانى وكاتو الرومانى الذين شاركوا زوجاتهم مع أصدقائهم.

قاعدة المهرطقين

(المسيحية والثقافة الدنيوية)

١٤٠٧ ـ هذه عقائد رجال وشياطين وُجدت لتثير أذهان روح حكمة هذا العالم : والرب سمى ذلك « حماقة » و« اختاروا الأشياء الحمقاء لهذا العالم » لتحير الفلسفة نفسها، لأن

الفلسفة هى موضوع حكمة هذا العالم وهى المفسر المتهور لطبيعة وخطة الله، وفى واقع الأمر فإن الفلاسفة هم الذين أثاروا البدع نفسها ...... فعندما يمنعنا الرسول من هذه البدع، يذكر كلمة « فلسفة » علناً لنأخذ حذرنا منها، وعندما يكتب إلى أهل كولوسى يقول : « انظروا ألا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس وليس حسب الروح القدس ». وقد كان الرسول فى أثينا ومن خلال اتصالاته اطلع على الحكمة البشرية التى تدّعى أنها تعرف الحقيقة، لكنها فى الواقع تفسدها، وهى فى حد ذاتها منقسمة إلى بدع متنوعة وذلك عن طريق تعدد طوائفها الهدّامة ، ما هو الشئ المشترك بين آثينا وأورشليم ؟ وماذا بين الأكاديمية والكنيسة ؟ وماذا بين المهرطقين والمسيحيين ؟ .... فلتذهب بعيداً كل مشروعات المسيحية "الرواقية " أو "الأفلاطونية " أو " الجدلية " ، فبعد يسوع المسيح لا نرغب فى أى نظريات مُعقدة، ولا فى أى مقالات حادة بعد الإنجيل ، ولا نرغب فى أى اعتقاد إضافى لأن لدينا إيماننا فلا نحتاج لإيمان آخر.

فى الصبر

(ازدراء الثروة والصبر عند فقدانها)

٧ ، ٢ - إذا اضطرب الإنسان لفقْد ممتلكاته، فعليه أن يرجع إلى مواضع عديدة فى الكتاب المقدس ليتذكر أن يحتقر العالم. ولا يستطيع الإنسان أن يقابل نموذج أفضل من يسوع المسيح فى عدم مبالاته للمال ، فهو لا يمتلك أية خيرات دنيوية ودائماً يُدافع عن الفقراء ويدين الأغنياء ، ولذلك فقد وضع ازدراء الثروة قبل احتمال فقدانها، مشيراً من خلال رفضه للثروات أن على الإنسان ألا يقلق عند فقدانها. ومن ثم فعلينا ألا نسعى وراء الثروة لأن ربنا لم يسع خلفها، وإذا تصادف و فقدناها كلها فعلينا أن نحتمل فقدانها برباطة جأش . لقد قال روح الرب من خلال فم الرسول : « محبة المال أصل لكل الشرور ».

ولا تكمن محبة المال فقط فى تمنى ممتلكات الآخرين، فحتى ما يبدو أنه ملكنا ينتمى لآخر لأننا لا نمتلك وإنما نسعى وراء ما يخص آخر. فإذا كنا غير مستعدين لتحمل فقدان هذا الذى يخص آخر ، فإننا بحزننا وعدم قدرتنا على احتمال الخسارة نخطئ ضد الله نفسه لأننا نفضل أشياء الأرض على أشياء السماء ، ولأننا نستهلك الروح التى تسلمناها من الرب فى القلق على الأشياء التى من العالم .

إن الوثنيين فقط هم الذين لا يستطيعون تحمل أى خسارة لأنهم يضعون الأشياء الدنيوية قبل حياتهم نفسها، وهم يفعلون ذلك حباً فى الثروة، ويشتغلون فى التجارة البحرية المربحة رغم خطورتها. وهم يتبنون القضايا الخاسرة فى الساحة العامة ليصبحوا أغنياء، ويؤجرون أنفسهم للألعاب والخدمة العسكرية ، أو يسرقون فى المناطق المهجورة بغض النظر عن الوحوش البرية . وعلى العكس من ذلك ولأننا مختلفين عنهم لا يجدر بنا أن نتخلى عن حياتنا من أجل المال ، بل نتخلى عن المال من أجل الحياة سواء بالإحسان الاختيارى ، أو باحتمال الخسارة بصبر .

سيبريان من قرطاجنة (Cyprian of Carthage)

اكتسب سيبريان (٢٠٠ ـ ٢٥٨م) أسقف قرطاجنة وهو واحد من الشهداء، شهرته عن طريق اهتمامه الاجتماعى وأنشطته الخيرية، ولا سيما أثناء الوباء الذى دمر مدينته. ولم يكن سيبريان مفكراً نظامياً بأى حال من الأحوال، وكان أقل إبداعاً وتأملاً من أوريجانوس وترتليان. وهو لم يقدم عرضاً كاملاً للعقيدة المسيحية ، ومع هذا فإن تعاليمه فيما يتعلق بوحدة الكنيسة ووضع أسقف روماوالمعمودية والكفارة والقربان المقدس لها أثر فعال .

يعتبر كتابه « فى الأعمال وتقديم الصدقات» من أهم أعماله فى مجال الموضوعات الاجتماعية لأنه أول عمل يناقش ويطور عقيدة تقديم الصدقات بصورة منتظمة، وبالنسبة لسيبريان فإن تقديم الصدقات ليس مجرد عمل خيرى، ولكن التزام جاد بالعدالة يُستمد من وسائل التطهُّر والحصول على مغفرة الخطايا .

فى الأعمال وتقديم الصدقات

١ ـ اخوتى الأعزاء : ـ عديدة وعظيمة هى النعم السماوية التى عملت ولا تزال تعمل بها رحمة الله الأب الغزيرة غير المحدودة، ورحمة المسيح من أجل خلاصنا، لأن الآب أرسل ابنه ليحفظنا وليعطينا الحياة كى يعيدنا، ولأن الابن أراد هذه الإرسالية وأراد أن يُدعى ابن الإنسان حتى يجعلنا أبناءً لله ، اتضع ليرفع الناس الذين كانوا قبلاً مغلوبين، جُرح ليشفى جراحنا، خدم ليحرر الذين يخدمون، قاسى الموت ليحقق الخلود للإنسان، هذه هى العطايا العديدة والعظيمة للرحمة السماوية، بالإضافة لذلك ما أعظم العناية الإلهية ورحمتها،

فبواسطة خطة الخلاص حصلنا على عناية وفيرة بعد أن أُفتدينا !لأنه حين أتى الرب و شفى الجروح التى سببها آدم وشفى السموم العتيقة للحية، أوصى الإنسان الذى أصبح كاملاً ألا يخطئ مخافة أن يحدث له شئ أسوأ من هذا. فنحن محدودين بمساحة ضيقة تحددها لنا الوصايا، فعزيمة الإنسان الواهنة لا تستطيع عمل أى شئ حتى تأتي العناية الإلهية للمساعدة مرة أخرى، وذلك عندما تفتح طريقاً ما للحصول على الخلاص، وعندما توضح أعمال العدل والرحمة، ومن ثم فإننا بتقديم الصدقات نغسل أية أدران يمكن أن تلحق بنا فيما بعد .

٢ ـ يتحدث الروح القدس فى الكتاب المقدس قائلاً :« بالصدقات والإيمان تُطهر الخطايا »، وبالتأكيد ليس الخطايا التى أُرتكبت فيما قبل لأن هذه غُفرت بدم وتقديس المسيح .وفى موضع آخر يقول : « كما يطفئ الماء النار هكذا أيضاً الصدقات والأعمال الصالحة تطفئ الخطية » . إنه مثلما تُطفأ نار جهنم بينبوع الماء المُخلص هكذا أيضاً يطفئ تقديم الصدقات والأعمال الصالحة لهب الخطية، ولأن مغفرة الخطايا يتم عند المعمودية، ننعم مرة أخري برحمة الله إذا عملنا دائماً وفقاً لروح المعمودية. وهذا أيضاً يُعلمه الرب فى الإنجيل لأنه حينما لاحظ أن تلاميذه يأكلون دون أن يغسلوا أيديهم قبلاً أجاب قائلاً : « من خلق الداخل خلق الخارج أيضاً، اعطوا صدقات بحق لتروا كل الأشياء طاهرة أمامكم ». وهكذا علّم وبيّن أن القلب وليس اليد هو الذي ينبغى أن يغسل، وان النجاسة الداخلية وليس الخارجية هى الأجدر بأن تزال، وأن الذى يُطهر الداخل يُطهر الخارج أيضاً، وأن الذى طُهر عقله فقد طُهر جلده وجسده أيضاً، وبالإضافة إلى توضيح كيف نستطيع أن نُطهر وننقى قال : ـ إنه يجب تقديم الصدقات، ولأنه يسعى لخلاص الذين افتداهم بثمن عظيم، فإنه يعلمنا أن أولئك الذين تلوثوا بعد نعمة المعمودية يمكن أن يُطهروا ثانية .

[الكتاب المقدس وواجب تقديم الصدقات]

٧ ـ وهكذا ففى الإنجيل يوصينا الرب ـ معلمنا وسيد خلاصنا الأبدى الذى ينعم بالحياة على أولئك الذين يؤمنون به ويعولهم للأبد ـ ضمن وصاياه المقدسة وأفكاره السماوية ويأمرنا بأن نستمر فى تقديم الصدقات وألا نتعلق بجشع بممتلكاتنا الأرضية، ولكن بالحرى نكتنز كنوزاً سماوية، فهو يقول : « بع أملاكك وقدم الصدقات ». ومرة أخرى يقول « لا تكنزوا لكم

كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً » . وعندما أراد أن يبين للإنسان الذى كان كاملاً عن طريق حفظ الناموس قال :« إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى » .

(ضد الخوف من تقديم الصدقات)

٩ - إذا كنت خائفاً خشية أن يستنفد ميراثك بهذه الطريقة، وتصبح فقيراًخاصة لو أعطيت بسخاء ابتهج وتأكد أن ما يُنفق لخدمة المسيح يتحول إلى عمل سماوى لا يمكن أن يستنفد أبداً. وأنا لا أعدكم هذا بسلطتى الخاصة ولكنى أشهد لذلك بإيمانى بالكتاب المقدس، وعلى مسئولية وعد الله ، يتحدث الروح القدس من خلال سليمان : « من يعطى الفقير لا يحتاج ولمن يحجب عنه عليه لعنات كثيرة » . ولهذا يقال إن الرحماء والذين يفعلون الخير لن يتعرضوا أبداً للفقر، وأما البخلاء يفتقرون، والرسول بولس المبارك يقول وهو مملوء بنعمة وحى الرب: « والذى يقدم بذراً للزارع وخبزاً للآكل سيقدم ويكثر بذاركم وينمى غلات بركم مستغنين فى كل شئ » . ومرة أخرى يقول : «لأن افتعال هذه الخدمة لا يسد إعواز القديسين فقط بل يزيد بشكر كثير لله ». هذا لأنه بينما عملية الشكر موجهة لله عن طريق صلاة الفقراء من أجل صدقاتنا وأعمالنا الصالحة، فإن مكافأة الله تزيد ثروة الذى يفعل خيراً .

(مثال الأرملة الفقيرة نقدمه للغنى لكى يحذو حذوها)

١٥ - ولكن فيكم (الأغنياء الذين لا يعطون). لا تتوقع الكنيسة أن تأخذ كثيراً لأن أعينكم التى يعميها الظلام والتي تغطيها ظلال الليل لا تبصر الفقراء والمحتاجين، وأنتم أيها الأغنياء والأقوياء أتعتقدون أنه عليكم أن تحتفلوا بمائدة الرب باستحقاق، وأنتم لا تفكرون مطلقاً فى التقدمة وتقربون مائدة الرب بلا ذبيحة وتشتركون فى الذبيحة التى يقدمها الفقراء ؟ انظروا الأرملة التى فى الإنجيل المملوءة بالأفكار السماوية كيف أنها تفعل خيراً وسط ضغوط و صعوبات الفقر، وتلقى فلسين وهما كل ما تملك فى الخزانة، وعندما رآها الرب حكم على عملها هذا ليس من ناحية المقدار ولكن من ناحية النية، وعندما لم يفكر فى مقدار ما قدمت بل مما أعطت قال : « الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر

من جميع الذين ألقوا فى الخزانة لأن الجميع من فضلتهم ألقوا، وأما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها كل معيشتها». إمرأة مباركة عظيمة استحقت أن يمتدحها الديان حتى قبل يوم الدينونة، فليخز الغنى من عدم سخائه، وعدم إيمانه، فمثل هذه الأرملة الفقيرة غنية بالأعمال الصالحة، فإذا كانت كل المبالغ يتم توزيعها على الأيتام والأرامل فهى تعطى من يستحق أن يأخذ. وهكذا نعرف العقاب الذى ينتظر الغنى الذى لا يعمل صالحاً لأنه فى هذا المثال لا يستثنى حتى الفقراء من فعل الأعمال الصالحة. ونعرف بذلك أن هذه الأعمال تقدم لله وكل من يفعلها يستحق خيراً من عند الله، فالمسيح يدعوها "عطايا الله " ويشير إلى أن الأرملة وضعت فلسين بين عطايا الله كي يتضح بجلاء أن من يرحم الفقير يقرض الله .

(عدد الأطفال ليس عذراً لعدم تقديم الصدقات)

١٨ ـ قد تقول إن لديك أطفالاً كثيرون فى العائلة، وأن عددهم لا يسمح لك بأن تقوم بالأعمال الصالحة، وإجابتى هى أنه يجب عليك أن تفعل أعمالاً صالحة أكثر بسبب هذه الحقيقة نفسها لأنك أب لأولاد كثيرين ، فعندك أشخاص أكثر يجب على ضمائرهم أن تُطهر، وأشخاص أكثر يجب على أرواحهم أن تُحرر، وكلما ازداد عدد أطفالك كلما ازداد عدد الأعمال الصالحة ... إذا كنت تحب أطفالك حقاً وإذا كنت تريد أن تريهم الحب الأبوى الكامل، فيجب عليك أن تفعل المزيد من الأعمال الصالحة حتى تزكى أطفالك عند الله بأعمالك الصالحة .

.(الطريقة المثلى لإعالة مستقبل أطفالك)

١٩ ـ لا تبحث عن أب مؤقت وضعيف لأطفالك بل ابحث عن الأب الأبدى والقوي لأولادك الروحيين، واعهد بثروتك إليه تلك التى تحتفظ بها لورثتك، ودعه يكون الوصى على أولادك والمشرف عليهم، والمدافع عنهم بسلطته السماوية ضد الأضرار العالمية، فعندما تعهد بميراثك لله فإن الدولة لن تصادرها، ولا يهاجمها جابى الضرائب، ولن تدمرها أى قضية ظالمة ، فالميراث موضوع فى مكان آمن تحت عناية الله، وهذا هو الذى يعول مستقبل أطفالك الأعزاء ، يعول ورثتك المستقبليين بحب أبوى . وعلى هذا فلن تكون أباً بل آثماً إذا لم تهتم بمنتهى الإخلاص بخير أطفالك وتعمل لخلاصهم بحب تقى حقيقى ، لمَ أنت متطلع هكذا لميراث أرضى بدلاً من الميراث السماوى ؟ لمَ تفضل أن تعهد بأطفالك للشيطان بدلاً

من المسيح ؟ أنت بذلك ترتكب جريمة مزدوجة : أولاً لأنك لا تجعل عون الله الآب متاحاً لأطفالك، وثانياً لأنك تعلّم أطفالك أن يحبوا الغنى أكثر من المسيح .

(مشاركة الخيرات بين المسيحيين الأوائل)

٢٥ ـ دعونا نفكر يا إخوتى الأعزاء فيما فعلته جماعة المؤمنين وقت الرسل عندما كان العقل فى البداية مزدهراً بأعظم الفضائل، وعندما كان إيمان المؤمنين دافئاً لأن توهج الإيمان كان لا يزال جديداً، عندئذ باعوا بيوتهم وضياعهم وقدموا عائداتها للرسل بفرح وسخاء لتوزع بين الفقراء، وعن طريق بيع وتوزيع ميراثهم الأرضى حولوا ممتلكاتهم حيث يستطيعون أن يجنوا ثمار الملكية الأبدية، ويعدوا بيوتاً حيث سيعيشون للأبد ..وهكذا تصبح بحق ابناً لله بالميلاد الروحى، هكذا تتشبه بعدل الله بالقانون السماوى لأن كل ما يخص الله هو للاستخدام المشترك للجميع، ولا يستثنى أحد من عطاياه وهباته أو يُمنع الجنس البشرى من التمتع بالتساوى بصلاح الله وسخائه. وهكذا فالنهار يضئ للجميع سواسية وتنير الشمس وتُندى الأمطار وتهب الرياح، وكل الناس تنام بنفس الطريقة، تتألق النجوم والقمر للجميع، فكل من لديه ممتلكات ويتبع هذا المثال فى العدل ومشاركة العائدات والثمار مع إخوته فيبين نفسه عادلاً ومنصفاً فى سخائه المجانى، هو شبيه بالله .

فى صلاة الرب

(الفقر والكمال)

٢٠ ـ يعلمنا الرسول بولس هنا (١ تيموثاوس ٦ :٧ـ١٠) أنه لا يجب علينا أن نحتقر الغنى فقط، بل نخافه أيضاً، لأن فيه يكمن أصل كل الشرور التى تغرى وتخدع العقل البشرى بمظاهر زائفة، ولذلك فإن الرب يوبخ الغنى الغبى الذى يفكر فى ثروته الأرضية، ويتباهى بمحصوله الوفير قائلاً : "يا غبى هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التى أعددتها لمن تكون ؟ " ، الغبى كان يبتهج بممتلكاته فى نفس الليلة التى أوشك فيها على الموت ، هذا الذى كانت حياته تضيع، كان يفكر فى وفرة طعامه .

وعلى النقيض من ذلك يعلمنا الرب أن كل من يبيع ممتلكاته ويوزعها على الفقراء يصبح كاملاً ، فيكتنز لنفسه كنزاً فى السماء ، وهو يقول إن الذين يستطيعون أن يتبعوه ويقلدونه

فى مجد عطفه، هم أولئك الأحرار غير المثقلين والذين لم يقعوا فى شرك الممتلكات الشخصية والذين سلموا ممتلكاتهم أولاً لله، فكرسوا أنفسهم لخدمة الرب .

(الصلاة تكون مقبولة فقط إذا رافقها تقديم الصدقات والصوم)

٣٢ ـ علاوة على ذلك دع الذين يصلون، لا يقربون الله بصلاة مجدبة لا ثمر فيها، فالصلاة بدون أعمال صالحة غير فعالة، لأنه مثلما تُجتث الشجرة التى لا تثمر وتلقى فى النار، هكذا أيضاً الكلمات التى لا ثمر لها لا يمكن أن تلقى استحسان الله حيث إنها لم تثمر فى صورة أعمال، وهكذا فإن الكتاب المقدس يعلمنا بهذه الكلمات : "تكون الصلاة صالحة بالصوم والصدقات "، لأن الله الذى يكافئ الأعمال الجيدة وتقديم الصدقات فى يوم الدينونة يستمع اليوم أيضاً للصلوات التى تأتى مع أعمال صالحة . فبمجرد أن تقدم هذه الصلوات تصعد للرب وتفرضها مزايا أعمالنا عليه، لأن من يرحم الفقير يقرض الله والذى يعطى المحتاج إنما يعطى الله نفسه، بمعنى أنه يقدم ذبائح روحية ذات رائحة سارة .

لاكتانتيوس (Lactantius)

غالباً ما يسمى لاكتانتيوس (٢٥٠ ـ بعد ٣١٧) الذى هو من تلاميذ أرنوبيوس "شيشرون المسيحى "، بسبب أناقة أسلوبه. وهو يحاول من خلال عمله الرئيسى "المبادئ المقدسة " (Divine Institutes) أن يوضح زيف الديانة الوثنية وفكرها، وأن يبين العقيدة الحقيقية والعبادة ، ومع أن لاهوته ليس عميقاً أو مبدعاً بصورة عامة إلا أنه يعتبر أول مؤلف من آباء الكنيسة يصل إلى عقيدة كاملة ومنظمة ومتناسقة إلى حد ما بالنسبة للموضوعات الاجتماعية قد بنى عقيدته هذه على أساس كرامة الإنسان ووعيه الاجتماعى، وقد أسماها الإنسانية أو الرحمة .

تكمن كرامة المرء فى حقيقة أنه صورة الله، والذى من أجله خلق الله الكون بأكمله، والذى يضعه فى مقدمة المخلوقات لأنه هو فقط يستطيع أن يعبر عن إعجابه بالأعمال (المبادئ السماوية ٤٢٧) . وكإحدى نتائج هذه الكرامة يأتى واجب الإنسانية أو العيش الاجتماعى، فبينما يرى أرسطو أن الناس يجب أن يعيشوا معاً لأنهم ضعفاء، ولا يستطيعون أن يحيوا بمفردهم ، يرى لاكتانتيوس أن اجتماعية الإنسان شئ جوهرى لطبيعة

الإنسان نفسها، بمعنى أننا يجب أن نعيش سوياً بسبب إنسانيتنا، وهناك نتيجة أخرى لكرامة الإنسان هى المساواة بين جميع الناس ، وبالطبع لا تنكر مثل هذه المساواة وجود الطبقات الاجتماعية، أو الاختلافات المادية، فالشر لا يكمن فى وجود الطبقات الاجتماعية أو التفاوت المادى، بل فى الافتقار للروح الاجتماعية أو الوعى بين الناس. وأخيراً فإن لاكتانتيوس يرفض بقوة نوع الشيوعية الذى اقترحه أفلاطون ويدافع عن حق الملكية الخاصة .

المبادئ المقدسة

(شيوعية أفلاطون وحق الملكية الخاصة)

٣ ـ ٢١ ـ وبناء عليه ـ متأثراً بتعاليم سقراط ـ لم يشك أفلاطون أن قوة العدل تكمن فى الإنصاف إذا كان حقاً أن الجميع ولدوا فى حالة متساوية، وهو يقول : " لذلك لا تدعهم يملكون أى شئ خاص أو شخصى ، ولكن ليتساوى الجميع كما يقتضى نظام العدل، دعهم يشتركون فى ملكيه كل الأشياء " (الجمهورية ٤١٦). يمكن أن يقبل هذا كله فيما يتعلق بالأموال مع أننى استطعت أن أبينّ بأكثر من طريقة أن هذا نفسه مستحيل وغير عادل، ومع هذا دعونا نسلم جدلاً أن هذا محتمل لأن كل الناس حكماء ويحتقرون المال ، فإلى أين إذاً قادته فكرة الجماعية هذه ؟ " الزيجات أيضاً يجب أن تكون مشتركة " (Ibid 457 c) هذا هو ما قاله، قاصداً أن أكثر من رجل ـ كما لو كانوا كلاباً ـ يستطيعون أن يمتلكوا نفس المرأة، وأنا أعتقد أنه من بينهم يستطيع أن يفوز بالجائزة التى انتصر عليها بقوته أو إذا كانوا جميعهم يتحلون بالصبر مثل الفلاسفة، وينتظرون دورهم كما لو كانوا يذهبون إلى بيت دعارة. يا لها من مساواة رائعة عند أفلاطون ! ولكن أين فضيلة الطهارة ؟ أين الإخلاص فى الزواج ؟ أنت إذاً أنكرت هذا، وبالتالى فسوف لا يبقى أى معنى للعدل .

٢٢ ـ وعلى هذا فإنه يبدو بوضوح أن هذا الشكل من جماعية الزوجات ما هو إلا خليط شديد البشاعة من الشهوة والزنا . ولاقتلاع هذا بالكامل تتضح ضرورة الفضيلة على وجه خاص، ولم يعثر أفلاطون على الانسجام الذى ينشده لأنه لم يعرف من أين يأتى، لأن العدل

لا يمكن أن يوجد فى الأشياء الخارجية ولا يمكن أن يكون فى الجسد بل فى قلب الإنسان. فالذى يرغب إذاً فى أن يجعل الناس متساويين يجب عليه أن يحظر ليس الزواج أو الممتلكات بل الغطرسة والكبرياء والتفاخر، حتى يعرف الأقوياء والنبلاء أنهم مساوون لأكثر الناس فقراً ،لأنه عندما تنزع العجرفة والظلم من الثروة فلن يهم إذاً سواء كان البعض أغنياء والبعض فقراء ، لأن أرواحهم ستكون متساوية و لا يستطيع أى شئ آخر سوى دين الله أن يحقق هذه المساواة .

تشتمل الملكية الخاصة على الرذائل والفضائل، أما المشاركة الجماعية فلا تحمل إلا رخصة للرذائل ، ولا يقال فى الرجال الذين عندهم زوجات عديدة أكثر من أنهم مملوؤن شهوة وخلاعة ، وأيضاً المرأة التى يمتلكها رجال كثيرون لا يقال إنها زانية لأنه لا يوجد زواج معين، بل عاهرة و بنت هوى .

(جماعية الخيرات في العصر الذهبى)

٥٠ ، ٥ - (فى العصر الذهبى) من ذا الذى كان يقلق على حمايته الخاصة طالما أن العدل كان موجوداً و مزدهراً، حيث لا يقوم أى مرء بأية انتهاكات، أو يتآمر لتدمير آخر وحيث لا يوجد من يشتهى أى شئ ؟ لقد كانوا يفضلون أن يعيشوا بورع راضين بالقليل كما يروى شيشرون فى إحدي القصائد (Aratus ,Fragment 21) تماماً وفقاً لديننا «لم يكن من الملائم حتى أن يحددوا أو يقسموا الحقول بمقياس لأنهم كانوا يشتركون فى ملكية كل شئ » (Vergil , Georgics 1.126 - 127). وفى الحقيقة أعطي الله الأرض ليشترك كل الناس فى استخدامها، ولكى يتمتعوا سوياً بالأطايب التى تنتجها الأرض للجميع .

من الضرورة ألا يُفهم قول الشاعر هذا بأنه يقصد إلغاء الملكية الخاصة فى ذلك الوقت علي الإطلاق، ولكن الأحري بنا أن نفسره كعبارة شعرية توضح أن الناس الأوائل وصلوا لمرحلة من السخاء لدرجة أنهم كانوا لا يستثنوا الآخرين من الأرباح التى اكتسبوها لأنفسهم، وعندما يخلون إلى أنفسهم لم يفكروا في أى ثروة مخبأة بل كانوا يسمحون للفقراء بمشاركتهم فى ثمار أعمالهم .

(مصدرا العدل: التقوى والمساواة)

٥ ، ١٤ - مع أن العدل يشمل كل الفضائل إلا أنه يوجد اثنان من الفضائل أكثرها

أهمية ولا يمكن أن يتم نزعها أو فصلها عنه : التقوى و المساواة، لأن الإيمان والاعتدال والإنصاف والبراءة والاستقامة، وغيرها من الفضائل المشابهة يمكن أن توجد عند الذين لا يعرفون العدل ، سواء بالطبيعة أو بسبب تعليم الآباء ، فالرومان القدامى الذين اعتادوا أن يتفاخروا بالعدل إنما كانوا يتفاخروا بهذه الفضائل المستمدة منه والتى يمكن فصلها عنه كما قلت، ولكن التقوى والمساواة هما أوردة العدل ومصدره : فالأولى هى رأسه وأصله والثانية هى كل قوته ورشده .

التقوى لا تعدو عن كونها معرفة الله كما عرفها تريسمجيستس بمنتهى الرقة، فإذا كانت التقوى هى أن تعرف الله، وإذا كان ذلك أسمى أنواع المعرفة التى يمكن أن تكرس لها النفس، فلا يعرف العدل من لا يتمسك بدين الله ، أما الجزء الآخر من العدل فهو المساواة، ولا أعنى بالمساواة فضيلة الحكم السليم التى هى فى حد ذاتها جديرة بالثناء فى الإنسان العادل، ولكنى أعنى بها أن يعتبر المرء نفسه مساوياً للآخرين التى يسميها شيشرون "الاستواء " (Rep. 1.27.43) . فالله الذى يخلق ويعطى الحياة لكل الناس يريد أن يتساوى الجميع ، وهو يضعنا كلنا فى نفس ظروف الحياة ، ويجعلنا قادرين أن نكون حكماء ويعد الجميع بالخلود، ولم يستثن أحداً من الخيرات السماوية .. فمعه لا يوجد أسياد أو عبيد، لأنه إذا كان هو نفس الآب للجميع فكلنا أحرار نتمتع بحقوق متساوية ، ولا يوجد فقير مع الله باستثناء ذلك الذي ينقصه العدل. ولا يوجد غنى إلا من فعل أعمال الرحمة بسخاء، ولا يوجد أحد كامل إلا من نفذ كل النواميس .

(أساس وأصل الحياة الاجتماعية)

٦ ، ١٠ ـ تحدثت عما يجب أن نعطيه لله، والآن سأتحدث عما ينبغى أن يُعطَى للإنسان مع أن ما يُعطى للإنسان إنما يعطى لله حيث أن الإنسان هو صورة الله ، فأول أعمال البر تؤدى فيما يتعلق بالله، وثانيها ما له صلة بالإنسان. الأول يسمى الدين ، أما الثانى فيسمى الرحمة أو الإنسانية ، وهذه الأخيرة ما هى إلا فضيلة تناسب الذين يتصفون بالبر ويخدمون الله لأنها وحدها هى أساس الحياة المشتركة ، فالله لم يعط الذكاء للحيوانات لذلك جعلها آمنة من الأخطار والهجمات بالحماية الطبيعية، وفى نفس الوقت لأنه جعل الإنسان ضعيفاً وعرياناً أعطاه الذكاء ليعلمه الحكمة، وبالإضافة لذلك أعطاه حب التقوى كى يعامل

أخاه الإنسان برفق، ويحبه ويحافظ عليه ويدافع عنه ضد كل الأخطار . فالإنسانية إذاً هى أعظم وثاق يربط الناس بعضهم ببعض، وكل من يخالفها يجب أن يعامل كعاق أو كقاتل لأحد أقاربه .

وعلى ذلك فإن الذين يوقعون الأذى بالآخرين، والذين يفسدون ويعذبون ويقتلون، والذين يبيدون الآخرين بلا رحمة أو حق، هؤلاء يجب أن يُعتبروا كوحوش ضارية. ولأننا نرتبط برباط الإخوّة لذلك يعلمنا الله أن نفعل الخير دائماً وليس الشر، وهو بنفسه يخبرنا ماذا يعنى فعل الخير : أن نساعد المتضعين والتعساء، وأن نعطى الطعام للمحتاجين. ولأن الله رحيم فهو يريد أن يعيش كل الناس سوياً، وأن نرى طبيعتنا فى كل إنسان ، فنحن لا نستحق أن نتحرر من الأخطار إذا لم نساعد الآخرين، ولا نستحق المساعدة إذا حجبناها عن الآخرين .

(الإنسانية والشفقة)

٦ - ١١ - يجب علينا دائماً أن نمارس الإنسانية إذا أردنا أن نكون بشراً حقاً و ليس بالاسم فقط ، وإلا فماذا يتبقى من معنى لفضيلة الإنسانية إذا لم نحب إنساناً بسبب كونه إنساناً وله نفس طبيعتنا ؟ فالخلاف و الكراهية غير متوافقة مع طبيعة الإنسان، ومن ثم تتضح صحة قول شيشرون : « الإنسان الذى يتصرف وفقاً لطبيعته غير قادر على إيذاء إنسان آخر » (on Duties , 3.5.25) . وبما أن إيذاء إنسان ما شئ ضد الطبيعة، ففعل الخير معه إذاً يكون متفقاً مع الطبيعة الإنسانية، ومن لا يفعل ذلك يحرم نفسه من أهم ما يميز الإنسان، لأن واجب الإنسانية هو الإسراع لمساعدة الإنسان المحتاج والمحاط بالخطر.

(البر الكامل وأعمال الرحمة)

٦ - ١٢ هذا هو البر الكامل الذى تحدث عنه الفلاسفة و الذى يبقى على المجتمع الإنسانى أن يمارسه، هذا هو أعظم ثمار الغنى و أكثرها أصالة : ألا يستخدم المرء الثروة للمتعة الشخصية بل لصالح الكثيرين، و ليس لفائدته الحاضرة ولكن من أجل البر الذى يبقى وحده إلى الأبد . ومن ثم فمن الضرورى أن نفعل الخير بدون انتظار للربح المادى، بل يجب أن ننتظر المكافأة من الله وحده لأننا إن انتظرناها من الناس فلن يكون عملنا عندئذ

ممارسة لفضيلة الإنسانية بل صفقة من أجل الربح، و لن نكون أهلاً للمكافأة لأننا لم نعمل من أجل الآخرين بل من أجلنا نحن. ومع ذلك فإن هذا لا يعنى أن الإنسان الذى يعمل خيراً لآخر بدون أن ينتظر منه أى شئ لن يجنى أية منافع لأن الله سيكافئه ، فالله نفسه يعلمنا أنه إذا أعددنا وليمة يجب أن ندعو للعشاء أولئك الذين لا يستطيعون أن يدعوننا فى المقابل، لكى تكون أفعالنا مستمدة من الرحمة. ومع ذلك فيجب ألا يعتقد الإنسان أنه ممنوع من استضافة أصدقائه أو من فعل الخير لأقاربه، بل أحرى به أن يعرف أية أعمال هى أعمال بر حقيقية ، و هكذا فإنه من الملائم أن يختلط الإنسان بأقاربه وزملائه شريطة أن يفرق بين هذه الأعمال ذات الصلة بعلاقاتنا بزملائنا وبين تلك ذات الصلة بوصية الله والبر.

فتحرير الأسرى عمل عظيم ورائع من أعمال البر ، ومن ثم فمن المطلوب أن يرعى الأبرار الفقراء وأن يعتقوا الأسرى لأن من يفعلون ذلك يسمون أتقياء وعظماء حتى بين الظالمين ... وليس هناك أعظم من حماية الأطفال الفقراء والأرامل وإعالة من يحتاجون للمساعدة التى يصفها القانون الإلهى للجميع، فحتى القضاة يعتقدون أنهم يجب ان يقدموا تلك المساعدة، فهم يعتقدون أن مراكزهم الوظيفية تحتم عليهم القيام بهذه الأعمال ، لذلك يجاهدون لكى يساعدوهم ويعاملونهم بإنسانية .

وتعتبر رعاية المرضى الذين ليس لديهم أحد يساعدهم من أكثر أعمال الإنسانية نبلاً، ومن يفعل ذلك يقدم ذبيحة حية لله، وكل ما أعطاه لآخر فى هذا الزمان سيأخذه من الله فى الأبدية ، أما آخر وأعظم عمل من أعمال التقوى فهو دفن الغرباء والفقراء، وهذا العمل لم يذكره معلمو الفضائل والبر و لم يكن فى مقدورهم أن يروا ذلك لأنهم يقيسون كل الواجبات بمدى نفعها . إلا أننا لا نقول ما الذى ينبغى أن يتحمله الرجل العاقل، ولكن بالأحرى ما ينبغى أن يفعله ، ولذلك فنحن لا نتساءل عما إذا كان موضوع الدفن برمته مفيداً أم لا، ولكن حتى وإن كان ليس مفيداً كما يعتقدون ، لكنه واجب التنفيذ حتى وإن كان لسبب واحد فقط وأعنى به أن البعض يعتقدون أن هذا عمل صالح وإنسانى ، فالنية هنا هى التى حددت نوع العمل. وعلى هذا فإننا لن نسمح لصورة وصنعة الله أن تلقى كفريسة للوحوش و الطيور بل سنحافظ عليها .

٦، ١٣ ـ أول خطوة من خطوات البر هى الإحجام عن فعل الشر ، والثانية هى عدم

التحدث بالشر ، والثالثة عدم التفكير فى الشر. وكل من يأخذ الخطوة الأولى هو بار بدرجة كافية ، ومن يأخذ الخطوة الثانية هو فاضل كامل بالفعل لأنه لا يسقط فى الأعمال أو الكلمات. ولكن كل من يصل إلى الخطوة الثالثة يبدو بحق أنه قد وصل إلى صورة الله، لأن الطبيعة الإلهية لا تعترف بالشر الذى يلوث أفكارها وأفعالها وأقوالها ، لأنه حتى الأبرار القادرون على أن يمسكوا أنفسهم عن الأعمال الشريرة أحياناً ما تنتصر عليهم نقطة الضعف هذه، فإذا بهم ينطقون بعبارات شريرة عند الغضب، أو يشتهون فى أفكارهم منظر الأشياء المرغوبة .

(الإقراض بلا ربا)

٦ ، ١٨ ـ إذا أقرض شخص ما مالاً فيجب ألا يأخذ رباً حتى لا يخسر ميزة مساعدة الشخص المحتاج، وحتى لا يأخذ ما هو ليس له ، فيجب أن يكون راضياً بأن يأخذ ثانية ما أقرضه فقط، بل زيادة على ذلك يجب عليه أن يكون مستعداً أن يفقد شيئاً منه ليفعل الخير، فكل من يأخذ أكثر مما أعطى هو إنسان ظالم يزداد ثراء على حساب إعواز شخص آخر . ومن ناحية أخرى فالبار لا يضيع فرصة ليعمل عملاً من أعمال الرحمة، ولا يلوث نفسه بمظلمة من هذا النوع، فهو يستغنى عن ماله بطريقة ما وبدون أن يعانى من أى خسائر .

(ذكاء الإنسان وسلطانه على الكون)

٧ ، ٤١ ـ أعطى الله للحيوانات الأخرى التى ينقصها الذكاء غطاءً وحماية طبيعية، وأما للإنسان فتعويضاً عن كل هذه الهبات أعطاه الله العقل الذى هو هبة أكثر نبلاً، حيث يستخدمه الإنسان لسد كل احتياجاته .

والله بذلك اهتم بالإنسان من داخله وليس من خارجه مثل بقية الكائنات . حيث العقل الذكى الذى يساعده على التفرقة بين ما هو صالح وما هو ضار . وبذلك استحق الإنسان شرف مسئوليته عن الكون وكل الأشياء التى فيه ، لأنه وحده الذى يستطيع أن يعبر عن إعجابه بأعمال الله ... إذاً فالله العلى خلق كل الأشياء ليس لنفسه لأنه لا ينقصه شيئ ، لكن للإنسان حتي يستحدمها على نحو ملائم .

العصر الذهبى لأدب الآباء اليونان

غالباً ما يوصف القرنان الرابع و الخامس بالعصر الذهبى لأدب الآباء اليونان، فمع تحول قسطنطين إلى المسيحية أصبحت المسيحية ديانة مسموح بها لها المكانة الأولى، وفى النهاية أصبحت ديانة الدولة تحت حكم ثيودوسيس الأول . وهنا تحرر الكتّاب المسيحيون وكرّسوا مواهبهم ليس فقط من أجل الدفاع عن الكنيسة ضد الهجمات الوثنية، ولكن أيضاً لتطوير علم اللاهوت، فحدث استيعاب هام شامل لطرق التعليم والتربية الدنيوية، وظهر تخصص غير محدود للأشكال الأدبية والتقليدية، وجمع معظم الآباء بين التدريب اللاهوتى المختار والثقافة الإغريقية، مع تمييز كتاباتهم بالبلاغة الرائعة وأسلوب متمكن بعد أن تعلموا فى المدارس والأكاديميات القديمة .

سنتناول فى الفصلين القادمين ما يختص بالآباء اليونان، يعرض الفصل الأول الكتابات السياسية فيما يتعلق بالعلاقة بين الكنيسة والدولة، وأيضاً الكتابات الاجتماعية للآباء الكابادوكيين ، أما مدى أهمية التعليم الاجتماعى لفم الذهب فيتطلب دراسة منفصلة فى الفصل الرابع .

الجزء الأول

الكنيسة والدولة

يوسابيوس القيصرى (Eusebius of Caesarea)

يلقب يوسابيوس (٢٦٠ - ٣٤٠) أسقف قيصرية "بأبى تاريخ الكنيسة "، وكان رجلاً ذا معرفة واسعة ولكن أرثوذكسية مشكوك فيها، ولا سيما فيما يتعلق بالجدال حول أريان. إلا أن يوسابيوس كان مجتهداً لا يعرف التعب ، وفى كتاباته أظهر سعة مذهلة فى العلم، وتنوع رائع فى الاهتمامات : الكتاب المقدس ، التاريخ الوثنى والمسيحى، الأدب القديم، الفلسفة، الجغرافيا، الكرونولوجيا الفنية ، التفسير ، فقه اللغة والكتابات القديمة، ولكن مما لا شك فيه أن سبب شهرته الأساسى يكمن فى كتاباته التاريخية ولا سيما «التاريخ الإكليركى» ، « حياة قسطنطين » « وخطبة فى مدح قسطنطين » .

كان يوسابيوس أول أب من آباء الكنيسة يناقش باستفاضة العلاقة بين الكنيسة والدولة، وقد تأثرت نظريته بخصوص العلاقة بين هذين المجتمعين بصورة كبيرة بإعجابه غير المحدود بقسطنطين ، لذلك طور وجهة النظر التى تفيد بأنه طالما تحولت الإمبراطورية إلى المسيحية فإن المجتمعين يندمجان فى مجتمع مسيحى واحد على رأسه يأتى الإمبراطور. وهكذا وضع أساس ما يسمى بالقيصرية فى التطبيق وليس فى النظرية ، وعلى الرغم من معارضة أثناسيوس وغيره من الآباء الشرقيين لفكرة يوسابيوس دمج المجتمعَين وسيادة الإمبراطور فى مجال الدين ، إلا أن هذا التصور لاقى الدعم و التأييد الإمبراطورى إلى أن بلغ ذروته تحت حكم چستنيان العظيم الذى اعتبر نفسه "كإمبراطور كاهن " .

حياة قسطنطين

(قسطنطين كأسقف)

و من ثم فقد كان لكلامه ما يبرره حين قال ذات مرة بمناسبة استضافته لمجموعة من الأساقفه إنه « هو نفسه أسقف أيضاً » مخاطباً إياهم بالكلمات الآتية : « أنتم أساقفة وسلطانكم داخل الكنيسة ، أنا أيضاً أسقف رسمنى الله لأراقب أولئك الذين خارج الكنيسة » . وقد توافقت حقاً إجراءاته مع كلماته لأنه كان يرعى كل رعيته بعناية أسقفية، وينصحهم بكل ما أوتى من قوة لأن يحيوا حياة ورعة .

خطبته فى العيد الثلاثينى لقسطنطين

(Oration On The Tricennalia Of Constantine)

(كلمة الله والإمبراطور المسيحى)

٢ ـ ١ ، ٥ ـ يحكم بكلمة الله الوحيد لعصور ليس لها بداية ولا نهاية، وهو يحكم كشريك فى مملكة أبيه وإمبراطورنا الذى يحبه الكلمة، والذى يتلقى سلطته لسنوات طويلة ، وكما أن حافظ الكون يحكم السموات و الأرض كلها و المملكة السماوية وفقاً لمشيئة أبيه، كذلك أيضاً ـ وبنفس الطريقة ـ فإن إمبراطورنا الذى يحبه الله يحول الناس إلى رعية صالحة لمملكته، وذلك بأن يقدم الذين يحكمهم على الأرض لكلمة الله الوحيد المخلص . وكما أن مخلص الإنسانية يطرد بقوته الغير مرئية والسماوية ـ كراعٍ صالح ـ الوحوش الضارية بعيداً عن

قطيعه وصديقه الذى أنعم عليه بالنعمة السماوية، ويمنح النصرة على جميع أعدائه ، فإنه يُخضع ويهذب أعداء الحق المعلنين وفقاً لأعراف الحرب .

وكما أن الكلمة الموجود منذ الأزل، ومخلص كل الأشياء، يمنح الذين يتبعونه بذور الحكمة الحقيقية و الخلاص، فيجعلهم حكماء بحق، وفى نفس الوقت يساعدهم على فهم مملكة أبيهم، كذلك أيضاً فإن إمبراطورنا ، صديقه ، عندما يفسر كلمة الله إنما يهدف إلى دعوة كل الجنس البشرى لمعرفة الله منادياً بوضوح فى آذان الجميع، ومعلناً بصوت قوى قوانين الحق والصلاح لكل من يعيشون على الأرض ، وكما أن مخلص الكل يفتح مرة أخري أبواب مملكة أبيه أمام كل المسافرين إليها من هذا العالم، فإن إمبراطورنا مقتفياً هذا المثال السماوى وبعدما طهّر سلطانه الأرضى من كل خطأ، يدعو كل متعبد ورع مقدس إلى قصوره الإمبراطورية، راغباً بشدة أن ينقذ تلك السفينة الكبيرة التى عُين رباناً لها .

(عظمة الملكية)

٣ ، ٥ ، ٧ - وفى النهاية لكونه ممنوحاً شيئاً شبيه بالملكية السماوية فإنه يوجه نظره لأعلى، وينظم حكمه الأرضى وفقاً لنموذج هذا الأصل السماوى، شاعراً بقوة فى انسجامه مع ملكية الله، وهذا الانسجام يمنحه ملك الكل للإنسان وحده دون مخلوقات هذه الأرض ، لأنه وحده هو الخالق للسلطة الملكية والذى يأمر بأن يخضع الجميع لحكم واحد ، وبالتأكيد تفوق الملكية كل أشكال وصور الحكم الأخرى، لأن نقيضها وهو المساواة والديموقراطية فى السلطة لا يمكن وصفها إلا بالفوضى، ومن ثم يوجد إله واحد و ليس اثنان أو ثلاثة أو أكثر، لأننا لو أكدنا تعدد الآلهة فعندئذ ننكر وجود الله على الإطلاق ، يوجد ملك واحد وكلمته وناموسه الملكى واحد ، وهو قانون غير مُعبر عنه فى مقاطع أو كلمات، وغير مكتوب أو منحوت على ألواح ، فيكون بذلك عرضة لتداعيات الزمن ، بل الكلمة الحية الموجودة بذاتها الذى هو نفسه الله والذى يدير مملكة أبيه نيابة عن كل الذين يحكمهم والخاضعين لسلطانه.

(فضائل الإمبراطور المسيحى)

يشارك إمبراطورنا الذى ترعاه السماء حتى فى هذه الحياة الحاضرة هذا الرجاء (المملكة السماوية)، وهو الذى منحه الله الفضائل الفطرية وامتلأت روحه بتدفقات من نعمته وهو يستمد عقله من العقل الكلى (أى الكلمة) ، فهو حكيم باشتراكه فى الحكمة ، وهو

صالح باشتراكه فى كل ما هو صالح ، وهو بار لاشتراكه فى كل ما هو بار ، وهو متعقل لاشتراكه فى التعقل ، شجاع لمشاركته فى السلطة السماوية ، وهو يستحق بحق لقب الإمبراطور الذى شكّل روحه بالفضائل الملكية وفقاً لمستوى هذه المملكة السماوية .....

فليعلن إذاً إمبراطورنا بشهادة الحق نفسه كالوحيد الجدير باللقب ،العزيز لدى الملك المطلق نفسه، والذى هو فقط يتمتع بالحرية ، ليس هذا فحسب بل سيد بحق ،لأنه فوق مستوى شهوة الثروة وأعلى من الرغبة الجنسية ، منتصراً حتى على المباهج الطبيعية متحكماً فى الغضب ، والشهوة ولا تتحكم فيه ، فهو حقاً إمبراطور ويحمل لقباً متفقاً مع أعماله ، منتصراً فى الحق ، وانتصر فعلاً على تلك الرغبات التى تسيطر على باقى الناس ، والذى تكونت شخصيته على غرار النموذج المقدس للملك المطلق والذى يعكس عقله ـ كمرآة ـ بهاء فضائله .

ومن ثم فإن إمبراطورنا كاملاً فى تعقله ، صلاحه ، بره ، شجاعته ، ورعه، وتكريسه لله. وهو فقط فيلسوف بحق لأنه يعرف نفسه ، وندرك أن وفرة من النعم تغدق عليه من مصدر خارجى ، من السماء نفسها ، وهو يبين اللقب المهيب للسلطة المطلقة بعظمة ردائه، وهو فقط جدير بأن يرتدى الأرجوان الملكى الذى يناسبه تماماً .

خطبة مدح الإمبراطور قسطنطين

(إمبراطورية واحدة ، كنيسة واحدة ، سلطة واحدة)

..... قديماً كانت أمم الأرض و الجنس البشرى برمته موزعة فى حكومات ريفية ووطنية ومحلية خاضعة لمتلكات وولايات متعددة الأنواع، فكانت الحرب والصراع والحرمان من السلطان والأسر نتائج لهذا التنوع . وقد يعزى أصل هذه الأشياء إلى ضلال خطأ الشرك. ولكن حين قام الجسد المقدس للمسيح الذى هو وسيلة افتدائنا، دمرت قوة هذه الأرواح الشريرة فى الحال، فلم يعد هناك أشكال متعددة من الحكم أو الأعمال الاستبدادية والجمهوريات وحضارة المدن وما ينتج عن ذلك من تدمير للبلاد. وأُظهر إله واحد لكل الإنسانية، وفى نفس الوقت ظهرت وازدهرت قوة عامة وهى الإمبراطورية الرومانية . إلا أن الكراهية الثابتة والعنيدة لم تستأصل من بين الأمم .. ودمرت قوة مخلصنا الخارقة

الحكومات وآلهة الشياطين العديدة فى الحال وأعلنت لكل الناس ، اليونانيين والبربر فى كل أطراف الأرض، الملك المطلق لله نفسه. وفى غضون ذلك، وبعد أن أُزيل سبب الحكومات المتعددة حققت الإمبراطورية الرومانية غزواً سهلاً للأجزاء الباقية بهدف أن يتم بصورة أكمل ليشمل الغزو النهائى لأطراف العالم المسكون .....

وأُدين زيف خرافات الشيطان ، وأستؤصل الصراع المتواصل والكراهية المتبادلة بين الأمم، وفى نفس الوقت وُجد إله واحد وأُعلنت معرفة هذا الإله للجميع : فسادت إمبراطورية عامة واحدة، وقام الجنس البشرى بأكمله بعدما أخضع لقوة السلام والاتفاق المهيمنة بمعاملة الآخرين كإخوة، واستجابوا لمشاعر طبيعتهم الطيبة، وهكذا كأولاد اله و أب واحد وكأناس ينتمون لدين واحد وكأنه أم واحدة للجميع ، استقبلوا ورحبوا بعضهم ببعض بكلمات سلام، وهكذا طهر الله العالم كله كأسرة واحدة متحدة ومنظمة ، فاستطاع كل شخص أن يسافر بلا إعاقة حيثما ومتى يريد ، ويستطيع الناس أن يسافروا بأمان من الغرب للشرق ومن الشرق للغرب ، وباختصار تحقق الوحى القديم ونبوءات الأنبياء : « فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » .

هوسيوس من قرطبة (Hosius of Cordova)

اكتسب هوسيوس (٢٥٦ ـ ٣٥٧)، أسقف قرطبة ، اسم أثناسيوس الغرب، لأنه كان أحد المدافعين الرئيسيين ، سواء بالكلمة أم بالفعل عن مجمع نيقية فى الغرب. وفى عام ٣٥٤ أو ٣٥٥ حين بلغ المائة تقريباً كتب خطاباً معتدلاً وشجاعاً فى نفس الوقت إلى قنسطنطينوس معترضاً على تدخله فى شئون الكنيسة مدافعاً عن آريوس و مهاجماً أثناسيوس .

تاريخ أتباع أريوس (كتبة أثناسيوس)

(الفصل بين السلطتين)

.... أتوسل إليكم، توقفوا عن هذه الأنشطة ، تذكروا أنكم غير مخلدين، وخافوا من يوم الدينونة واحتفظوا بطهارة أنفسكم واضعين عينكم على هذا اليوم ، لا تتدخلوا فى الموضوعات الإكليريكية ولا تعطونا الأوامر فيما يتعلق بهذه المسائل، بل تعلموها منا نحن ،

لأن الله استودع الملكة فى أيديكم ، أما شئون الكنيسة فقد حملنا نحن مسئوليتها ، فإذا اغتصب أحدهم الإمبراطورية منكم فهو بذلك يقاوم أمر الله ، وبنفس الطريقة يجب أن تخافوا خشية أن تتحملوا وزراً عظيماً إذا أنتم أخذتم على عاتقكم حكم الكنيسة « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ». فنحن غير مسموح لنا أن نمارس الحكم الأرضى وهكذا أنتم أيضاً يا مولاى غير مصرح لكم بحرق البخور.

الجزء الثانى

الآباء الكابادوكيون (The Cappadocian Fathers)

باسليوس الكبير (Basil the Great)

اكتسب بازل (٣٣٠ ـ ٣٧٩) أحد الثلاثة الكابادوكيين لقب "الكبير " وذلك بسبب مؤهلاته الرائعة كرجل دولة ، ومنظم اكليركى، وكمفسر عظيم للعقيدة المسيحية ، وكأحد آباء الرهبنة الشرقية ، وكمصلح للطقوس الدينية ، وكمناضل اجتماعى قوى .

وتعاليم باسليوس الاجتماعية هامة على وجه خاص لأنها تناقش مباشرة الطبيعة الاجتماعية للإنسان، وطبيعة الملكية الخاصة، والثروة ، فهو يكرر فى مواضع عديدة فكرة أن الإنسان حيوان سياسى واجتماعى، وليس وحشاً ضارياً منزوياً غير قادر على إشباع احتياجاته بمفرده . وبالنسبة لباسليوس فإن أساس اجتماعية الإنسان هو طبيعته نفسها، ليس ببساطة لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بمفرده ولكن لأن بداخله ميلاً لأن يعيش مع أخيه الإنسان ويحبه.

وفى كتاب " القواعد المطولة " يجيب رداً على سؤال إذا كان من الأفضل للرهبان أن يعيشوا فى عزلة أم فى المجتمع، ويقول إن حياة الرهبنة فى المجتمع أفضل من حياة الرهبنة فى عزلة، والأسباب هى : فى الحياة المنعزلة تصبح الأشياء التى فى متناول اليد لا قيمة لها، والأشياء الناقصة لا يمكن أن تشبع ، وتقود الحياة المنعزلة للأنانية والبحث عن الذات ، وفى الحياة المنعزلة لا توجد فرص للإصلاح المتبادل. أما الحياة المشتركة فتوجد

فيها فرص أفضل للمشاركة وفعل الأعمال الصالحة . يشدّد باسليوس أكثر من أى أب آخر حتى الآن على الهدف الاجتماعى للثروة والحدود والوظيفة الاجتماعية لحق الملكية الخاصة وواجب مشاركة ممتلكات الإنسان، وينتقد الأغنياء بشدة لافتقارهم للوعى الاجتماعى ويدين الإقراض بالربا، ويصر على المشاركة كالتزام للعدالة الاجتماعية، وبالنسبة له فهو يرى أن الثروة يجب أن تكون مشتركة : « فكما أن النهر الكبير يتدفق فى الآلاف من القنوات فى الأرض الخصبة هكذا أيضاً اجعل ثروتك تجرى فى قنوات عديدة إلى بيوت الفقراء ، فالآبار التى تسحب منها المياه تتدفق أفضل، أما إذا لم تستخدم فهى تعطب. وبعض الأموال الثابتة المتروكة لا قيمة لها، أما إذا تحركت وتناقلتها الأيادى فهى تساعد المجتمع وتجلب المزيد » (عظة على "سأهدم مخازنى ") .أما بالنسبة لحق الملكية الخاصة فإن باسليوس لا يعتبره حقاً مطلقاً، بل هى وكالة وإشراف على الممتلكات المادية للمرء لصالح الجميع : "تذكر نفسك ، من أنت وما أنت أمين عليه وممن تلقيته، ولمَ فُضِلت على الجميع ، لقد جُعلت كاهناً لإله رؤوف ووكيلاً على خدمك " (Ibid , 2) .

(جشع الأغنياء)

عظة ٧ ، ٢ - يختلف طعام الأسماك وفقاً لأنواعها ، فبعضها يتغذى على الوحل، والبعض الآخر يأكل العشب البحرى، والبعض الآخر يكتفى بالنباتات التى تنمو فى الماء، إلا أن معظمها يلتهم بعضها البعض، والصغير منها يعتبر غذاءً للكبير. وإذا تصادف أن أكلت سمكةٌ سمكةً أخرى وكانت الأخيرة قد أكلت ثالثة فإن السمكة الأولي تكون قد ابتلعت سمكتين. ألا نفعل مثلها نحن البشر حين نظلم الذين هم أقل منا ؟ ما الفرق إذاً بين السمكة الأخيرة والإنسان حين يسوقه طمعه فيبتلع الضعيف فى معدة جشعه التى لا تعرف إشباعاً ؟ فإذا استولى أحدهم على ما يخص الفقير وأمسكت أنت به وجعلته جزءاً من ثروتك تكون بذلك أكثر ظلماً من الظالم وأكثر بخلاً من البخيل . انتبه ألا تكون نهايتك مثل نهاية السمكة فى سنارة أو شبكة، فنحن أيضاً لن ننجو من العقاب فى النهاية عندما نعمل أعمال الأشرار .

عظات على المزامير
(مشاركة مقتنياتنا مع الآخرين)
مزمور ١٤ ، عظة ١ ، ٦

« من يسألك فاعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده » (متى ٥ : ٤٢) .

يدعونا قول الرب هذا إلى أن نتبنى روح المشاركة و المحبة المتبادلة، وكل ما هو متفق مع طبيعتنا ، فالإنسان حيوان سياسى واجتماعى ومن ثَم ففى العلاقات الاجتماعية والحياة المشتركة يتضح ضرورة ميل المرء لمشاركة ممتلكاته فى مساعدة المحتاجين " من سألك فاعطه " فالرب يطلب منا أن نكون مستعدين لأن نعطى من يسألوننا لأجل الخير وأن نفكر فى احتياج كل واحد يسألنا بعقل "

نعرف من أعمال الرسل كيف كان يتم تنفيذ هذا من جانب أولئك الذين يحققون أهداف الدين : « إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج » (اعمال ٤ : ٣٤ و ٣٥)، يوجد كثيرون يستخدمون أكثر مما هو ضرورى ، وهم يستغلون الفقير ويحولونه إلى فرصة للربح ومصدر للملذات المخزية، ومن ثم أولئك الذين يتولون مسئولية الفقراء يجب أن يشكلوا خزانة مشتركة ويوزعونها بإدارة حكيمة على كل واحد حسبما يكون احتياجه.

عظات على الاقراض بالربا
(من مزمور ١٥)
(فظاعة وظلم أخذ الربا)

حين يصف النبى الرجل الكامل الذى يقاسى خلال الحياة، يسرد المآثر العديدة الجديرة بالإنسان ويأتى من بينها حقيقة أنه لا يقرض أبداً أموالاً بربا . وفى عبارات كثيرة بالكتاب المقدس يُدان الإقراض بربا كعمل آثم، وهكذا يضع حزقيال أخذ الربا ضمن الشرور العظيمة (حزقيال ٢٢:١٢) . والناموس يُحرّمها بوضوح : " ولكن لأخيك لا تقرض بربا " (تثنية ٢٣:٢٠). وفى مكان آخر يقول: "علموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا فى الافتراء"

(إرميا ٥:٩) . وعن المدينة التى تزدهر على الخطية يقال فى المزمور : "مفاسد فى وسطها ولا يبرح من ساحتها ظلم وغش " عندما يوضح النبى علامة الكمال فى الإنسان يقول : "لم يقرض مالاً بربا". إنه لشئ شنيع حقاً أن يستجدى أحدهم الضروريات الأساسية لتبقيه على قيد الحياة، بينما يوجد آخرون لا يكتفون بما معهم من مال بل يستنبطون طرقاً لزيادة ثرواتهم على حساب الفقير الذى يعانى من المحن.

(المشاركة والإقراض بلا ربا)

انصتوا أيها الأغنياء للنصيحة التى نقدمها للفقراء بسبب فظاعتكم: «احتملوا أى نكبات أخرى ولكن ليس تلك التى تأتى بسبب الربا»، ولكن إن أطعتم الرب فلن تحتاجوا لمثل هذه النصيحة. والآن ماذا ينصح الرب؟ "اقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً" ولكنكم قد تقولون كيف يُسمى هذا "إقراضاً" إذا لم يكن هناك أمل فى السداد؟ حاولوا أن تتفهموا معنى قول الرب وستعجبون بعظمة هذا القانون لأنكم حين تعطون الفقراء بدافع محبتكم لله فإن هذا الشئ نفسه يكون عطية وقرضاً، فهو عطية لأنه لا يوجد أمل فى أى شئ فى المقابل، وهو قرض لأن الرب سيكافئكم بسخاء من خلال الفقراء، وبسبب هذا الشئ التافه الضئيل الذى أعطيتموه لهم فإنكم ستأخذون مبالغ ضخمة فى المقابل.

وهكذا " فإن من يرحم الفقير يقرض الرب" (أمثال ١٧:١٩) . ألا تعتبر أنت أن رب هذا الكون هو المدين الذى يسدد ما عليك، أتقبل ضمان أحد الأغنياء فى المدينة الذى يضمن سداد الآخرين ولاتقبل ضمان الله الذى يعطى بسخاء من خلال الفقراء؟! اعط من مالك ولا تحمله بربا ، وستكون أنت ومدينك على ما يرام ، فأموالك ستكون فى أمان أما الآخر الذى يقترض منك سوف يستفيد من استخدام المال . أما إذا كنت تبحث عن الفائدة فاكتف بما يعطيه الرب لأنه سيدفع الربا المستحق من خلال الفقراء لأنه شئ عظيم أن تنتظر السداد من ذلك الذى يحب الإنسان حقاً. فأنت إذا أخذت من الفقراء ترتكب بذلك أكثر الجرائم فظاعة، إنك تربح من وراء الشقاء، تكتسب مالاً من وراء الدموع، تظلم المحتاجين وتميت الجوعى، ليس عندك رحمة ، فأنت لاتدرك الصلة التى تربطك مع أولئك الذين يعانون، ومع هذا تسمى الأرباح التى تحصل عليها أعمالاً إنسانية!! "ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً، الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً الجاعلين المر حلواً والحلو مراً" (إشعياء ٢٠:٥). وأولئك الذين يسمون كراهية الإنسان إنسانية.

عظة على " سأهدم مخازني "

(إغراء الأغنياء من خلال الرخاء)

١ ـ يوجد نوعان من الإغراءات، توجد بعض الآلام التي تختبر قلوب البشر وهي تشبه اختبار الذهب في البوتقة الذي تختبر معدنه بالصبر ، ولكن في بعض الأحيان ـ كما هو حادث فعلاً مع كثيرين ـ يصبح رخاء الحياة نفسه نوعاً من الإغراء، فعندما تسوء الأمور من الصعب ألا نقنط، أما إذا سارت على نحو جيد فإن الصعوبة هنا تظهر في عدم القدرة على تفادي الكبرياء . ونرى أول أنواع الإغراءات هذه في أيوب، ذلك البطل العظيم الذي لا يُقهر، فقد نزل عليه عنف الشيطان كالسيل إلا أنه قابله بقلب غير مرتجف وبعزم مُوحّد، فكلما ازدادت قبضة عدوه اقتراباً وشراسة كلما ازدادت عظمة انتصاره على إغراءاته. ومن بين الأمثلة على ذلك ـ هذا النص الذي يتكلم عن الغني، فقد كانت لديه ثروة بالفعل إلا أنه كان يتطلع للمزيد، والله برحمته لم يدنه في الحال لعدم شكره، بل أضاف ثروة على ثروته كي يجعله يكلّ من الكثرة فيحرك روحه تجاه الكرم والمشاركة. يقول الإنجيل: "إنسان غني أخصبت كورته ففكر في نفسه قائلاً ماذا أعمل، أهدم مخازني وأبني أعظم منها. لمَ تركت الأرض تؤتي بالكثير إذا لم يكن الرجل ينوي استخدام هذا على نحو صالح؟ والجواب هو حتى تتضح أناة الله أكثر وأكثر، وهو صالح حتى لمثل هذا الإنسان " فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين" (متى ٥:٤٥). ولكن صلاح الله يوقع عقاباً أكبر على الأشرار، فهو يمطر على الأرض مع أن أياد جشعة تفلحها، وهو يشرق شمسه لتدفئ البذور فيتضاعف المحصول بالإخصاب، فمن عند الله إذاً تأتي هذه الأشياء : تربة مناسبة، مناخ معتدل، بذور وفيرة ، وثور للعمل وكل ما تحتاجه الزراعة وتعتمد عليه. وماذا يقدم الإنسان من جانبه؟ فظاظة وقسوة وأنانية، هذا كان رده على من يُحسن إليه، فهو لم يفكر أبداً أن الآخرين بشر مثله تماماً، ولم ير أن من واجبه أن يوزع من فيضه على الذين يحتاجون، ولم يبال بالوصية القائلة : " لاتمنع الخير عن أهله " (أمثال ٣ :٢٧) أو: "لا تدع الرحمة والحق يتركانك" أو :" أن تكسر للجائع خبزك " (إشيعاء ٧:٢٨) .

(طمع واضطراب الغني الجشع)

صرخ كل الأنبياء والمعلمين ولم يسمع لهم، تهاوت مخازنه من ضغط المحصول المخزون

إلا أن القلب البخيل لم يشبع، فقد كان يضيف باستمرار مخازناً جديدة للقديمة وانتفخت كثرته بزيادة كل عام، فأتى أخيراً إلى الطريق التى لا رجاء فيها حيث منعه طمعه من أن يخرج القديم ولم يوجد لديه مكان لتخزين الجديد فكانت خططه غير مجدية "ماذا أستطيع أن أفعل" ياله من مخلوق بائس! ويالها من محنة تلك التى يحيا فيها إنسان بائس رغم الرخاء الذى يحيا فيه، فهو يستحق الرثاء على ما لديه من ثروة ويزداد استحقاقه للرثاء على ما ينتظره من زيادة فى الثروة. فالأرض التى تجلب له خيراً حملت له نواحاً ، وبدلاً من المحصول الوفير حصدت له آلام وهموم ويأس تام، فهو يشكو كما يشكو الفقراء، ألا ينطق الفقير المعدم نفس هذه الكلمات؟ "ماذا أستطيع أن أفعل" "من أين لى بالطعام والكساء؟". هذه أيضاً كلمات الغنى، روحه محطمة يفترسها القلق، والذى يُبهج الآخرين يُحزن البخيل، فهو لا يبهجه أن تمتلئ مخازنه من الداخل، وقلبه يتوجع من تدفق الثروة خشية أن تصل للناس فى الخارج وتساعد فى التخفيف عن المعوزين.

(الغنى هو الأمين على خيرات الله)

٢ ـ إن آلامه أصعب من آلام الانسان الشره الذى يفضّل الانفجار من الوفرة بدلاً من أن يعطى للفقراء مجرد الفتات الساقط من مائدته. تذكر أيها الإنسان من يعطيك هذه الخيرات، وتذكر نفسك، من أنت ولمَ فُضلت على الآخرين، لقد جُعلت كاهناً لإله رؤوف، أميناً على خادميك، فلا تعتقد إذاً أن كل هذه الأشياء إنما قُدمت لمعدتك، فالثروة التى تديرها تخص الآخرين واعلم أنها لن تبهجك طويلاً فسرعان ما تنسحب منك وتذهب، وعندئذ ستكون مطالباً أن تعطى حساباً دقيقاً عنها،أما إذا وضعتها خلف الأبواب وخبأتها، فالتفكير فيها يؤرق لياليك ويشغل تفكيرك ويصبح موضوع حوارك مع نفسك هو مالك ومشاكله . ياك من أحمق فبدلاً من أن تقول "ماذا أفعل؟ تقول : "سأملأ بطون الجوعى، سأفتح مخازنى وأدعو كل الفقراء، سأكون مثل يوسف فى دعواته الخيرية، سأتحدث بكلمات السخاء "يا كل الذين تحتاجون خبزاً، تعالوا إلىّ وأنا أعطيكم من غنى فيض الله الذى يتدفق للجميع".إلا أن هذه ليست طريقتك، فأنت تحسد الناس على ما عندهم، من كفاية ، وتبتدع خططاً شريرة داخل روحك، وأنت لاتهتم بأن توزع على كل واحد حسبما يكون احتياجه، بل تهتم بكيف تحصل على كل شئ لنفسك وكيف تمنع الآخرين من استخدامه.

هكذا تحدث الغنى مع نفسه عن الطعام ويجانبه من يطلبون روحه ، وهكذا تخيل المتع التى سيحصل عليها لسنين عديدة وفى تلك الليلة نفسها قُبضت روحه، بعد أن أخذ الفرصة بأن يزن الموضوع برمته ، وسمح له بالتعبير عن قراره كى يتلقى الدينونة التى تلائم هذا القرار.

(الوظيفة الاجتماعية للثروة)

٣ ـ يا من تستمع إلىّ تأكد من ألا تسلك نفس السبيل، فهذه الأشياء إنما كُتبت كيلا تسلك هذا الطريق. كن كالأرض، اثمر كما تثمر، أتكون مكانتك الإنسانية أقل شأناً من شئ لا حياة فيه؟ فالأرض تؤتى ثمارها ليس لذاتها ولكن لخدمتك أنت، وتستطيع أنت أن تحصد لنفسك ثمار الكرم لأن مكافأة الأعمال الصالحة ترجع الذين يؤدونها، فأنت إن أعطيت الجوعى تصبح العطية ملكاً لك وتعود عليك بما هو أكثر، فكما أن القمح الذى يسقط على الأرض يتحول إلى ربح للإنسان الذى تركه يسقط، هكذا أيضاً الحبوب التى تغدق بها على الجوعى تجلب لك ربحاً مائة ضعف فيما بعد، اجعل نهاية الزراعة بداية لبذْر الحَبِّ السماوى. يقول الكتاب المقدس: "ازرعوا لأنفسكم بالبر" (هوشع ١٠:١٢) . لِم تقلق إذاً ولِم تعذب نفسك، لِم تحاول تخبئة ثروتك بالقرميد والملاط؟ "الصيت أفضل من الغنى العظيم" (أمثال ١:٢٢). أما إذا كنت تحب الغنى لما يجلبه من شرف فكّر إذاً أيها أكثر مجداً ـ أن تُدعى أباً لأولاد كثيرين أم يمتلئ كيسك بقطع الذهب، فإنك ستترك مالك وراءك سواء أردت أم لا، أما مجد الأعمال الصالحة فستحمله إلى سيدك حين يقف شعب بأكمله من حولك أمام الديان ويدعوك أباً لهم، ومحسناً، وكل الألقاب التى فزت بها بفعل الخير.

(مأساة الفقير الذى اضطر لبيع ابنه)

٤ ـ يبهجك وميض الذهب المتلألئ ، بينما أنت غافل عن نواح المحتاجين الذى يرتفع أثناء يقظتك، فكيف أستطيع أن أجعلك تشعر بما يعانيه الفقير؟ فهو يتجول بعينيه فى أنحاء المنزل فيرى أنه ليس له ذهب ولا أثاث ، ماذا إذاً؟ ماذا تبقى له ؟ ينظر إلى أبنائه ويفكر أنه قد يستطيع أن يدرأ الموت عن طريق بيعهم فى السوق، انظر إلى المعركة بين الموت جوعاً وبين الأبوة، فإحداهما تهدده بموت يدعو للرثاء ، والأخرى تمنعه وتأمره بأن يموت مع أولاده، يسير إلى الأمام مرات ومرات ثم يتوقف، ولكن ضغط الحاجة التى لا تعرف رحمة

يشتد عليه فيخضع فى النهاية. "ما هو الشئ الذى أبدأ فى بيعه ؟ما هو الشئ الذى يفرح به التاجر ؟ هل أختار الأكبر؟ إن له حقوقاً لا أستطيع أن أنتهكها. الصغير إذاً؟ لكنى أشفق على شبابه، إنه لم يعرف البؤس بعد، إنه صورة والديه الحية، وهذا الآخر بلغ سن المدرسة، ماذا أفعل؟ أأستطيع أن أنقلب ضد أى أحد منهم؟ أيمكن أن أصبح وحشاً قاسياً؟ أيمكن أن أنسى الطبيعة؟ أما إذا تمسكت بهم جميعهم سأراهم يموتون جوعاً، وإذا ضحيت بأحدهم فبأى وجه أنظر للآخرين؟ سيتهموننى بالخيانة فى الحال، فكيف أستطيع أن أعيش فى منزل تسببت فى أن يعانى اليتم؟ كيف أستطيع أن أجلس إلى المائدة عندما تكون هذه هى وسيلة ملئها؟"

يذهب الفقير دامعاً ليبيع ابنه الغالى، ولكن أنت لا تحس ببؤسه وليس لديك أية مشاعر إنسانية، هو فقير بائس يتضور جوعاً، وأنت لا تأخذ موقفاً واضحاً وتحوم حول الموضوع وتطيل آلامه، هو يعرض لحمه ودمه لكى يحيا، وأنت الذى كان ينبغى أن تُشل يدك نفسها عند استلام ثمن مثل هذا البؤس تساوم فى الصفقة محاولاً أن تعطى أقل مما تأخذ، وبكل طريقة تجعل حِمل المخلوق الفقير أثقل وأثقل، الدموع لا تحركك، والأنين لا يلين قلبك، أنت قاسى عديم الرحمة، كل شئ ما هو إلا ذهب لعينيك وخيالك، الذهب هو حلم ليلك وشغلك الشاغل، فكما أن المجنون الذى يهلوس لا يرى الأشياء نفسها بل يتخيلها فى خياله المريض، هكذا أيضاً روحك التى يسيطر عليها الطمع، ترى الذهب والفضة فى كل مكان. فمنظر الذهب أغلى عندك من منظر الشمس، وصلاتك هى أن يتحول كل شئ إلى ذهب وخططك هى كيف تحصل عليه..

(الغنى الذى لا يشرك الآخرين فى ممتلكاته يرتكب عملاً ظالما)

٧ـ قد تقول " أنا لا أظلم أحداً بل أتمسك بما أمتلك وهذا كل شئ". "ملكك ..!! "إنك تشبه إنساناً يأخذ مقعداً فى مسرح فيمنع كل الوافدين الجدد من شغله بعد ذلك مدعياً أن الكرسى ليس لاستخدام الجميع إنما يخصه هو. الأغنياء يفعلون هذا، إنهم يأخذون ما يخص الجميع ويدعون أن لهم الحق فى امتلاكه لاحتكاره. إذا أخذ كل فرد ما يكفيه لسد احتياجاته وأعطى الباقى للذين يحتاجونه فلن يوجد أغنياء وفقراء، ألم تأتى عرياناً من الرحم وألن تعود عرياناً مرة أخرى للأرض؟ من أين أتت الثروة التى تمتلكها الآن؟ إذا قلت

(لا مكان) فإنك تنكر الله وتتجاهل الخالق وأنت تنكر جميل المعطى، أما إذا اعترفت أنها من عند الله اخبرنا إذاً لِمَ تلقيتها، هل كان الله ظالماً حين وزع ضروريات الحياة بغير مساواة ؟ لما أنت غنى وغيرك فقير؟ بالتأكيد كى تحصل على مكافأة فعل الخير، والأمانة المخلصة، وجوائز الصبر النبيلة. وعلى الرغم من ذلك فإنك تخزن كل شئ فى أكياس الجشع التى لاتعرف إشباعاً، وتعتقد أنك لا تظلم أحداً مع أنك تحتال على كثيرين، من هو الإنسان الجشع ؟ إنه الذى لا تكفيه الكثرة ! ومن هو المحتال؟ إنه الذى يسلب ما يخص الجميع، أفلا تكون جشعاً ومحتالاً حين تحتفظ بما أعطيت لتوزيعه للاستخدام الخاص؟ حين يجرد أحدهم إنساناً من ثيابه ندعوه لصاً، ألا ينبغى أن يُعطى نفس اللقب للإنسان الذى يستطيع أن يكسو العريان ولا يفعل؟ الخبز الذى على مائدتك إنما يخص الجوعى، والرداء الذى فى خزانة ملابسك إنما يخص العريان، الحذاء الذى تتركه ليبلى إنما يخص حافى القدمين ، المال الذى فى جيبك إنما يخص المعدمين. إنك تظلم كل الذين تستطيع أن تساعدهم ولا تفعل.

العظة التى تُلقى فى أزمنة المجاعة والجفاف
(الظلم الاجتماعى هو سبب الكوارث التى يبتلينا بها الله)

٢ - نعلم أن الله يبتلينا بكل هذه الأوبئة لأننا انفصلنا عنه، وأهملنا فى خدمته وهو يفعل هذا ليقوّمنا وليس ليبيدنا، الرب يعمل كوالدينا الصالحين الذين يرعون مصلحة أولادهم، فقد يغضبون منهم ويعاقبونهم ليس لأنهم يرغبون فى إيذائهم بل لأنهم يرغبون فى تقويم إهمالهم فى الصغر، ويجذبونهم بعيداً عن سبل الخطية إلى طريق الفضيلة..

ما هو سبب تلك الفوضى وهذا الارتباك ؟ وما هى أسباب الظواهر الجديدة التى تبدو هذه الأيام؟ دعونا نفحص هذا طالما أن لدينا نعمة العقل، دعونا نتفهمه طالما أننا كائنات عاقلة ، هل لأنه لايوجد من يحكم الكون؟ هل لأن الله وهو أفضل الفنانين قد أهمل إدارته؟ هل لأنه فقد كل قوة وسلطة؟...

لا، إن السبب واضح وجلى: لأننا نأخذ ولا نعطى أحداً، نمتدح فعل الخير ولكن لا نمارسه مع المحتاجين، لقد كنا عبيداً فتحررنا، ومع هذا لا نتعاطف مع عبيد الله كما كنا نحن، فعندما تجوع نأكل إلا أننا نغمض أعيننا أمام المحتاجين، نحن لنا الله كمورد ومعين

لا ينضب، ومع هذا نبدو كبخلاء ومغلولى اليد تجاه الفقراء . أنجبت نعجاتنا الكثير من الصغار ومع هذا فإن عدد الفقراء يفوق عدد نعجاتنا. مخازننا ومستودعاتنا اكتظت بما نخزن فيها ومع هذا لا نتعاطف مع الذين يقاسون من ظروف حرجة، ولهذا فإن الحكم العادل ينتظرنا ، وإذا لم يفتح الله ذراعيه لنا فالسبب إننا تخلينا عن المحبة الأخوية.

(عدم المشاركة شبيه بالقتل)

إن ألم الجوع الذى يتسبب فى موت الجوعى لهو معاناة شنيعة، والمجاعة هى أهم كارثة من الكوارث البشرية، وأكثر أنوا ع الموت بؤساً هو بلا شك الموت جوعاً. ففى أنوا ع الموت الأخرى، يضع السيف نهاية سريعة للحياة ، وتحرق النار المستعرة عصارة الحياة فى بضع ثوان وتلتهم أنياب الوحوش أجزاء الإنسان الحساسة فلا تطيل العذاب . إلا أن الجوع عذاب بطئ يطيل أمد الألم، إنه عجز مختبئ فى مكانه، موت حاضر دائماً وليس له نهاية. إنه يجفف السوائل الطبيعية، ويضعف حرارة الجسم، ويقلص الحجم، ويمتص القوة شيئاً فشيئاً فيتعلق اللحم بالعظام كنسيج العنكبوت، وتخلو البشرة من كل لون، وتكون المعدة جوفاء، متقلصة، لاشكل لها، بلا وزن ، وبدون الامتداد الطبيعى للأحشاء، وتلتصق بعظام الظهر. والآن ما هو العقاب الذى يمكن أن يُوقع على الذى يمر بجانب هذا الجسم ؟ أى قسوة تفوق هذه ؟ كيف لا نحصيه مع أشد الوحوش ضراوة ، ونعتبره شخصاً دنساً قاتلاً ؟ فالشخص الذى باستطاعته أن يعالج هذا العجز ويرفض أن يقدم الدواء بسبب طمعه يجب أن يُدان كقاتل.

الأحكام المطولة

(الإنسان حيوان اجتماعى)

إجابة للسؤال الثالث ، من منا لا يعرف أن الإنسان إنما هو حيوان سياسى واجتماعى، ليس شرساً وليس محباً للعزلة ؟ ونحن نعيش فى مجتمع نعتمد فيه بعضنا على بعض ونحب جنسنا، وقد أعطانا الله نفسه بذور هذه الخصائص، وتوقع أن تثمر فى حينه لأنه قال: "وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا" (يوحنا ١٣:٣٤) .

(مميزات الحياة العامة عن الحياة المنعزلة)

أعتقد أن الحياة فى مجتمع مع عدد من الناس فى نفس المكان أفضل فى عدة نواح،

والأسباب هي: أولاً فيما يتعلق بالضروريات الجسدية لا نستطيع أن نكتفي بذاتنا، بل نحتاج بعضنا لبعض في الحصول عليها، فعلى سبيل المثال القدم لها نوع واحد من القوة ويعوزها نوع آخر، وبدون التعاون مع باقي أعضاء الجسد تجد نفسها غير قادرة على ممارسة أنشطتها بمفردها لأي فترة من الوقت، وهي أيضاً لا تمتلك أي وسيلة لتكمل ما ينقصها، وهذا ما يحدث مع من يحيا منعزلاً فيصبح في متناول اليد لا قيمة له ، وما ينتقص لا يمكن أن يُكمل لأن الله الخالق أمر أن نطلب المساعدة بعضنا من بعض..

ومرة أخرى ـ وبعيداً عن هذه الفكرة ـ فإن عقيدة المسيح في المحبة لا تسمح للمرء أن يكون مهتماً بمصلحته الخاصة فقط، يقول الرسول : "المحبة لاتطلب ما لنفسها"، ولكن الحياة التي تنقضي في عزلة تهتم فقط بالإشباع الخاص بالاحتياجات الفردية.. وإضافة لذلك فإن الشخص الذي يعيش في عزلة لن يعرف عيوبه على الفور ،لأنه لايوجد أحد يعاتبه أو يقومه باعتدال وحنو، وفي الواقع فإن العتاب ـ حتى من العدو ـ يخلق في الإنسان المتعقل رغبة في إصلاح النفس..

علاوة على ذلك فإن أغلبية الوصايا تطاع من خلال مجموعة أشخاص يعيشون معاً، ولكن ليس في حالة عيش المرء بمفرده لأنه بينما ينفذ إحدى الوصايا يُمنع من تنفيذ الأخرى. وعلى سبيل المثال فهو يزور المرضى لكنه لا يستطيع أن يكرم الغرباء، وعندما يعطي ويشارك في الضروريات لا يستطيع العناية بالمهام الأخرى، ونتيجة لهذا فإن أعظم الوصايا التي تقود للخلاص، لا يتم تنفيذها حيث لا يُطعم الجائع ولا يُكسى العريان .

القواعد القصيرة

(الملكية الخاصة واستخدامها)

سؤال ٩٢ : كيف تتأكد أن الرب يوصينا بأن نبيع ممتلكاتنا؟ لأي سبب نفعل هذا؟ هل لأنه يدين الممتلكات في حد ذاتها؟ أم لأنها تدمر النفس ؟

الإجابة: رداً على هذا السؤال نقول: **أولاً:** إذا كانت الممتلكات سيئة في حد ذاتها، فإن الله لا يمكن أن يكون خالقها بأي طريقة من الطرق "لأن كل خليقة الله جيدة ولايُرفض شئ" (١تيموثاوس ٤:٤).**ثانيا:** وصية الله لاتعلمنا أنه ينبغي أن نرفض ونتفادى الممتلكات كما لو

كانت سيئة بل ينبغي أن نديرها، والشخص الذى يُدان إنما يُدان ليس لأنه يمتلك أشياء بل لأنه يستخدمها على نحو سيئ، وهكذا فإن الممتلكات الأرضية غير مرفوضة إذا وجهتها إدارة حكيمة، فوصية الرب تطهرنا من خطايانا أولاً.. ، وتعطينا أن نربح ملكوت السموات ونقتنى الكنز الذى لاينضب ثانياً.

خطاب ٩٧ إلى مجلس تيانا (TYANA)
(ضرورة الصحبة)

أعلم جيداً إننى أحتاج مساعدة كل واحد من الإخوة أكثر ما تحتاج اليد لليد الأخرى، فالرب فى واقع الأمر من خلال تكويننا الجسدى علمنا ضرورة الصحبة، وعندما أنظر إلى أطرافى وأرى أن كل منها لا يستطيع أن يكتفى بذاته، فكيف أعتبر نفسى قادراً على تنفيذ واجبات الحياة؟ فإحدى القدمين لا تستطيع أن تمشى بأمان بمفردها وبدون مساعدة الأخرى ، ولا تستطيع العين الواحدة أن ترى جيداً لولا مساعدة الأخرى التى تنظر الأشياء فى اتحاد معها، يصبح السمع أكثر دقة عندما يتلقى الصوت من خلال القناتين، وإحكام القبضة يصير أكثر قوة عن طريق صحبة الأصابع، فكل ما يحدث نتيجة اتحاد الطبيعة والإرادة لن يتم إلا عندما تنسجم القوتان معاً. حتى الصلاة إذا لم تكن موحدة تفقد قوتها الطبيعية . وقال الله إنه سيكون فى وسط اثنين أو ثلاثة يدعونه فى انسجام.

جريجورى النازينزى Gregory of Nazianzus

سمى جريجورى النازينزى (٣٣٠ - ٣٩٠م) "ديموثينس المسيحى" بسبب قوة بلاغته، وكان جريجورى أحد الأصدقاء المقربين لباسليوس ، رسمه أبوه كاهناً، أما باسليوس فرسمه أسقفاً على ساسيما (Sasima) ، وأصبح فيما بعد أسقفًا للقسطنطينية ، ولم يكن كاتباً وفير الإنتاج، فقد ترك لنا مجموعة الخطب والقصائد والرسائل ، وهو أكثر الكتاب المسيحيين بلاغة فيما القرن الرابع سواء فى كتبه من شعر أو نثر .

من أكثر أعمال جريجورى ملائمة لموضوعنا هو حديثه الرابع عشر "فى محبة الفقراء" الذى ألقاه فى قيصرية فى عام ٣٧٣ تقريباً، وهو مثل باسليوس يعتبر الملكية الخاصة نوعاً من الإدارة ، ويؤكد على الالتزام الصارم فى المشاركة، وينتقد الأغنياء لافتقارهم للضمير

الاجتماعى، وهو يرى أن الشفقة أو الإنسانية إنما هى واجب يُستمد من حقيقة أننا نتشارك فى طبيعة إنسانية واحدة.

فى محبة الفقراء (١٤)

(أهم جزء فى المحبة هو محبة الفقراء)

٥ - والآن، مقتفين أثر بولس والمسيح نفسه، نؤكد أن المحبة هى أول وأعظم الوصايا وهى خلاصة كل القوانين والأنبياء(متى٢٢:٢٦). وأعتقد أن أهم جزء فى المحبة هو محبة الفقراء، والرحمة والشفقة تجاه إخواننا فى الإنسانية، فالرحمة هى أعظم ذبيحة يمكن أن تقدم إلى الله لأن الرحمة والأمانة تتقدمان أمام وجهه(مزمور٨٩ :١٥). ولأنه هو نفسه يطلب أن تُقدم الرحمة بدلاً من الدينونة. والله الذى يقيس بالعدل يضع الرحمة فى الميزان، ويجازى الرحمة برحمة.

(الشفقة تجاه كل المنكوبين بما فيهم المنبوذين)

ينبغى إذاً أن نفتح أبوابنا أمام كل الفقراء، وكل ضحايا الكوارث أيا كانت أسبابها لأنه قيل لنا أن نفرح مع الفرحين وأن نبكى مع الباكين (رومية ١٢:١٢). وحيث أننا كائنات بشرية يجب أن نسدد دين الخير الذى علينا تجاه إخواننا من البشر أيا كان سبب نكبتهم: سواء كان اليتم، أو النفى، أو قسوة السادة، أو تهور الذين يحكمون، أو ظلم جباة الضرائب، أو وحشية اللصوص المتعطشين للدماء، أو جشع السارقين، أو مصادرة الممتلكات أو الضياع، فكلهم متساوون فى البؤس ويتطلعون لأيدينا بنفس الطريقة التى نتطلع بها نحن إلى يدى الرب كلما وقفنا أمامه نعلن احتياجنا لشئ ما .

ومن بين هؤلاء المنكوبين من يعانون من كوارث لا يعرفون سببها ، فهم أكثر بؤساً من أولئك الذين اعتادوا على مواجهة الظروف السيئة وبصورة مستمرة بالفعل، ومع هذا يجب أن نرثى بوجه خاص لأولئك الذين يهاجمهم المرض البغيض الذى يلتهم لحمهم وعظامهم ونخاعهم وهو المرض الذى يعانى منه الخطاة كعقاب لهم ، كما ورد فى الكتاب المقدس (إشعياء ١٠:١٨) إذ تخونهم أجسادهم العليلة. وهذا هو الجسد الذى أتيت لأرتبط به ولا أدرى كيف أكون - بمثل هذا الجسد - صورة لله أو كيف أعود للتراب به. إنه - إن صح -

يحاربنى ، أما إذا حاربته أنا فإنه يمرض، أنا أحبه كرفيق ومع هذا أكرهه كعدو، أهرب منه كما أهرب من سجن ومع هذا أقدره كشريك فى ميراث، أنا عازم على تدميره ومع هذا فإنه معاونى الذى به أفعل أجمل الأشياء، إنه معاون يعرف لِمَ خُلق ويعرف أنه سيصعد لله بواسطة الأفعال.

(الشفقة ، قانون الطبيعة والمسيح)

ماذا نفعل نحن الذين ورثنا اسماً عظيماً وجديداً ، مأخوذاً من اسم المسيح نفسه، ونحن جنس مختار وكهنوت ملوكى وشعب اقتناء (١بطرس ٢: ٩). يفعل أعمالاً حسنة (تيطس ٢:١٤). نحن تلاميذ المسيح الرؤوف الرحيم الذى حمل أحزاننا (إشعياء ٥٣:٤)، الذى وضع نفسه لدرجة أنه تقمص طبيعتنا البشرية ، وجعل نفسه فقيراً ليكسو نفسه بجسدنا ، ويحيا فى هذه الخيمة الأرضية ، الذى تحمل الآلام والضعف لأجلنا حتى يغنينا بألوهيته، والآن نحن الذين لدينا هذا المثال فى الرحمة والشفقة فماذا نظن وماذا سنفعل مع هؤلاء الناس البائسين؟ هل ننظر إليهم من أعلى ونتجاوزهم كما لو كانوا موتى أو مبغضين كأكثر الثعابين والوحوش خطورة؟ لن يحدث هذا أبداً يا إخوتى، فنحن قطيع المسيح ولن يسمح الراعى الصالح لنا أن نفعل هذا، إنه يهتم بالضالين ويبحث عن المفقودين، ويقوى الضعفاء، ولن تسمح لنا كذلك طبيعتنا الإنسانية التى تنشر الشفقة كقانون، وتعلمنا أن نرحم ونعطف على الضعفاء.

(الضمير الاجتماعى والمشاركة)

ما هذا يا إخوتى وأصدقائى؟ لِمَ نحن مرضى فى الروح أيضاً وهو مرض أشد خطورة من مرض الجسد؟ أنتم تعرفون جيداً أن المرض الجسدى غير اختيارى، بينما المرض الروحى يأتى لنا لأننا نتطلع إليه ، أولهما ينتهى بحياتنا الحاضرة، أما الآخر فيصحبناعندما نغادر هذا العالم، أولهما يستحق الشفقة أما الآخر فيستحق الاحتقار على الأقل من جانب الأذكياء . لِمَ لا نساعد الطبيعة ونحن لايزال لدينا متسع من الوقت ؟ كيف نستطيع أن نتمتع بالملذات بينما يعانى إخواننا من الأزمات ؟ فليقنى الله من أن أصبح غنياً بينما هم فقراء، من أن أتمتع بالصحة القوية إن لم أحاول أن أشفى أمراضهم، ومن أن آكل أطيب الطعام وأرتدى أفضل الثياب وأستريح فى بيتى إن لم أشركهم فى كسرة من خبزى - بقدرما أستطيع - وأشركهم فى جزء من ثيابى وأرحب بهم فى بيتى.

(أصل الثروة ، الفقر والطمع)

دعونا نلاحظ أسمى وأول قوانين الله الذى يمطر على الأبرار والظالمين والذى تشرق شمسه على الجميع بالتساوى (متى ٤٥:٤). إنه قد بسط الأرض كلها لجميع الحيوانات بينابيعها وأنهارها وغاباتها، إنه يعطى الهواء للطيور، والماء للمخلوقات المائية، وأعطى للجميع عناصر الحياة الأساسية لتكون حرة من كل سلطان لا تتحكم فيها قوة قانون ولا تحجزها حدود ، فكل ضروريات الحياة هذه وضعها بوفرة، حتى لا يشعر أحد أنه يعوزه شئ، وبهذه الطريقة يكرم العطية كما يكرم الطبيعة، وفى نفس الوقت يعلن غنى جوده. لكن الإنسان لا يلبث أن يدفن الذهب أو الفضة أو الملابس المترفة غير الضرورية أو الأحجار المتلألئة أو أى شئ آخر فتظهر علامات الحرب والعصيان والطغيان، وترفع الحواجب ازدراءً، ويضنون بالرحمة على البائسين حتى لو كانوا أقرباءهم، وهم أيضاً لا يحاولون مساعدة المحتاجين حتى بما يفيض منهم.

على الأقل يجب أن يتفكروا فى أن الفقر والغنى، الحرية (كما نسميها نحن) والعبودية وغيرها من الأسماء المتشابهة التى عُرفت مؤخراً فى تاريخ البشرية كنوع من الأمراض العامة التى تلى الظلم واختراعاته، ولكن فى البدء لم يكن هكذا كما يقول الانجيل (متى ٨:١٩) فإن الذى خلق الإنسان فى البدءِ جعله حراً وأنعم عليه بحرية الاختيار ، خاضعاً فقط لقانونه، وجعله غنياً بمباهج الفردوس . وهو يهب نفس هذه الأشياء ويعطى نفس هذه النعمة لبقية الجنس البشرى لأنهم أتوا من الإنسان الأول الوحيد، فالحرية والغنى هما القانون الوحيد، أما الفقر الحقيقى والعبودية فهما انتهاك له.

لكن بعد أن أُبتليت الحياة بحسد ومشاكسة وطغيان مكر الحية، أغرت الملذات الناس أكثر وأكثر فقام الأقوياء ضد الضعفاء، تحطمت الأسرة الواحدة وانقسمت إلى جماعات متنوعة، فتفوق الطمع على ما كان من نبل فى الطبيعة فأصبح القانون مساعداً للقوة، ومع ذلك انظر إلى المساواة الأولية، وليس إلى التمييز الذى تلاها، وانظر إلى قانون الخالق ولكن ليس إلى قانون الأقوياء، قدم العون للطبيعة بقدر ما تستطيع، احترم الحرية، قدّر ذاتك، غطّى خزى أهلك، ساعد المرضى وقدم العون للمحتاجين.

أنت أيها القوى ساعد الضعيف، وأنت أيها الغنى ساعد الفقير، أنت يا من لم تتعثر أقم الذين سقطوا والمنكوبين، أنت أيها المملوء بالروح عزّ من خارت قواهم، أنت يا من تنعم بالرخاء ساعد الذين يعانون من الشدائد، وقدم الشكر لله لأنك من بين القادرين على فعل المعروف، وليس من بين المحتاجين للمعروف ، ولأنك لاتحتاج إلى أن تتطلع الى أيدى الآخرين بل يتطلع الآخرون ليديك. لا تكن غنياً فى ثروتك فقط بل كن غنياً فى برك أيضاً، وليس فى ذهبك فقط بل فى فضيلتك أيضاً، والأفضل أن تكون فى الأخيرة فقط..

(واجب الشفقة والمشاركة)

يشجعنا المسيح الذى يوصينا بأن نهتم بالفقراء، وقرار بطرس وبولس ومن معهما عندما قسموا أماكن التبشير بالإنجيل كرسوا أنفسهم للفقراء (غلاطية ٢:١٠). وحقيقة أن الرب عرّف ووضع أسس الكمال للشاب الغنى ، بإعطاء كل ما يمتلك للفقراء. هل تعتقد أن الرحمة تجاه قريبك ليست شيئاً ضرورياً بل باختيارك، ليست قانوناً بل نصيحة؟ كنت أعتقد وأتمنى أن تكون الرحمة كذلك، وعندئذ لا أخاف من إمكانية أن أُحصى ضمن الماعز التى على يسار الديان الذى يدينهم ، وهذا ليس بسبب أنهم سرقوا أو دنسوا المقدسات أو زنوا، وليس لأنهم فعلوا شيئاً مُحرّماً ، بل لأنهم لم يهتموا بالمسيح فى شخص الفقراء.

وختاماً يا خدام المسيح يا إخوتى وشركائى فى الميراث، إن أردتم أن تمتدحونى بينما لايزال هناك متسع من الوقت، دعونا نزور المسيح، دعونا نهتم بالمسيح، دعونا نطعم المسيح، دعونا نرحب بالمسيح، دعونا نمجد المسيح ليس فقط بدعوته على مائدتنا كما فعل بعضهم (لوقا ٧:٣٦)، ليس فقط بالطيب مثل مريم (يوحنا ١٢:٣)، ليس فقط بالدفن مثل يوسف الرامى ، وليس فقط بضروريات الدفن مثل نيقوديموس الذى أحب المسيح بفتور، وليس بالذهب واللبان والمر مثلما فعل المجوس ، فإن رب الكون يريد رحمة لا ذبيحة (متى ٩:١٣)، يريد كماً كبيراً من الشفقة لا آلافاً من حملان، فقدموها له إذاً من خلال الفقراء والذين انتشروا فى الأرض كى يستقبلوننا عندما نترك هذا العالم فى الحياة الأبدية مع نفس المسيح ربنا له المجد إلى الابدين . آمين.

جريجورى من نياسا Gregory of nyssa

كان جريجورى (٣٣٥ ـ ٣٩٤م) أسقف نياسا الشقيق الأصغر لباسيليوس، وهو أكثر الثلاثة الكابادوكيين (Cappadocians) موهبةً، كعالم لاهوت متأمل ومتصوف، وهو أيضاً مؤلف متعدد المواهب، وأكثرهم نجاحاً. أما كتاباته فتشمل أبحاثاً عقائدية وأعمالاً تفسيرية، وكراسات نسكية، والعديد من الأحاديث والرسائل.

وتعتبر الانثروبولوجيا (علم الإنسان) من أهم ركائز علم اللاهوت عند جريجورى، وبالنسبة له فإن الإنسان كما يقول الكتاب المقدس: صورة الله ومثاله، ومن ثم فهو يتمتع بأعلى كرامة بين المخلوقات الأرضية التى له عليها سلطان ونفوذ أعطاها الله له. والكرامة هى أساس الاحترام الواجب للكائنات البشرية فى الحياة الاجتماعية، وعلى هذا فهو يدين العبودية بصورة أساسية لأنها تتعارض مع حرية وكرامة الإنسان.

أما فيما يتعلق بحق الملكية ـ يصر جريجورى بقوة ـ أن الإنسان يتمتع بالطبيعة والمقدرة على تقرير مصير المخلوقات غير العاقلة، ومن ثم يقتنى الخيرات الوقتية. وما هذا إلا حق طبيعى لا يمكن أن يُنزع من الإنسان بدون رغبته. ومع هذا فإن جريجورى لايؤيد حق الملكية الكامل المطلق لأن قوة الله وحق الآخرين تحد هذا الحق. وهذا يعنى أن الملكية لها وظيفة اجتماعية. وفى النهاية يرى جريجورى أن التفاوتات الاجتماعية التى هى عواقب أنانية الإنسان وافتقاره للضمير الاجتماعى، إنما وجدت لتعطينا الفرصة لنشارك مقتنياتنا بعضنا مع بعض.

عظة على الإكليروس

(العبودية وكرامة الإنسان)

العظة الرابعة ـ "اشتريت عبيداً من النساء والرجال" أخبرنى كم تساوى حياتك، ما الذى وجدته بين المخلوقات له نفس قيمة طبيعتك البشرية؟ كم من السنتات دفعت لعقلك؟ كم من السنتات تساوى صورة الله فى نظرك؟ كم من القطع المعدنية دفعت نظير المخلوق الذى صنعه الله؟ قال الله "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" والآن أخبرنى من الذى يشترى، من الذى يبيع ذلك الشخص الذى هو صورة الله، من الذى يحكم الأرض بأسرها والذى

أخذ من الله السلطة على كل الكائنات التى على سطح الأرض لتكون له ميراثاً؟ إن مبرإطلاق السلطة تخص الله فقط أو أستطيع أن أقول إنها لاتخص حتى الله حيث يقول الرسول بولس "لأن هبات الله ودعوته هى بلا ندامة" (رومية ١١:٢٩). لا يفكر أحدكم إذاً أن الله يريد أن يجعلنا عبيداً مرة أخرى، لأننا وإن كنا عبيداً للخطية بإرادتنا دعانا هو مجدداً للحرية.

فى العظة على التطويبات
(الرحمة والنظام الاجتماعى)

العظة الخامسة - الآن ما هى الرحمة وإلى من نوجهها؟ وكيف يكون مباركاً ذلك الذى يعود عليه ما يعطيه؟ لأنه يقول "طوبى للرحماء لأنهم يرحمون".

والمعنى واضح لهذه الكلمات فهى دعوة الناس للمحبة المتبادلة والشفقة التى تتطلبها اللامساواة المتغيرة لظروف الحياة، فليس كل الناس تحيا فى نفس الظروف أو بنفس السمة أو التكوين البدنى أو غيرها من الصفات، فالحياة غالباً ما تقسم إلى أضداد ويمكن أن يقضى الإنسان حياته كعبد أو كسيد، فى فقر أو فى غنى، فى سمعة جيدة أو فى خزى، فى عجز جسدى أو فى صحة جيدة. فالتقسيم موجود فى كل الأشياء ، ولذلك فإن المخلوق الذى يحتاج ينبغى أن يكون مساوياً للذى عنده حصة أوفر، وذلك الذى ينقصه يجب أن يُسد نقصه من الذى عنده وفرة، فهذا هو القانون الذى تعطيه الرحمة للناس فيما يتعلق بالمحتاجين الرحمة ما هى إلا أساس اختيارى لما يقاسيه الآخرون من معاناة، الرحمة هى نزعة محبة تجاه الذين يتألمون، لأنه كما أن القسوة والوحشية مصدرها الكراهية هكذا أيضاً تنبع الرحمة من المحبة التى لا تستطيع أن توجد بدونها، الرحمة هى محبة مكثفة، ومن ثم فإن الإنسان الذى له مثل هذه الروح يكون مباركاً بحق لأنه وصل إلى قمة الفضيلة.

(مزايا الرحمة)

لا يعتقد أحدكم أن الفضيلة تتعلق بالأشياء المادية فقط وإلا سيكون فى مقدور الشخص الذى يمتلك الوسائل الضرورية لفعل الخير أن يعملها، لأنه يتراءى لى أنه من الأفضل أن نعتبر أن إرادة الإنسان قادرة على اختيار عمل هذه الفضيلة، لأنه إذا رغب المرء فقط فى

أن يفعل خيراً لكن قلة الوسائل منعته فهو لن يعانى الاحباط لأن نواياه تبين وتوضح ما يكمن فى نفسه. وعلى هذا فإننا لا نحتاج أن نفسر باستفاضة ما نحصل عليه فى حياتنا إذا فهمنا معنى السعادة بهذا الأسلوب، لأنه حتى بالنسبة لغير المتعلمين فإن مزايا هذه الفكرة واضحة تماماً، لأننا إذا اتخذنا هذا الموقف العقلى تجاه من هو أقل منا، فإنه لن يكون هناك فيض أو إعواز ولن تُعاش الحياة بطريقة متضادة تماماً، ولن يتألم الإنسان بسبب الإعواز، ولن تذله العبودية، ولن تخزيه أو تحزنه لأن كل الأشياء تصبح مشتركة للجميع ، ويحيا المرء فى مجتمع تتميز فيه المواطنة بالمساواة الكاملة أمام القانون ، لأن الشخص المسئول عن الحكم يصبح بمحض إرادته على نفس المستوى مع الآخرين.

(الرحمة كتعهد بالمحبة)

إذا وجدت الرحمة لن يكون هناك أى سبب للخصومة، فلن يوجد الحسد وتختفى الكراهية، وتُمحى ذكريات الجروح، وتختفى الأكاذيب والغش والحروب ، وكل ثمار الجشع ويحل محلها مجموعة كاملة من الأشياء الصالحة: - سلام وبر مع فضائل أخرى كثيرة لذلك فإن الرحمة هى أب الشفقة، وعهد الإحسان ورباط كل نزعة محبة.

محبة الفقراء

(الصوم والمشاركة)

يوجد نوع من الصوم غير الجسدى، إنه ضبط الذات الروحى وهو الامتناع عن الشر ، ولهذا السبب نفسه نمتنع عن الطعام، لذلك أقول لكم: صوموا عن فعل الشر، امنعوا الجشع ولا تحتفظوا بكنوز مسروقة ومخطوفة فى منازلكم، لأنه ما فائدة ألا تقرب اللحوم وتؤذى أخاك بفعل الشر؟ وما ميزة أن تمتنع عن ما هو ملكك وتنتزع بغير حق ما هو للفقير؟ وأين التقوى فى أن تشرب ماء ، وتكون متعطشاً للدماء وتنسج الغدر فى قلبك ؟ يهوذا نفسه صام مع الأحد عشر تلميذاً ولكن لأنه لم يكبح محبة المال داخله فلم يقدم له صومه طريق الخلاص .

إذا لم نحمل أنفسنا على عمل ما هو أفضل، يقول إشعياء لنا: "ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون ولتضربوا بلكمة الشر" (إشعياء ٥٨:٤) .

جدد إشعياء أيضاً أفعال الصوم الطاهر الحقيقى «حل قيود الشر فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير.. أليس أن تكسر للجائع خبزك ، وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك، إذا رأيت عرياناً أن تكسوه وألا تتغاضى عن لحمك» (إش ٥٨:٦-٧). لقد كثر العرايا والذين لا مأوى لهم فى هذه الأيام ، تقف جمهرة من الأسرى أمام أبواب الجميع، الغرباء والهاربون ليسوا بقليلين، وفى كل جانب يمكن رؤية أيديهم الممدودة بالسؤال، فبيوتهم هى العراء، ومنازلهم هى الممرات الضيقة والشوارع وجوانب الأسواق المهجورة، إنهم يختبئون فى الحفر مثل البوم وطيور الليل، ثيابهم أسمال بالية، وقوام عيشهم هو مشاعر الرحماء، وطعامهم هو أى شئ يلقيه العابرون، وشرابهم هو تلك الينابيع التى تشاركهم الوحوش إياها.. إنهم يحيون حياة غليظة مليئة بالتشرد، وهذا ليس بسبب العادة ولكن لأن الحاجة والمحنة هى سبب كل ذلك .

وهؤلاء هم الذين أوصيكم أنتم يا من تصومون بمساعدتهم .. كونوا أسخياء نحو هؤلاء، إخوتكم الذين يتألمون، اعطوا للجوعى ما تحرمون أنفسكم منه، تمسك بالإنسان المنكوب كما لو كان ذهباً، ضم بين ذراعيك الشخص الذى يعانى كما لو كنت تحافظ على صحتك ورفاهية زوجتك وأولادك وخدامك وكل منزلك.. فالفقير المريض يتضاعف إعوازه، لأن الذين ليس لديهم ما يقيم أودهم ولكن يتمتعون بصحة جيدة يستطيعون أن ينتقلوا من باب إلى باب يبحثون عن الأغنياء ، ويستطيعون أن يجلسوا فى مفارق الطرق يستجدون الوافدين. ولكن هؤلاء المقيدين بالمرض المحبوسين فى منزل ضيق أو ركن، مثل دانيال فى جب ينتظرونك أنت.. أنت أيها التقى صديق الفقراء لتكون حبقوق آخر لهم.

ولكنك ستقول : "أنا أيضاً فقير"، لنفترض جدلاً أنك كذلك، فمع ذلك أعط بقدر ما تستطيع لأن الله لا يطلب ما هو فوق قدراتك، فأنت تستطيع أن تعطى رغيفاً مثلاً ، وغيرك يقدم كأس خمر، وآخر يقدم ثياب، وهكذا قد تنتهى محنة أحدهم بهذه المساعدة المشتركة، موسى نفسه أخذ ما تحتاج إليه خيمة الاجتماع من كل الشعب وليس من متبرع واحد فقط، فمن عنده ذهب قدم ذهباً، وغيره قدم فضة، وأحد الفقراء قدم جلوداً، وأحدهم أكثر فقراً قدم شعر الماعز. فكّر أيضاً فى كيف أن فلسى الأرملة كانا أكثر مما قدمه الأغنياء لأنها أعطت كل ما تملك، أما هم فقد ألقوا بمقدار ضئيل مما يمتلكون.

(لا تحتقر الفقراء)

لا تحتقرهم فى اتضاعهم ولا تعتقد أن لا قيمة لهم، فكر فى من هم وستعرف كرامتهم، اتخذوا لنفسهم شخص مخلصنا لأنه ـ لرحمته ـ أقرضهم شخصه ليخجل عديمو الرحمة وكارهو الفقراء ، مثل الناس الذين يرفعون صورة إمبراطورهم ضد الذين يريدون إيذاءهم فيُخجلون بذلك محتقريهم بهذه الصورة . إن هؤلاء الفقراء هم الذين يكنزون الأشياء الصالحة التى نتطلع إليها، وحراس أبواب الملكة يفتحونها أمام الرحماء ويغلقونها فى وجه القساة، والذين لا يفعلون خيراً. إنهم أقوى من يتهمون وأفضل من يدافعون، إنهم لايتهمون أو يدافعون بالكلمات، ولكن الرب يرى ما يُفعل بهم، وكل فعل يصرخ بصوت أعلى من صوت المنادى أمام الله فاحص القلوب.الله نفسه هو خالق الإحسان، إنه المعطى الغنى السخى لكل ما نحتاج، ولكن نحن الذين يعلمنا كل مقطع فى الكتاب المقدس أن نحاكى ربنا وخالقنا بقدر ما يستطيع الفانى أن يقلد السماوى والخالد ، ننتزع كل شئ لمتعتنا فنحدد بعض الأشياء لأنفسنا لنحيا عليها، وندخر البقية لورثتنا. ونحن لأننا عديمى رحمة لا نهتم البتة بالتعساء ولانفكر فى الفقراء، فقد يرى إنسان أخاه الإنسان بلا خبز ليأكل وبلا طعام يقيم أوده، ومع هذا فبدلاً من أن يسرع لمعونته أو يهب لنجدته يتركه مثل نبات كان قوياً ذات يوم فذبل من عدم وفرة الماء. وقد يحدث هذا حتى لو كان لديه ثروة غامرة ويكون بمقدرته أن يدع قنوات وفرته تنساب لتريح كثيرين. فكما أن تدفق أحد منابع الأنهار يجلب الخصوبة لسهلٍ له فروع عديدة، هكذا أيضاً تستطيع ثروة أحد المنازل أن تبقى على العديد من الفقراء، هذا إذا لم يقع فى القلب المتذمر الخالى من المحبة صخرة تغلق الممر فتعوق النهر.

(الله يريد أن تكون لنا حصة متكافئة فى خبراته)

لذلك أنتم يا من خلقتم كائنات بشرية ، ممنوحين عقلاً لتفسير الأشياء السماوية، لا يغركم إذاً كل ما هو زائل بل جاهدوا للفوز بالأشياء التى لاتتخلى أبداً عن من يمسك بها، اكبحوا أنفسكم، لا تظنوا أن كل شئ ملك لكم بل ادخروا جزءاً لفقراء الله الأعزاء، لأن كل الأشياء إنما تخص الله الذى هو أبونا وأبوها، فنحن جميعاً من نفس النوع، كلنا إخوة، وعندما يكون كل الناس إخوة فإن أفضل الأشياء وأكثرها عدلاً هو أن يرثوا حصصاً

متكافئة ، وثانيها أنه حتى إذا أخذ واحد أو اثنين حصة أكبر ينبغى أن يأخذ الآخرون حصتهم على الأقل ، ولكن إن حاول أحدهم أن يكون المالك المطلق لكل شئ ويرفض أن يعطى إخوته ثلثاً أو خمساً فهو إذاً طاغية قاس وهمجى لا يمكن التعامل معه، ووحش لا يشبع ، يغلق فكيه بأنانية على وجبة لا يرغب أن يشاركه فيها أحد، أو بالحرى أكثر قسوة من أى وحش، فالذئب لا يمنع ذئباً آخر عن الفريسة، ومجموعة من الكلاب تمزق نفس الجثة، أما هذا الإنسان بجشعه غير المحدود لايسمح لإنسان آخر أن يشاركه فى ثروته.

(ابتعدوا عن الأشياء الأرضية وكونوا مستعدين)

دعونا نتفكر كمخلوقات عاقلة كيف أن حياتنا سريعة الزوال ، وكيف أنها مثل مياه نهر تتدفق بلا توقف أو بلا مقاومة حاملة معها كل شئ حتى النهاية، فهى لا تجلب أى ثبات أو أمان، وكم كنا نتمنى ألا تجلب أى حساب كذلك. ولكن الشئ الخطير هو أننا لكل ساعة نحياها ولكل كلمة ننطقها يجب أن نعد دفاعنا أمام محكمة عادلة. ولذلك يرغب صاحب المزامير المبارك حينما يفكر فى مثل هذه الأشياء فى معرفة الموعد المحدد لنهايته، ويتوسل إلى الله أن يعرف عدد أيامه الباقية ليعد نفسه للرحيل، ولا يرتبك فجأة كمسافر غير مستعد يبحث عن ضروريات الرحلة بعد أن انطلق على الطريق، لذلك فهو يقول: "عرفنى يارب نهايتى ومقدار أيامى كم هى فأعرف كيف أنا زائل هوذا جعلت أيامى أشباراً وعمرى كلا شئ قدامك" (مزمور ٣٩:٤ ـ ٥) .

انظر العناية الحكيمة للروح المتعقلة فهى تحيا بكرامة ملوكية، إنه يرى كما فى مرآة صورة ملك الملوك وقاضى القضاة، ويرغب أولاً فى أن ينظم حياته وفقاً لنموذج الوصايا الكامل، وعندئذ يترك مكانه هنا ليصبح مواطناً أصيلاً فى الحياة هناك، ونحن نتمنى أن نحصل بدورنا على هذا بنعمة ومحبة يسوع المسيح ربنا له المجد إلى أبد الآبدين.

القديس يوحنا كريسوستوم (ذهبى الفم)

يستحق يوحنا كريسوستوم فصلاً خاصاً بمفرده وذلك بسبب حجم كتاباته فيما يتعلق بالمسائل الاجتماعية، فحين يُجمع سيرا برافو النصوص الخاصة بآباء الكنيسة فيما يتعلق بالعقيدة الاجتماعية والاقتصادية فإنه يخصص أكثر من مائتى صفحة له.

(Doctrina Social Y Economica de los Patres de la Iglesia, PP. 369 - 535)

ولد يوحنا فم الذهب فى عام ٣٤٧م ورسمه فالفيان أسقف أنطاكية (Anticoh) كاهناً، وعينه ليولى اهتماماً خاصاً لخدمة الوعظ، وقد أدى هذه المهمة على خير وجه حتى أطلق عليه لقب كريسوستوم «ذهبى الفم». وبعد ذلك عين بطريركاً للقسطنطينية ضد رغبته فى ٣٩٨م فشرع على الفور فى إصلاح الحياة الأخلاقية والروحية للمدينة، وتميز يوحنا فم الذهب بالصراحة والتقشف وعدم اللباقة، بالإضافة إلى أن كرهه لثوفيلس بطريرك الإسكندرية والإمبراطورة ادوكسيا تسبب فى تدميره فخُلع من الأبروشية فى عام ٤٠٣م ولكن المحكمة أعادته بعد ذلك بقليل، إلا أن صراحته فى الكلام أغضبت الإمبراطورة ادوكسيا التى نجحت فى خلعه للمرة الثانية، ونفى بالقرب من مدينته الأصلية أنطاكية ثم فى النهاية إلى بنطس، ومات قبل أن يصل إليها فى عام ٤٠٧م.

ومع أن فم الذهب كتب بعض الرسائل فى موضوعات معينة (فى الكهنوت وحياة الرهبنة والبتولية والترمل الخ) ، إلا أن معظم أعماله عبارة عن عظات إما تفسيرية فى العهدين القديم والجديد أو عقائدية ("فى طبيعة الله غير المفهومة " و"التعليم الدينى عن المعمودية" و"ضد اليهود" الخ..) أو أخلاقية (لعازر وDives و "فى الصدقات" الخ،،) .

أما بالنسبة للتعليم الدينى يمكن أن يقال إن يوحنا فم الذهب هو أروع وأبلغ مفسر للموضوعات الهامة فى العقيدة الاجتماعية لآباء الكنيسة اليونانيين، ففى قلب فكره الاجتماعى يكمن المبدأ المزدوج الذى يقوى ويغذى الحياة المشتركة: المحبة التى تتجسد فى الشفقة والمشاركة والتكافل الذى يعبر عن نفسه فى الاعتماد المتبادل بين كافة الكائنات البشرية، وهو يرى أن وثق المحبة التى تربط الناس معاً عديدة ومتنوعة منها : التساوى فى الطبيعة، والأصل المشترك، والروابط الأسرية، والاحتياجات، واللغة المشتركة، والجنسية، وروابط المحبة، وهذا معناه أن مشاركة ممتلكات المرء تعتبر التزاماً حقيقياً، وهو يعتبر أن

الغنى شئ يجب أن يُشَارك أساساً، وهو يصر مكرراً أن الغرض من وراء المقتنيات هو المشاركة، وهو توزيع الثروة خاصة ما فاض منها، وهذا ما يجعلها صالحة. ويرى أن الملكية الخاصة شئ ناقص ومحدود يجب أن يصبح شرعياً، وذلك عن طريق وضعه أمام الاستخدام المشترك من خلال المشاركة.

وكان يوحنا متحمساً أيضاً للنصح بتقديم الصدقات ولرفع كرامة الفقراء، وأحياناً كان يشجب الثروة بعنف لدرجة أنه أُتهم بأنه دهماوى (خطيب شعبى يستغل الاستياء الاجتماعى) وشيوعى أيضاً . وفى الحقيقة أن نصوصاً معينة فى كتاباته تبدو وكأنها تنكر حق الملكية الخاصة، فعلى سبيل المثال فى عظته الثانية عشر، على الرسالة الأولى إلى تيموثاوس يؤكد: "لاحظوا أنه لايوجد نزاع فيما يتعلق بالأشياء المشتركة، فالأشياء فى طبيعتها لا تحمل أسباب خلاف، ولكن عندما يحاول أحدهم أن يمتلك أىَّ شئ لنفسه ويجعله حكراً له، عندئذ يوجد النزاع كما لو أن الطبيعة نفسها صارت ناقمة ". ومرة أخرى فى نفس العظة نقرأ قبل ذلك بقليل "الجشع رغبة مدمرة لدرجة أنه من المستحيل أن تصبح غنياً بلا ظلم " . إن أصل وأساس الغنى لا بد وأن يكون الظلم " ومع هذا فإن هذه التأكيدات ينبغى أن توضع فى معناها الصحيح، فهو لا ينوى أن يقترح نوعاً من الشيوعية الاقتصادية بل هو يقدم نصيحة قوية بالمشاركة كحل لمشكلة التفاوت الاجتماعى.

جانب آخر جدير بالملاحظة فى العقيدة الاجتماعية لذهبى الفم، هو تعاليمه المُفصلة فيما يتعلق بالعمل، ففى عظته السادسة والثلاثين على إنجيل يوحنا، يفرق بين «العمل» و«الكَدْح» الذى ينبغى أن يعمل الإنسان وفقاً له فى الجنة الأرضية، حيث أنه أعطى مهمة زراعة الأرض بدون تعب، فالكدح عاقبة من عواقب الخطية. ومع هذا لايعتبر فم الذهب العمل شيئاً مخجلاً بل وسيلة لتأديب وتصحيح انحرافات الخطية، وكطريقة للحصول على الأشياء الضرورية لمساعدة الآخرين. وهو يرى أيضاً أن الهدف الرئيسى من العمل هو إنتاج الأشياء الضرورية المفيدة، وليس الأشياء المترفة الزائدة. وفى عظته الخامسة عشر على الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس يصنف المهن التالية وفقاً لمنفعتها: الزراعة، النسيج، البناء، وصناعة الأحذية.

وأخيراً ناقش ذهبى الفم أيضاً مشكلة السلطة والحكم المدنى والقانون ولاسيما فى عظته الثالثة والعشرين على الرسالة إلى أهل رومية، والعظة الرابعة والثلاثين على الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، والعظة الخامسة عشر على الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس وهو يناقش ضرورة السلطة فى الحياة الاجتماعية، أصلها وهدفها، وظائفها ومنافعها، وواجب الخضوع للحكومة والالتزام بدفع الضرائب، وأصل ومعرفة القانون الطبيعى وعلاقته بالضمير .

فى لعازر

(ما يمتلكه الأغنياء يخص الفقراء)

عظة ٢ ، ٤ ـ إذا تحدثنا على نحو دقيق، فإن الرجل الغنى لم يرتكب أى فعل ظالم ضد لعازر، لأنه لم يسلب مقتنياته، بل أن خطيته كانت تكمن فى عدم إعطائه جزءاً من مقتنياته الخاصة. والآن إذا تعرض الشخص الذى لا يعطى جزءاً من مقتنياته للمقاضاة من جانب ذلك الذى يجب أن يشفق عليه، فلن يحصل على البراءة، لأن أولئك الذين يظلمهم سيحيطون به من كل جانب؟ إنه لن يحتاج أى شاهد أو مدعٍ، أو أدلة أو قرائن، بل الحقائق نفسها هى التى ستشهد كما تظهر أمام أعيننا "الإنسان وأعماله ستظهر أمامى" يقول الرب.

وهكذا فإن عدم إعطاء جزء من مقتنيات المرء للآخرين هو نوع من السرقة بالفعل، وإذا كان هذا الذى أخبركم به يبدو شاذاً فلا تندهشوا، سأورد لكم نصاً من الكتاب المقدس يقول إن ليس فقط أخذ مقتنات الآخرين بل عدم أعطائهم جزء من مقتنيات المرء ما هو إلا سلب وجشع وسرقة. عندما وبخ الله اليهود من خلال النبى قال: "أتت الأرض ثمارها وكلكم لم تقدموا العشور وسرقة الفقراء تحيا فى بيوتكم" "ولأنكم قدمتم التقدمات المعتادة" يقول الرب: "أخذتم ما للفقراء." هذا ما يقوله ليوضح للأغنياء أن ما يمتلكونه يخص الفقراء حتى وإن أخذوا الميراث من آبائهم، أو حصلوا على بعض الأموال من أى مصدر ، وفى موضع آخر يقول: "لا تسلب الفقير معيشته" (سيراخ ٤:١) الناهب هو من يأخذ ما يمتلكه الآخرون لأن النهب هو الاحتفاظ بما ليس يمتلكه المرء . وهذه النصوص تعلمنا أنه إذا رفضنا أن نقدم الصدقات سنعاقب بنفس الطريقة التى يعاقب بها الذين ينبهون.

إلى شعب أنطاكية
(لمَ توجد أشياء مشتركة وأشياء خاصة)

عظة ١١ ، ٦ ـ ماذا يقصد الرسول حين يقول: "بل الله الحى الذى يمنحنا كل شئ بغنى للتمتع" (١تيموثاوس ٦:١٧) ؟ يعطينا الله كل الأشياء الأكثر ضرورة من المال بوفرة مثل الهواء والماء والنار وأشعة الشمس وأشياء من هذا القبيل، ومع هذا لايمكن أن يقال إن الغنى لديه أشعة شمس أكثر من الفقير، أو أن الغنى يتنفس هواءً أكثر من الفقير، فكل هذه الأشياء متاحة للكل بالتساوى وهم جميعهم يشتركون فيها، فلماذا تجد ان الله خلق أعظم الأشياء وأهمها ـ تلك التى تبقى على الحياة ـ لكى يشترك الكل فى استخدامها ، فيما نجد أن أقل وأقذر شئ وأعنى به المال ، لا يتشارك فيه الناس . هذا هو ما أود أن أسأله، والإجابة هى : لكى يصون حياتنا ويفتح أمامنا طريقاً للفضيلة.

ولأنه من ناحية إذا لم تكن ضروريات الحياة مشتركة فإن الأغنياء ـ بطمعهم المعتاد ـ قد يستولون عليها من الفقراء، لأنهم إن كانوا قد فعلوا ذلك مع الأموال فكم بالأحرى سيفعلون ذلك نفسه مع هذه الأشياء، ومن ناحية أخرى فإذا كان المال مشاعاً ومتاحاً للجميع فلن تكون هناك فرصة لتقديم الصدقات ولا حافز لفعل الخير.

عظة عن المحبة الكاملة
المحبة والحياة الاجتماعية

كل الأعمال الصالحة هى ثمار المحبة ، الآن تعلمنا المحبة أن الحب ليس بالكلمات فقط بل بالأعمال أيضاً، أولاً يجب أن نتذكر الطريقة التى خلقنا بها. فبعد أن خلق الله الإنسان الأول قضى أن نولد منه كى نعتبر أنفسنا شخصاً واحداً، ونمارس المحبة بعضنا تجاه البعض. ولأن الله بحكمته يعزز المحبة المتبادلة بيننا من خلال المعاهدات والتجارة، انظر كيف أن الله ملأ الكون بخيرات عديدة، ولكن لكل جزء من الأرض أعطى ثمراً خاصاً. وبهذه الطريقة تدفعنا احتياجاتنا للاتصال بعضنا ببعض فنعطى للآخرين ما يتوفر بكثرة لدينا ونأخذ منهم ما ينقصنا، وهكذاتزيد محبتنا تجاه إخوتنا.

نفس الشئ فعله الله مع كل حياة إنسانية على حدة، وهو لم يعطنا معرفة كل شئ بل أعطى لأحدنا الطب ولآخر العمارة ولثالث الفن كى نحب بعضنا البعض بالاحتياج. ونرى نفس الشئ فى النظام الروحى ، كما يقول القديس بولس : "فإنه لواحد يعطى بالروح كلام حكمة ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد ولآخر مواهب شفاء بالروح الواحد ولآخر عمل قوات "

عظات من إنجيل متى

(الفائدة والربا وتقديم الصدقات)

عظة ٥ ، ٩ لذلك وزعوا ما تتمسكون به ، لا تحتفظوا بما تودون الاحتفاظ به ، أنفقوا ما تودون ادخاره، وما تربحونه، لاتكتنزوا كنوزكم بأنفسكم لأنكم ستبددونها بل بالأحرى أودعوها لدى الله لأنه حينئذ لن يستطيع أحد أن يسلبها ، أقرضوا حيث لا يكون حسد أو اتهام أو مكيدة شريرة أو خوف ، أقرضوا ذاك الذى لا يعوزه شئ إلا أنه يحتاج لكم ، الذى يطعم كل الناس ومع ذلك يجوع كى لا تتعرضون للمجاعة، الذى يفتقر كى تصبحوا أغنياء، أقرضوا حيث لا تكون عودتكم موتاً بل حياة .

لأنه لا يوجد ما هو أحقر وأكثر قسوة من الربا الذى يتأتى من الإقراض، لأن مثل هذا المقرض يتاجر بمحن الآخرين، وينتزع الربح من آلامهم، ويطلب أجراً عن الشفقة، كما لو كان يخشى أن يبدو رحيماً، وتحت قناع الشفقة يحفر العمق فى قبر فقرهم، فيدفعهم لأسفل بدلاً من أن يمد يده للمساعدة ، وعندما يستقبلهم كما لو كان فى ميناء فإنه يعاملهم كحطام سفينة تحطمت على صخرة فى مياه ضحلة قرب سطح البحر .

الآن قد يقول المرابى : "أتسألنى أن أعطى آخر مالى الذى جمعته والذى أستفيد أنا منه ليستخدمه هو دون أن أطلب مكافأة؟ لا، لا أقول هذا بل على العكس أريد أن تتلقى مكافأة ولكن ليس مكافأة وضيعة أو صغيرة، بل أعظم من ذلك لأنه بدلاً من الذهب أريدك أن تأخذ السماء، لِمَ إذاً تحبس نفسك فى الفقر زاحفاً فى الأرض وتطلب القليل بدلاً من العظيم؟ هذا هو نصيب من لا يعرف كيف يصبح غنياً، لأنك بهذا تقول لله الذى يعدك بالأشياء الصالحة فى السماء فى مقابل القليل من المال: "لا تعطنى السماء ولكن بدلاً منها أعطنى الذهب الذى يفنى"، وهذا هو الإنسان الذى يرغب فى مواصلة العيش فى الفقر.

(مثال سيئ للمسيحيين فيما يتعلق بالخيرات المادية)

عظة ١٢ ـ أليس هذا أكبر أشكال الحماقة أن تكدس كل مقتنياتك حيث يصبح الدمار والفناء مصيراً لكل مخزون ؟ ولكن ، حيث تبقى الأشياء دون أن تُمس بل حيث تزيد ، ألا تضع هناك كل شئ حتى الجزء الأخير حيث تحيا هناك للأبد ؟ هذا هو سبب أن الوثنيين لا يصدقون ما نقول، فهم على استعداد أن يتلقوا أفعالنا وأعمالنا كأدلة، ولكن حين يروننا نبنى المنازل المريحة لأنفسنا، ونصمم الحدائق والحمامات، ونشترى الحقول لا يصدقون أننا نجهز لنوع آخر من الإقامة بعيداً عن المدينة، إنهم يقولون : "لأنه لو كانوا هكذا لباعوا كل شئ يمتلكونه ولأودعوا الأموال هناك مقدما". هذا هو ما يخمنونه من الطريقة التى نمارس حياتنا بها . وفى واقع الأمر نرى أن هذا هو ما يعمله الأغنياء: إنهم يشترون لأنفسهم منازلاً وحقولاً، وكل الأشياء الأخرى أساساً فى تلك المدن التى يستقرون فيها، لكن نحن نفعل العكس تماماً، نحن بكل حماس نمتلك الأرض التى سنغادرها قريباً. ومن أجل أفدنة وشقق قليلة نتخلى ليس فقط عن مالنا بل أيضاً نبذل دمنا. ولكن من أجل شراء السماء لا نحتمل أن نعطى ما هو زائد عن احتياجاتنا مع أننا سنشتريها بسعر زهيد ونمتلكها للأبد شريطة أن نشتريها ذات مرة.

لهذا أقول إننا سنغادر هذا العالم عرايا وفقراء ونقاسى أشد عقاب، وسنعانى ليس فقط من فقرنا ، ولكن لأننا جعلنا الآخرين يصبحون مثلنا، لأنه حين يرى الوثنيون أن أولئك الذين يشتركون فى الأسرار العظيمة متمسكون بهذه الأمور فإنهم سيفعلون هذا أكثر وأكثر.

(واجب الغنى أن يستخدم مقتنياته على نحو جيد)

لأن الخيرات المؤقتة ما هى إلا ملحق للخيرات الروحية، وعلى الرغم من تفاهتها وحقارتها مقارنة بالأشياء الروحية، إلا أنها قد تصبح ذا فائدة عظيمة، دعونا لا نهدر طاقاتنا عليها بل ننظر إلى اكتسابها وفقدانها بلا مبالاة، مثل أيوب الذى لم يتعلق بها حين كانت موجودة أو سعى خلفها عندما ذهبت. ولهذا السبب تسمى الثروة (Chremata) (منافع) كيلا ندفنها فى الأرض، بل نستخدمها على نحو صحيح، فكل حِرفى لديه مهارة مميزة، هكذا الغنى أيضاً، فهو لا يعرف كيف يعمل بالنحاس ، أو يبنى السفن ، أو ينسج ،

أو يبنى المنازل أو أى شئ من هذا القبيل، فليتعلم إذاً كيف يستخدم ثروته على نحو جيد وأن يرحم الفقراء، وهكذا يعرف مهارة أفضل من كل هؤلاء. وهكذا يمارس حرفة تعتمد على مهارة أعلى من كل هذه المهارات ، فأدواتها ليست مصنوعة من النحاس أو الحديد ، ومكان العمل الذي يمارس فيه حرفته تم بناؤه فى السماء ، والمعلم الذي يقوم بالتدريب عليها هو المسيح والآب، وهو يقول: "فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم"(لوقا ٦: ٣٦).

على أن أفضل ما فى الموضوع هو أنه لكي تكون أعلى شأناً من الآخرين فإنك لن تحتاج لمجهود أو وقت لإتقان هذه المهارة ، بل يكفى أن تنوى ذلك فيتحقق لك كل شئ، ولكن دعونا أيضاً نرى النهاية ؟ إنها السماء والأشياء الصالحة فيها وهذا المجد الذى ينطق به، وغزف العروس الروحية والمصابيح المضيئة ، والسكنى مع العريس، وغيرها من الأشياء التى لا تستطيع الكلمات ولا حتى الفهم أن يوضحها، وهنا يكمن الفرق بين هذه المهارة وغيرها من المهارات، لأن معظم المهارات تجلب لنا الربح لهذه الحياة الحاضرة، ولكن هذه المهارة تعطينا الحياة الآتية .

(ميزة مهارة تقديم الصدقات)

لذلك سُيدان الأغنياء بحق إذا كانوا أشراراً أكثر من الفقراء ،لأن رغد عيشهم لم يلينهم، ولا تقولوا لى إنهم يقدمون الصدقات لأنه إن لم يعطوا بما يناسب ثروتهم فلن ينجوا من العقاب، فصدقاتنا لا تقدر بمقدار عطايانا بل بقلبنا، بيد أنه إذا كان هؤلاء يتعرضون للعقاب فإن الذين يتلهفون على الأشياء الزائدة غير الضرورية سيعاقبون أكثر لأنهم يبنون منازلاً من طابقين أو أكثر، ولكنهم يحتقرون الفقراء، إنهم يولون اهتماماً خاصاً للجشع ويهملون تقديم الصدقات.

يعتبر تقديم الصدقات مهارة أفضل من سائر المهارات، فإن تميزت المهارات بتقديم شئ مفيد فإن تقديم الصدقات يعتبر أفضل مهارة من كل المهارات الأخرى لأنها لا تصنع لنا أحذية، أو تنسج الثياب، أو تبنى منازلاً من الطَفْل، بل تعطينا الحياة الأبدية، وتنتزعنا من براثن الموت، وتبين كم نحن ممجدون سواء فى هذه الحياة أو الحياة الأخرى، وتبنى قصوراً فى السماء، وخياماً وهياكل أبدية ..

وفى الواقع فإن كل مهارة من مهارات هذه الحياة تحقق هدفاً واحداً فقط، فعلى سبيل المثال الزراعة تطعمنا، النسيج يكسونا، و قد لا تحقق هذا الهدف كله لأن ليس أى منها كاف بمفردها أن تقدم الدور كاملاً ، فلنأخذ الزراعة أولاً: فبدون مهارة الحداد الذى يعمل المجراف، وشفرة المحراث، والمنجل، والفأس، وغيرها من الأشياء الجانبية، وبدون النجّار الذى يشكل المحراث ويجهز النير والكارج، وبدون منظف الجلود الذى يصنع المعدات الجلدية، وبدون البناء الذى يبنى الحظيرة للثيران التى تحرث، والمنازل للمزارع الذى يزرع، وبدون الذى يقطع الأخشاب وبدون الخباز ، بدون هؤلاء جميعهم لا يمكن أن توجد الزراعة فى أى مكان. وهكذا أيضاً مهارةُ النسيج تستدعى مهارات عديدة حين تنتج أى شئ لتساعدها فى إنجاز الأعمال الموضوعة أمامها، وإذا لم تكن هذه المهارات موجودة وتقدم المساعدة فإن النسيج ـ مثله مثل الزراعة ـ لن يوجد لأن كل مهارة تحتاج للأخرى.

بيد أنه عند تقديم الصدقات فإننا لا نحتاج أى شئ آخر، فكل ما هو مطلوب هو النزعة أو الميل ، وإذا قلت إننا نحتاج للمال وأيضاً للمنازل وللثياب وللأحذية اقرأ إذاً كلمات المسيح التى قالها فيما يتعلق بالأرملة (مرقس ١٢:٤٣) ولا تقلق فيما بعد، لأنه مهما كنت فقيراً حتى وإن كنت أفقر من الذى يسأل، الق فلسين وستحقق كل شئ حتى وإن كان عندك فطيرة من الشعير فقط وهى كل ما تملك، اعطها وستصل إلى قمة هذه المهارة.

(من السهل على الأغنياء أن يتخلصوا من الفقر)

إخوتى الأعزاء دعونا نتفكر إذاً فى هذه الأشياء، ودعونا نتبين الحقيقة بتفصيل تام مع أننا تأخرنا قليلاً ، إلا أن هذا يؤول لخير سوف يزيدنا رصانة، لأننى أخجل الآن أن أتحدث عن تقديم الصدقات مع أننى تكلمت كثيراً عن هذا الموضوع إلا أننى لم أحقق أى شئ جدير بالاهتمام كما كنت أتمنى. أراكم تزرعون ولكن ليس بيد سخية، لذلك أخشى ألا تحصدون كثيراً. فذلك دليل على أنكم تزرعون قليلاً فدعونا نتساءل ـ إن شئتم ـ من هم أكثر الناس عدداً فى المدينة ؟ الفقراء أم الأغنياء، الذين ينتمون للطبقة المتوسطة الذين هم ليسوا أغنياء أو فقراء ؟ سوف نجد أن نسبة الأغنياء تبلغ عُشر المجتمع وأن نسبة الفقراء الذين ليس لديهم شيئاً البتة تبلغ العشر أيضاً، أما البقية فهى طبقة متوسطة. دعونا إذاً نوزع بين الفقراء كل الوفرة التى فى المدينة، وسترون كم تصبح نعمتنا عظيمة لأن الأغنياء

جداً قليلون حقاً، ولكن الذين يأتون بعدهم كثيرون. أما الفقراء فهم أيضاً أقل من هؤلاء ، ومع هذا فعلى الرغم من أن القادرين على إطعام الجوعى كثيرون إلا أن كثيرين يذهبون ليناموا وهم جوعى، وهذا ليس بسبب عدم قدرة الذين معهم على مساعدتهم بسهولة، بل بسبب وحشيتهم وقسوتهم لأنه إن وزع كل من الأغنياء والذين يأتون بعدهم فى الغنى على المحتاجين للخبز والكساء فيما بينهم، فسيكون لكل خمسين أو حتى مائة شخص فقير واحد، ومع هذا فإنهم ينتظرون كل يوم على الرغم من الوفرة العظيمة التى لدى الذين يستطعيون مساعدتهم.

ولكى تعرفوا مدى وحشية الآخرين، انظروا للكنيسة كيف أن إيرادها أقل بكثير من أى من الأثرياء، فهى ليست فى عداد الأغنياء، إلا أنها ساعدت عدداً لا يحصى من الفقراء، إضافة لهؤلاء فهى تساعد المسجونين، والذين يقاسون فى المستشفيات، والذين فى دور النقاهة، وأولئك المغتربين والمشوهين والذين يخدمون بيت الله، أما بالنسبة للطعام والكساء فهى تساعد أولئك الذين يأتون يومياً، ومع هذا فإن ممتلكاتها لم تنتقص بأى صورة. لذلك فإن كان هناك عشرة رجال فقط على استعداد أن ينفقوا بمثل هذه الطريقة فلن يوجد فقراء.

أنا لست أجبركم على أن تقللوا رأس مالكم وهذا ليس بسبب أنى لا أرغب ذلك، بل لأنى أراكم غير متجاوبين فأنا إذاً لا أقول ذلك ، لا، بل اعط الإيرادات ولا تستبق منها شيئاً لأنه يكفيك مال دخلك الذى يتدفق عليك كما لو كان من ينبوع، وأشرك الفقراء معك وكن أميناً للأشياء التى أعطاك الله إياها..

(الوظيفة الاجتماعية للممتلكات)

هذا المثل (العبد الأمين متى ٢٤: ٤٥ - ٤٧) ينطبق ليس على المال فقط بل حتى على أسلوب الحديث والقوة التى يتمتع بها الفرد، والهبات التى له، وكل أمانة تودع لدى أى شخص. وهو يناسب الحكام فى الدولة أيضاً لأن كل فرد ملزم أن يستخدم ما لديه بالكامل للصالح العام. فإذا كان لديك حكمة أو قوة أو ثروة أو غيرها، فلا تسخرها لتدمير إخوتك من العبيد أو لتدمير نفسك .

فليستمتع أيضاً الذين يملكون أموالاً، لأن المسيح لا يتحدث للمعلمين فقط بل أيضاً للأغنياء لأن كل واحد منهم أُودع نوع من الغنى : المعلمون لديهم الثروة الأكثر ضرورة، والأغنياء لديهم التى أقل شأناً. وبينما يعطى المعلمون ما لديهم من ثروة عظيمة ، نرى الأغنياء غير مستعدين لكى يظهروا أى سخاء ولو بمقدار ضئيل ، والواقع أن هذا العطاء لا يجب أن يوصف بأنه سخاء بل هو أمانة (لأنكم أيها الأغنياء فى الواقع تعطون أشياء تخص الآخرين) فما عذركم؟، لأنكم أنتم أيضاً أمناء على مقتنياتكم ليس بصورة أقل من ذلك الذى يوزع صدقات الكنيسة ، فكما أننا لا نعذر إنساناً يبذر البذار بصورة عشوائية، هكذا أنتم أيضاً لا يجب أن تبذِّروا ما لديكم حتى وإن كنتم تلقيتموها كميراث من آبائكم ، فإنها لا تزال ملكاً لله ، ورغم أنه كان يستطيع أن يأخذ منكم هذه المقتنيات لكنه تركها لكم كى يمنحكم الفرصة لإظهار فضائلكم، وهكذا فإنه عندما يجعلنا نحتاج بعضنا إلى بعض يصبح حبنا أكثر توهجاً..

لأنه إن كان الإنسان لا يعيش لنفسه حتى فى الأمور الدنيوية بل يساهم كلٌ من الحرفى والجندى والمزارع والتاجر فى الصالح العام ولخير أقاربهم، فكم بالأحرى بنا أن نفعل ذلك فى الأشياء الروحية ، لأنه هكذا تكون الحياة أكثر ملائمة، أما ذلك الذى يعيش لنفسه فقط ويتجاهل الآخرين فإن مثل هذا الإنسان لا قيمة له، إنه ليس إنساناً ولاينتمى للجنس البشرى.

عظات من إنجيل يوحنا

(أصل التفاوت الاجتماعى)

أعطانا الله مكان سُكنى واحد وهو هذا العالم، ووزع البشر بالتساوى وأضاء شمساً واحدة للجميع، وبسط فوقنا سطحاً واحداً وهو السماء، وأعد مائدة واحدة وهى الأرض. وهو أيضاً أعطى فائدة أعظم من هذه فى (القربان المقدس) . وأولئك الذين يشتركون فى الأسرار يفهمون ما أقول، فالله أنعم علينا كلنا بطريقة واحدة فى الولادة، وهى الولادة الروحية للجميع، وأعطانا جميعاً وطناً واحداً وهو السماء ، إنه لم ينعم على الأغنياء بهبات أسخى وأكثر شرفاً، وهبات أخرى أقل للفقراء بل دعا الجميع بالتساوى، فهو أعطى الأشياء المؤقتة بنفس السخاء الذى أعطى به الأشياء الروحية.

من أين إذاً يتأتى التباين الكبير فى أحوال الحياة ؟ إنه يأتى من طمع وغطرسة الأغنياء ولكن يا إخوتى دعونا نتخلص من هذا الوضع، فبينما تربطنا الأشياء العامة والضرورية معاً إلى نفس النهاية، دعونا لا ننجرف خلف الأشياء الأرضية، وأعنى بها الثروة والفقر والقرابة الجسدية والخصومة والصداقة، فمثل هذه الأشياء ما هى إلا ظلال وأقل من ظلال بالنسبة للذين لديهم رباط المحبة من الأعالى.

(العمل والكَد)

فى البدء أعطانا الله حياة خالية من الهموم ومُعفاة من الكد ، لكننا لم نستخدم هذه العطية على نحو جيد بل أفسدنا هذه الراحة وخسرنا الفردوس ، لذلك فقد أعطى لحياتنا من ذلك الحين فصاعداً موقفاً معتدلاً تجاه العمل والكفاح، كما أننا إذا تعمقنا جيداً فإننا سوف نكتشف أن الخمول يسرع بنا إلى الفساد، ويسبب لنا الكثير من المتاعب.

افترض أننا نحبس إنساناً ما، ونهتم بإطعامه ، وبكل ما يحتاجه من انوا ع الغذاء ولكن لا نسمح له أن يمشى، أو أن يعمل، وافترض أننا تركناه يتمتع بالمائدة والسرير ويعيش فى ترف باستمرار، فما أتعس هذه الحياة، ومع ذلك قد تقول: " العمل شئ والكد شئ آخر"، فإنه فى البدء كان من الممكن أن تعمل بدون كد «هل كان ذلك ممكناً ؟» نعم لأن الله نفسه أراد هذا، لكنك لم تسمح بذلك، لأن الله لم يخلط الكد بالعمل، فلو أن الإنسان جرب الكد منذ البداية لما كان أُبتلى به كعقاب بعد ذلك . وفى واقع الأمر فإنه من الممكن أن تعمل وفى نفس الوقت لا تصل إلى مرحلة العمل الشاق، كما فى حالة الملائكة..

(الطمع هو عبادة الأوثان)

محبة المال رذيلة من الرذائل الفظيعة، إنها تعجز العينين والأذنين وتجعل الناس أشد ضراوة من الوحوش، ولا تسمح لهم بأن يراعوا الضمير، أو الصداقة، أو الزمالة ، أو حتى خلاص أرواحهم، لكنها تحول أسراها إلى عبيد. وبالإضافة لذلك إنها تقنعهم بالإحساس بالامتنان لها، وكلما ازداد تعلقهم بها كلما ازدادت اللذة التى يجدونها ، والنتيجة أن المرض يصبح بلا شفاء ، والوحش يصعب ترويضه.

لهذا يسمى بولس (محبة المال) عبادة الأوثان (كولوسى ٣:٥)، ومع ذلك فإنه لا يمنع الناس من اكتساب الأموال لكنه يقول إنها عبادة أوثان؟ لأن كثيرين يمتلكون الثروات ولا

يجرأون على استخدامها بل ينظرون إليها كشئ مقدس، وينقلوها كما هى لأولادهم وأولاد أولادهم ، ولا يجرأون على لمسها، كما لو كانت شيئاً مكرساً لله. وإذا اضطروا لاستخدامها يشعرون كما لو كانوا يدنسون المقدسات، وعلاوة على ذلك فكما يهتم الوثنى بمعبوده هكذا أنتم أيضاً تخبئون ذهبكم وتكتنزونه فى الصندوق وكأنه مزار مقدس .

عظات من أعمال الرسل

(لا يعفى أحد مهما كانت حالته من مساعدة قريبه)

لا يوجد ما هو أكثر فتوراً من مسيحى لا يبالى بخلاص الآخرين، وهذا لا يمكن أن نعلله بالفقر، لأن من ألقت فلسيها سوف تكون ديّاناً لك (لوقا ٢١:١). وقال بطرس: «ليس لى فضة ولا ذهب» (أعمال ٦:٣). وبولس هو الآخر كان فقيراً لدرجة أنه غالباً ما يجوع ولا يجد ما يقتات به من طعام . لا تستطيع أيضاً أن تتعلل بوضاعة المولد، لأنهم أيضاً لم يكونوا نبلاء ولم يكن أباؤهم كذلك، ولا تستطيع أن تتعلل بنقص التعليم ، لأنهم جميعاً كانوا «عديمى العلم» أيضاً (أعمال ١٣:٤). حتى وإن كنت عبداً، بل عبداً هارباً فأنت لاتزال تستطيع أن تؤدى دورك، لأن أنسيمس كان هكذا، ولا تستطيع أن تتعلل بالنقائص : لأن تيموثاوس غالباً ما كانت عنده نقائص .

كل فرد يستطيع أن يفيد قريبه ، إذا أدى دوره، ألا ترى الأشجار التى لا تثمر كم هى قوية وجميلة ، كم هى كبيرة الحجم وملساء وعالية الارتفاع؟ ولكن إن كان لدينا حديقة عندئذ سنفضل أشجار الرمان أو الزيتون المثمرة بدلاً من هذه الأشجار التى تسر العين ولكن منفعتها ضئيلة ، هكذا أيضاً أولئك الذين لا يفكرون إلا فى مصالحهم فقط فهؤلاء أقل قيمة من هذه الأشجار لأنهم لا يصلحون إلا للحريق، بينما نستفيد من هذه الأشجار فى بناء المنازل وحماية من يعيشون فيها.

لا تقل : « من المستحيل أن أهتم بالآخرين»، فإذا كنت مسيحياً فمن المستحيل ألا تهتم بهم ، لأنه كما أن الخصائص الطبيعية للأشياء لا يمكن أن تكون غير مجدية هكذا أيضاً طبيعة المسيحى . لا تهن الله، فأنت إن قلت إن الشمس لا تستطيع أن تضئ فبذلك تهينه ، وإن قلت إن المسيحى لا يستطيع أن يفعل خيراً فأنت بقولك هذا تهين الله وتدعوه كاذباً لأنه أسهل للشمس ألا تعطى حرارتها أو ضوءها من أن لا يرسل المسيحى أشعة نور، وأسهل للنور أن يصبح ظلمة من أن يصبح المسيحى كذلك.

عظات على الرسالة إلى أهل روميه
(أصل وطبيعة وخصائص السلطة)

هنا، وفى رسائل أخرى أيضاً يناقش بولس الرسول هذا الموضوع باستفاضة، فهو يطلب من العبيد أن يخضعوا لسادتهم وأيضاً يطلب من الرعية أن تخضع لحكامها، وهو يفعل هذا ليبين أن المسيح لم يقدم قوانينه لتدمير السلطة السياسية بل لتنظيمها على نحو أفضل، وليعلّم الناس ألا يلجأوا للحروب عديمة الجدوى، لأن لدينا بالفعل ما يكفى من الصراعات نناضل خلالها من أجل الحقيقة، ومن ثم لا نحتاج إلى صراعات أخرى لا طائل من ورائها، وليبين أن هذه المتطلبات تنطبق على الكل بما فى ذلك الكاهن والرهبان، وليس على أصحاب المهن الدنيوية فقط، لذالك قال بولس الرسول : «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة» سواء كنت رسولاً أم مبشراً أم نبياً ، فأنت مطالب أن تخضع طالما أن هذا الخضوع لا يدمر الدين ، وهو لايقول «أطع» فحسب بل «اخضع».

أول قاعدة تنظم هذه الأمور وتعطيها انسجاماً مع منطق الإيمان، هى أن الله نفسه يعين كل هذا، يقول بولس: «لأنه ليس سلطان إلا من الله»، ماذا تعنى أيها الرسول؟ أتعنى أن الله يختار كل حاكم للعرش الذى يشغله؟ ويجيب الرسول : لا لم أقل هذا فأنا لا أتحدث عن الحكام كأفراد بل عن السلطة نفسها، أريد أن أقول إنها مشيئة الله وحكمته أن توجد السلطة، وأن يحكم البعض بينما يطيع البعض الآخر لكى لا تسود الفوضى، ويتأرجح الناس فى اتجاهات مختلفة مثل الأمواج، من ثم لا يقول بولس: «لا يوجد حاكم لا يعينه الله» بل يتحدث عن السلطة نفسها ويقول: «لأنه ليس سلطان إلا من الله (والسلاطين) الكائنة هى مرتبة من الله».

وبنفس الطريقة عندما يقول الحكيم : «الرب يوفق بين الرجل والمرأة» (أمثال ١٤:١٩) فإنه يعنى أن الله يؤسس النمط المنظم للزواج، وليس أن الله يربط معاً كل رجل مع امرأة، لأننا نرى كثيراً من الرجال والنساء ربطهم قانون الزواج نفسه لكن للشر، وهذا ينبغى ألا نعزوه لله . ولأن المساواة فى السلطة والشرف قد يؤدى إلى الصراع فى أحيان عديدة، لذلك خلق الله درجات وأشكالاً مختلفة من الخضوع، وعلى سبيل المثال ذلك الخضوع بين الزوج والزوجة، الابن والأب، الكبير والصغير، الأحرار والعبيد، الحاكم والمحكوم، المعلم والتلميذ،

فلماذا تندهش إذاً فى حالة الإنسان لأنه حتى فى الجسد نجد نفس الشئ ؟ فليست كل الأجزاء متساوية فى الوظائف، بل يوجد من هو أعلى ومن هو أقل. وبذلك يعيش الجسد فى انسجام .

عظات من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس

(الوظيفة الاجتماعية للثروة)

عظة ١٠ ـ عندما يتحدث بولس عن الإيمان فهو يقول: «إنكم لستم لأنفسكم» و«لأنكم قد اشتريتم بثمن»، فكل الأشياء فى واقع الأمر هى لله، ولذلك فعندما يأخذها منا دعونا لا نفر من أمامه مثل الخدام ناكرى الجميل ، ودعونا لا نسرق خيرات سيدنا، فروحك ليست ملكك وثروتك أيضاً ليست كذلك، فكيف إذاً تنفق الأشياء التى ليست لك على كل ما هو غير ضرورى؟ ألا تعلم أننا قريباً سنحاكم إذا استخدمناها على نحو سيىء ؟ لكن حيث إنها ليست لنا بل لسيدنا، فينبغى علينا إذاً أن ننفقها على إخواننا من الخدام..

لا تقل إذاً : «إننى أنفق ما هو لى وأحيا حياتى الشهوانية هذه بما أملك». إنه ليس ملكك بل للآخرين، وأما أنا أقول إنه للآخرين وأنت لك أن تختار ما أنت مقتنع به. فذلك لأنها مشيئة الله أن تكون هذه الأشياء لك، تلك التى أودعت لديك نيابة عن إخوتك، والآن فالأشياء التى ليست لك تصبح لك إذا أنفقتها على الآخرين، أما إذا أنفقتها على نفسك فقط فإن الأشياء التى لك لا تصبح كذلك فيما بعد، لأنه حيث إنك تستخدمها بأنانية وتقول إنه من العدل أن تنفقها بالكامل على متعتك الشخصية، أقول إنها لم تعد لك لأن هذه الأشياء يفترض أنها مشتركة بينك وبين إخوتك من الخدام، تماماً مثل الشمس والهواء والأرض وكل ما عداها. هكذا أيضاً فيما يتعلق بالثروة إذا تمتعت بها بمفردك ستفقدها لأنك لن تحصد مكافأتها، أما إذا امتلكتها مشاركةً مع الآخرين فعندئذ تصبح ملكاً لك أكثر، وعندها تحصد منافعها..

(كيف تقنع الأغنياء بأن يتخلوا عن جشعهم)

عظة ١١ ـ لنتعلم من دروس الحكمة الحقيقية، ونقول إننا لا نحظر السعى وراء الثروة كثروة، بل نمنع الثروة المكتسبة بطرق غير شرعية، لأنه لا يوجد قانون يمنعك من أن تكون غنياً ولكن بلا جشع وبلا نهب وبلا عنف وبلا سمعة سيئة أمام الناس . دعونا نتكلم أولاً عن

طريق حجج الحكمة الحقيقية مع أولئك الذين يسعون وراء الثروة، ولا نحدثهم عن جهنم لأن المريض لا يستطيع أن يحتمل مثل هذا الحديث، دعونا نذهب إلى هذا العالم بكل هذه الحجج عن هذه الأمور ونقول: «لِمَ تختار أن تكون غنياً من خلال الجشع؟ لِمَ تكتنز ذهباً وفضة للآخرين، بينما تخزن لنفسك عدداً لا حصر له من اللعنات والاتهامات؟ الفقير الذى سلبته ماله بالاحتيال يعانى من الكرب لافتقاره لضروريات الحياة، ويتفجع على ماله، فيقرّب بذلك لعنات الآلاف عليك . إنه قد يتجول فى السوق مع حلول الظلام غير عالم أين سيقضى هذه الليلة، كيف ينام ومعدته مليئة بالآلام، يعذبه الجوع فى جو قارس البرودة والمطر ينهمر عليه؟ وأنت تعود البيت من الحمام نظيفاً ومتأنقاً مرتدياً الملابس الناعمة وممتلئاً رضا وسعادة، ومسرعاً لتجلس أمام عشاء فاخر ، أما الفقير فيسوقه البرد والجوع إلى أى مكان فى السوق، رأسه منخفضة ويده ممدودة، وأحياناً لا تواتيه الشجاعة ليطلب ما يقيم أوده من طعام من الشخص الذى ينعم بالطعام والراحة .

لذلك فعندما تعود لبيتك، وعندما تتمدد على الأريكة، وعندما تتلألأ الأنوار حول منزلك، وعندما تجلس أمام المائدة المعدة والممتلئة على نحو وافر، تذكر فى ذلك الوقت أن هناك فقيراً بائساً يتجول مثل الكلاب فى الأزقة حيث الظلمة والوحل، ويعود من هذه الأزمة ليس لبيته أو لزوجته أو لفراشه بل لكومة من القش مثل تلك الكلاب التى تنبح طوال الليل . أما أنت إذا رأيت نقطة واحدة من الماء تسقط من السقف فإنك تقيم المنزل ولا تقعده .

(جوهر المسيحية)

عظة ٢٥ ـ السعى للصالح العام هو أساس المسيحية وهو التعريف الدقيق لها بل وهو أسمى غاياتها، يوضح بولس هذا عندما يقول: «كما أنا أيضاً بالمسيح» (١كورنثوس ١١:١) فليس هناك شئ يجعلنا متمثلين بالمسيح أكثر من الاهتمام بالأقارب لأنه حتى وإن كنت تصوم أو تنام على أرض صلبة، أو كنت تتعرض للموت لكنك لا تفكر فى قريبك فأنت لم تفعل شيئاً ، على الرغم من كل ما فعلت، وأنت لا زلت بعيداً عن المثال الكامل للمسيحى.

عظات من الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس

(فن الحكم مقارنةً بغيره من الفنون)

الحكم فن وليس شرف فحسب، وهو فن فوق كل الفنون، وإذا كان الحكم الدنيوى فن وعلم أرفع مقاماً من سواه، فكم بالأحرى يكون الحكم فى الكنيسة، وكلما كان الحكم الأول أفضل من غيره ، كلما كان الأخير أفضل من الأول ، بل بالحرى أكثر من هذا . فدعونا نفند حجج هذا الجدال . يوجد فن الزراعة والنسج والبناء وهى فنون ضرورية حقاً لأن حياتنا تعتمد عليها، وبعض الفنون الأخرى ما هى إلا مساعدة لها: مثل فن عامل النحاس وفن النجّار وفن الراعى، وعلاوة على ذلك فإن أهم فن من بين هذه الفنون هو الزراعة لأنها أول ما قدمه الله حين خلق الإنسان، لأننا نستطيع أن نحيا بدون الأحذية والثياب ولكن من المستحيل أن نحيا بدون الزراعة.

يجب أن تخجل يامن لا تعرف كيف تعيش بدون الكثير من الفنون غير الضرورية مثل فن الطاهى والحلوانى والمطرز، وآلاف أخرى من مثل هؤلاء الناس ينبغى أن تخجل يا من تقدم مثل هذه المجهودات غير المجدية، لأن الله صنع الطبيعة قادرة تماماً على الوجود بنفسها دون تدخلك إلا فى إطار محدود .

إذاً تأتى الزراعة فى المقدمة وبعد ذلك النسج ثم البناء، وأخيراً صناعة الأحذية ، لأنه يوجد بيننا كثيرون من الخدام والعمال يعيشون بلا أحذية. تلك إذن هى الفنون المفيدة والضرورية، دعونا نقارنها بفن الحكم، ولقد أفردت هذه الفنون كأكثر الفنون أهمية حتى حين نقول إن الحكم أعلى شأناً منها عندئذ لا نشكك فى تفوقه على ما سواها .

كيف نبين أن الحكم أكثر أهمية من بقية الفنون لأنه بدونه لا يوجد أى فائدة للفنون الأخرى ؟ فاذا وافقت على ذلك دعونا ننحى الثلاثة الأخرى جانباً، ونركز اهتمامنا على أهمها وهى الزراعة، ماذا تكون فائدة الأيادى الكثيرة لعمالك إذا كانوا يحاربون بعضهم بعضاً، وإذا كان بعضهم ينهب خيرات البعض الآخر؟ لأن الخوف من السلطة الحاكمة هو الذى يقيدهم ويحافظ على ثمار عملهم ، فإن دمرت هذه السلطة يصبح عملهم لا شئ .

والآن، إن فحصنا هذا الموضوع بعمق أكثر فإننا سوف نجد قاعدة أخرى، وتلك القاعدة هى الأصل وهى المرجع فى ذلك ، وإذا سألنا ما هى هذه القاعدة فإن الإجابة هى : قاعدة

حكم الإنسان لنفسه بنفسه، إذ ينبغى على الإنسان أن يسيطر على نفسه، ويقمع رغباته الحقيرة، ويغذى ويطور نمو كل بذور الفضيلة بعناية فائقة . لأنه يوجد فعلاً أنوا ع عديدة من الحكم، وواحد منها هو الذى يحكم الناس بمقتضاه شعوباً ودولاً حيث ينظمون حياتهم السياسية . ويولس يشير إلى هذا حين يقول: « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله (روميه ١٣:١) . ولكى يبين فائدتها يضيف قائلاً : «لأنه خادم الله للصلاح»، وهو خادم الله ومنتقم للغضب من الذى يفعل الشر» (روميه ١٣:٤) .

وثانيها هو ذلك الذى يحمى به نفسه ، وهذا أيضاً ذكره الرسول عندما قال: «أفتريد أن لا تخاف السلطان ؟ افعل الصلاح» وهو هنا يشير إلى الذى يحمى نفسه.

وإضافةً لذلك فإنه يوجد نوع ثالث من الحكم وهو أسمى من الحكم السياسى، فما هو؟ إنه ذلك الذى يمارس فى الكنيسة، وهذا أيضاً ذكره بولس: «أطيعوا مرشديكم واخضعوا لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حساباً» (عبرانيين ١٣:١٧). وهذا الحكم أفضل من الحكم السياسى، كما أن السماء أفضل من الأرض، بل أكثر بكثير، لأنه يستند أساساً ليس على فكرة معاقبة الخطايا التى ارتكبت ، وإنما على فكرة عدم ارتكاب الخطايا من البداية، ثم أنه لا يسعى لإعدام المجرم بل يسعى لمحو الخطايا، فإن سلطة الكنيسة لا تعتنى بأشياء هذا العالم بل بالحرى فإن تعاملاتها كلها تعتنى بالأشياء التى فى السماء، ولذلك فإن أولئك الذين يتولون هذه السلطة مُنحوا شرفاً أعظم من نواب الملك بل أعظم من الذين يرتدون التاج الملكى أنفسهم، لأنهم يعدون الناس لأشياء أعظم ولمصير أعظم.

ولكن لا يستطيع أولئك الذين يمارسون الحكم السياسى، أو أولئك الذين يحكمون فى الكنيسة أن ينفذوا هذه المسئولية ما لم يحكموا أنفسهم أولاً كما ينبغى ، وما لم يطيعوا بكل صراحة القوانين المتتالية لحكمها.

عظات على الرسالة الى أهل افسس

(علموا الأطفال استخدام الثروة)

يجب أن نعتبر أن كل الأشياء ثانوية إذا ما قورنت بالعناية الحكيمة التى يجب أن نوليها لأولادنا «ربوهم بتأديب الرب وإنذاره» (أفسس ٦:٤). فإذا علمناهم من البداية أن يحبوا الحكمة الحقيقية فعندئذ يكونوا قد اكتسبوا ثروةً أجلّ شأناً من الثروات الأخرى جميعها،

ومجداً أسمى من كل مجد آخر. فلن يحققوا أى شئ عظيم بتعليمهم أحد الفنون، أو بإعطائهم هذا التعليم الدنيوى الذى بواسطته يحصلون على الثروات، مقارنةً بتعليمهم فن احتقار الثروة. فإذا رغبتم أن تكونوا أغنياء افعلوا هذا، لأن الغنى ليس هو الذى يرغب فى ثروات كثيرة أو الذى تحيط به الثروة الوافرة، بل ذلك الذى لا يحتاج شيئاً. أدبوا أولادكم فى هذا وعلّموهم إياه فهذا هو أعظم غنىً ، لا تحاولوا أن تعطوهم الصيت والسمعة السامية فى التعليم الدنيوى ، بل فكروا بتعمق كيف تعلموهم أن يحتقروا مجد الحياة الحاضرة ، فبهذه الطريقة سوف يصبحون متميزين ، وهذا شئ يستطيع كل من الغنى والفقير أن يحققه.

الثروة ضارة حيث أنها تجعلنا غير مستعدين لتقلبات الحياة، دعونا إذاً نربى أولادنا بالطريقة التى يكونوا بها قادرين على احتمال كل محنة، ولايندهشوا بما قد يصيبهم، وستكون الجائزة عظيمة تلك التى تحفظ لنا بهذه الطريقة ، لأنه إن كان الناس يتمتعون بشرف عظيم لمجرد أنهم يصنعون التماثيل، ويرسمون صور الملوك ألن نحصل نحن الذين نزين صورة ملك الملوك (لأن الإنسان صورة الله) على عشرة آلاف بركة إذا قدمنا مثالاً حقيقياً؟ لأن المثال يكمن فى فضيلة الروح حين ندربهم أن يكونوا صالحين حكماء ومتسامحين ومحسنين ورحماء، وحين ندربهم على أن يعيروا هذا العالم انتباهاً ضئيلاً، لتكن مهمتنا هى أن نوجه أنفسنا وأولادنا إلى ما هو صالح.

عظات من الرسالة الأولى الى تيموثاوس

(الملكية الخاصة هى أمانة وليست اقتناء)

عظة ١١ ـ الثروة ليست ممتلكات أو مقتنيات بل هى قرض نستخدمه، لأنه كيف تزعم أنها مقتنيات بينما عندما تموت ـ برغبتك أو ضد رغبتك ـ يذهب كل شئ للآخرين الذين بدورهم يعطونه للآخرين مرة أخرى؟، فكلنا مقيمون مؤقتون، وربما يكون مستأجر المنزل هو المالك الحقيقى له لأنه عندما يموت المالك يعيش المستأجر فيه ويتمتع بالمنزل، وإذا كان عليه أن يدفع لتمتعه بهذا المنزل، هكذا أيضاً ينبغى على المالك أن يدفع ليتم بناء المنزل، ويتحمل آلاف من الأعباء ليجعله ملائماً، فالملكية فى الواقع ما هى إلا كلمة ، فكلنا ملاّك لكن لمقتنيات الآخرين.

إننا نمتلك الأشياء التى تبقى لنا فى الحياة الآخرة ، فخيراتنا هنا ليست ملكنا ، فنحن

نستخدمها خلال حياتنا، ومع هذا فقد تخذلنا حتى فى حياتنا هنا على الأرض. ولذلك ففضائل الروح مثل تقديم الصدقات وفعل الخير هى فقط ما نمتلك، أما الخيرات الدنيوية فهى تعتبر أشياء ليست أساسية لأننا لا نستطيع أن نأخذ ثروتنا معنا حين نموت ، بل نستطيع أن نأخذ ما فعلناه من خير، وبذلك يمكن أن تعد لنا مسكناً فى القصور الأبدية (لوقا ١٦:٩) .

سميت الثروة (Xenuata) من استخدام كلمة (Xexpyoba) وليست من كلمة الملكية، ولذلك فالثروة ليست ملكنا والمقتنيات ليست ممتلكات بل قرض، فالفضيلة وحدها هى التى تستطيع أن ترحل معنا وترافقنا إلى البيت السماوى. دعونا إذاً نتخلى عن محبة الثروة هذه بل دعونا نخمد رغبتنا فيها كى نستطيع أن نشعل بداخلنا رغبة نحو الأشياء الأبدية .

(ليس من الممكن أن تصبح غنياً بلا ظلم)

عظة ٣ ـ لكن أنتم أيها المتمرسون فى الأمور الدنيوية، ألا تعرفون كم عدد الناس الذين بعد كد شاق لم يتمتعوا بثمار عملهم، الذين يذبلون ويقتطفهم الموت قبل الأوان أو تلاحقهم النكبات أو يهاجمهم المرض، أو يدمرهم من يتهمونهم زوراً أو غيرها من الأسباب التى أجبرتهم على أن يرحلوا وهم لا يمتلكون شيئاً .

لكن قد يعارضنى البعض: « ألا ترى هؤلاء المحظوظين الذين يربحون الأشياء الصالحة فى الحياة بقليل من العمل» ، لكن ما هى تلك الأشياء الصالحة؟ أهى الأموال، والمنازل، والأفدنة الكثيرة من الأرض ، أهى حاشية من الخدام ، وكومات من الذهب والفضة ؟ أتستطيع أن تسمى هذه أشياءً صالحة ؟ كيف يستطيع الإنسان المدعو للسعى وراء الحكمة السماوية أن يشتهى الأشياء الدنيوية ويسمى هذه الأشياء التى لا قيمة لها «صالحة». فاذا كانت هذه الأشياء صالحة فمن يمتلكونها يجب أن يدعوا صالحين، لأنه أليس صالحاً من يمتلك الصالح ؟ ولكن إن كان ملاك هذه الأشياء مذنبون بسبب الاحتيال والسرقة أندعوهم صالحين ؟ لأنه إن كانت الثروة شيئاً صالحاً ولكن تزداد بالطمع ، فالإنسان الأكثر طمعاً يصبح بذلك أفضل من غيره ، ألا يعارض ذلك نفسه بوضوح ؟ لكن افترض ان الثروة لا تربح بالظلم ، ولكن كيف يكون ذلك مستطاعاً؟ فالطمع رغبة مدمرة لأنه من الصعب أن تصبح غنياً بدون ظلم ، أوضح المسيح ذلك قائلاً : « اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم » (لوقا ١٦ : ٩) . ولكن قد تقول ماذا عن الإنسان الذى أخذ ميراثاً من أبيه ؟ فهو أيضاً قد أخذ ما تم جمعه بالظلم .

(المعنى الحقيقى للملكية الخاصة)

أخبرونى إذن من أين تأتون بثروتكم ؟ ممن أخذتموها ، وممن أخذها الذي نقلها إليكم؟ «من أبى، الذى أخذها من جدى» ولكن أتستطيع أن تبين أن هذه الثروة اكتسبت بالحق إذا عدت إلى أجيال عديدة فى الماضى؟ لا، لا تستطيع، فأصلها ومنبعها لا بد أن يكون الظلم ، لماذا؟ لأن الله فى البدء لم يجعل إنساناً غنياً وآخر فقيراً، وكذلك لم يكشف لأحدهم كنوزاً من الذهب وحرم الآخر من حق البحث عنها، بل بالحرى ترك الأرض حرة للجميع سواسية، فإذا كانت الأرض مشتركة فكيف إذن يكون لديك العديد والعديد من الأفدنة بينما لا يمتلك جارك أى جزء منها؟ قد تقول «أبى نقلها لى» ولكن ممن أخذها هو ؟ ستقول : « من جدى». لكن يجب عليك أن تعود للوراء وتجد الإجابة الأصلية.

كان يعقوب غنياً لكنه اكتسب ثروته كمكافأة عن أعماله الصالحة، لن أدقق فى هذه المناقشة باستفاضة. لنقل إن الثروة ينبغى أن تكتسب بالحق وبلا سلب لأنك لست مسئولاً عن أفعال أبيك الجشعة، قد تكون ثروتك مستمدة من السلب ولكنك لم ترتكب فعل السرقة لان الذهب استخرج من مكان ما فى الارض، وهل هذا يبعد الشبهة عن الثروة ؟ ربما لا توصف الثروة بالشر أو السوء إذا لم يشوبها الجشع ، وإذا وزعنا منها على الفقراء ، ويبقي اعتراض علي ذلك وهو : إذا لم يكن صاحب الثروة قد ارتكب شراً ولا فعل صلاحاً فأين السوء فى ذلك ؟ ونجيب فنقول : أليس شراً أن تمتلك بمفردك ممتلكات الرب ، وأن تتمتع وحدك بما هو مشترك؟ أليست الأرض وكل ما فيها لله؟ فإذا كانت مقتنياتنا تخص الرب فهى تخص اخواننا من الخدام ، فمقتنيات الرب هى جميعها مشتركة ، ألا ترى أن هذه هى القاعدة الرسمية فى المنازل الكبيرة ؟ يُعطى للجميع حصة متساوية من الإمدادات لأنها تنبع من كنوز الرب ، وبيت السيد مفتوح أمام الجميع، مقتنيات الملك جميعها مشتركة: المدن، الأسواق والشوارع العامة جميعها تتشارك فيها بالتساوى.

لاحظ التدبير الإلهى الحكيم ، إنه ليخجل الجنس البشرى، أن أوجد الله أشياءً معينة مشتركة مثل الشمس والهواء والأرض والماء والسماء والبحر والنور والنجوم، ووزع فوائدها بالتساوى على الجميع كإخوة، فنحن جميعاً خلقنا بنفس العيون، نفس الجسد، نفس الروح ونفس التكوين فى كل النواحى. كل الأشياء إنما تأتى من الأرض، كل الناس من إنسان

واحد والجميع فى نفس السكنى، بيد أن هذه كلها ليست كافية لتخجلنا، لذلك جعل بعض الأشياء الأخرى مشتركة أيهاً كما قلنا: الحمامات، المدن، الأسواق والشوارع.

إضافةً لذلك لاحظ الآن فيما يتعلق بالأشياء المشتركة ، كيف أنه لا يوجد نزاع عليها فالكل يستخدمها فى سلام ، ولكن بمجرد أن يحاول أحدهم أن يقتنى شيئاً ويجعله حكراً له فعندئذ يظهر النزاع ، كما لو أن الطبيعة نفسها تحتج ضد هذا التصرف ، وبينما يجمعنا الله بكل طريقة، نسعى نحن لنقسم ونفصل أنفسنا وذلك عن طريق تخصيص الأشياء واستخدام هذه الكلمات الفاترة «ملكى وملكك» ، عندئذ تظهر الصراعات والكراهية، ولكن حيث لا يحدث هذا لا تظهر الخلافات أو الصراعات.

من ثم نختتم الحديث بالقول : إن المشاركة العامة أكثر ملائمة وانسجاماً مع طبيعتنا. ما سبب عدم وجود أية نزاعات فيما يتعلق بالسوق؟ أليس لأن الجميع يتشاركون فيها؟ أما بالنسبة لأحد المنازل أو الممتلكات أو الأموال فإن الصراعات لاتنتهى أبداً، فالأشياء الضرورية جعلت مشتركة بينما لا تجد مشاركة أو مساواة فى أقل الأشياء أهمية، ومع هذا فقد أتاح الله أمام الجميع تلك الأشياء العظيمة كى نتعلم كيف نتشارك فى هذه الأشياء الأقل شأناً ، ومع هذا وعلى الرغم من كل مما تقدم نحن لم نستوعب الدرس بعد .

العصر الذهبى لأدب آباء الكنيسة اللاتينية

بينما بلغ عصر آباء الكنيسة اليونانى أوجّه فى الشرق بواسطة الآباء الكابادوكيين (Cappadocian) ويوحنا ذهبى الفم ما بين القرنين الرابع والخامس، حقق أدب آباء الكنيسة اللاتينية أسمى تألق له مع أمبروز وجيروم وأوجستين خلال نفس هذه الفترة تقريباً، فى هذا الفصل سندرس التعاليم الاجتماعية لأمبروز وجيروم، أما أوجستين فيستحق دراسة منفصلة فى الفصل التالى ، وذلك بسبب حجم كتاباته وأهمية عقيدته.

الجزء الأول

أمبروز من ميلان (Ambrose of Milan)

كان أمبروز (٣٣٧ ـ ٣٩٧) ـ أسقف ميلان ـ عالماً لاهوتياً وكاهناً بارزاً ورجلاً ناجحاً وإدارياً مفعماً بالحيوية ذا إرادة حديدية، وإحساس شديد بالانضباط، ونزعة عقلية عملية رائعة، وكان له أيضاً نشاط سياسى مكثف اتخذ أشكالاً متنوعة مع جراتيان وجوستنيان وفالينتينيان الثانى وثيودوسيوس.

فيما يتعلق بالتعاليم الاجتماعية فإن أهم أعماله هى (عن نابوت) و (عن طوبيا) . و(فى الواجبات) أما كتابه عن نابوت فهو عبارة عن نقد لاذع ضد جشع الأغنياء واتخذ من أحد الأحداث فى حياة نابوت فى سفر الملوك الأول أساساً له ، أما فى طوبيا فإنه يناقش ممارسة الإقراض بفائدة، وفى كلا العمليتين يظهر بوضوح أثر أفكار باسيليوس، أما بالنسبة للعمل الذى يحمل عنوان «فى الواجبات» فهو عبارة عن أول بحث فى الأخلاق المسيحية، وقد اتخذ منهجه من عمل شيشرون الذى يحمل نفس الاسم (De officiis) ، وأفكاره الأخلاقية مستمدة من الرواقية، ولكن بعد أن تحولت بالكامل لفعل الإيمان المسيحى، ومن العقيدة الاجتماعية لأمبروز سنناقش ثلاثة موضوعات: العدل ـ الملكية الخاصة ـ والعلاقة بين الكنيسة والدولة.

يرى أمبروز أن العدل هو فضيلة اجتماعية ، وهو يعلن أن المبدأين اللذين يتحكمان فى المجتمع ويحفظاه هما العدل والنية الطيبة، الأول يعنى ضمناً الحكمة والثانى يتضمن

الصلاح («فى الواجبات» ١، ٣٨، ١٣٠) . العدل هو أحد الفضائل الرئيسية الأربعة التى تحافظ على المصلحة العامة. فلا يوجد فضيلة تقدم منافع وفيرة أكثر من الإنصاف أو العدل الذى يجعل المرء يعتنى بالآخرين أكثر من النفس، ويهمل مصلحته الخاصة مفضلاً عليها المصلحة العامة. هذا ما يؤكده أمبروز فى (فى الفردوس ٣، ١٨) ، أما الالتزام بالسعى وراء المصلحة العامة فيوجد فى القانون الطبيعى نفسه، لأن الإنسان ليس مثل الحيوان لأن الأول ينبغى أن يسعى لرفاهية الآخرين «يلزمنا قانون الطبيعة أن نعمل من أجل خير الجميع» (Ibid) وهكذا يكون تصور أمبروز للعدل قريباً جداً لتصورنا «عن العدالة الاجتماعية» فى هذه الأيام.

وفيما يتعلق بالملكية الخاصة كانت تعاليم أمبروز موضوعاً لتفسيرات متعارضة. يرى دودن فى كتابه «حياة وأوقات القديس أمبروز» (المجلد الثانى اكسفورد ١٩٣٥) أنه بالنسبة لأمبروز هناك تعارض بين الملكية الشخصية والقوانين السماوية والطبيعية، وهى نتيجةً للطمع الإنسانى، وتوجد بعض العبارات القليلة التى تؤيد هذا التفسير، ونقدم هنا بعض عينات منها «خلق العالم للجميع ـ بصفة عامة ـ ومع هذا تحاول حفنة من الأغنياء أن تجعله حكراً لها» (نابوت ، II). حين تعطى للفقير فأنت لا تعطيه مما تملك بل بالأحرى ترد له ما يخصه، لأنك فعلاً اغتصبت لنفسك ما يتشارك فيه الجميع وما أعطى للجميع ليستخدمونه . الأرض هى للجميع وليست للأغنياء فقط، ومع هذا فإن الذين يتمتعون بها أقل بكثير من المحرومين منها، ولذلك فأنت ترد دينك ولست تعطى بلا مبرر ما لا يجب عليك (Ibid 35) . علاوة على ذلك فإنه من الظلم ألا يساعد الإنسان أخاه الإنسان الذى هو مساو له تماماً ، ولاسيما أن الله يريد أن تكون الأرض ملكية مشتركة للجميع وأن تتاح ثمارها للجميع، وعلى العكس من ذلك فقد أهدر الطمع حقوق الملكية (تعليق على المزمور ١١٨، عظة ٨، ٢٢) وهذا ما اعتبره الفلاسفة أنه من العدل أن تكون هناك ملكية مشتركة ويقصدون بها الملكية العامة وأن تكون هناك ملكية خاصة ليتصرف فيها مالكها كما يحلو له . ولكن هذا لا يتفق مع الطبيعة لأن الطبيعة سكبت كل الأشياء ليتم استخدامها على نحو مشترك، والله نفسه أمر أن تنتج كل الأشياء ليكون هناك خير مشترك للجميع لتصبح الأرض نوعاً من الملكية المشتركة للجميع، وعلى ذلك نرى أن الطبيعة أنتجت حقاً عاماً للجميع لكن الطمع جعل هذا حقاً لفئة قليلة (فى الواجبات I ٢٨، ١٣٢).

ومما لاشك فيه أننا يجب أن نفسر هذه النصوص فى إطار معناها المباشر، وكذلك فى إطار التعاليم الاجتماعية لأمبروز ، ولكى نفهمها على نحو صحيح يجب أن نتذكر أن أمبروز ـ مثله فى ذلك مثل الآباء الآخرين ـ لم يطور نظاماً كاملاً للفكر الاجتماعى يتم من خلاله تعريف كل مصطلح فيه بوضوح مثل (خاص، عام، حق الملكية، استخدام، مشاركة). فالذى يريد أن يؤكده أمبروز فى هذه النصوص هو أن كل خيرات الأرض إنما خلقت ليستخدمها جميع الناس (ليس بمعنى أن «تمتلك» بلا حدود وبالتشارك مع الجميع) وأن كل الناس لهم حق طبيعى فى أن يستخدمونها، وأن حق الملكية الخاصة ليس مطلقاً بل هو فى الأساس محدد، وأن هناك واجباً صارماً تجاه العدل وليس تجاه فعل الخير فحسب. لنشرك الآخرين فى هذه الخيرات . ولا يوجد أدنى شك عند أمبروز فى أن الملكية الخاصة بشكلها الكامل والمطلق إنما هى نتيجة للخطية والطمع، ومن ثم فإن الطريقة الوحيدة للتخلص من هذه الملكية الخاصة هى المشاركة غير الأنانية.

كان أمبروز ـ لكونه أسقفاً لميلان ـ على اتصال قريب بالأباطرة الذين كثيراً ما كانوا يقيمون فى أبروشيته ، والحوادث التى وقعت بينه وبينهم معروفة جيداً: صراعه فيما يتعلق بمذبح الانتصار مع سيماكوس وجوستينا ، رفضه تسليم الكاتدرائية البونتية والكاتدرائية الجديدة للآريوسيين بناء على طلب جوستينا، بعثاته الدبلوماسية إلى مكسيموس، احتجاجه ضد أمر ثيودوسيوس لإعادة بناء المعبد فى كالنيكوم، حرمانه ليثودوسيوس لما أنزل من عقاب مفرط على شعب تسالونيكى.

لم يكتب أمبروز بحثاً خاصاً عن العلاقة بين الكنيسة والدولة، فأفكاره فيما يتعلق بهذا الموضوع عبارة عن ملاحظات علّق بها على الأحداث السياسية، أو أطلقها أثناء تفسيره للكتاب المقدس وهو يرى أن نظام الدولة وضعه الله وهو شئ حسن . وأما من حيث المبدأ فالدولة تسبق السقوط فذلك أمر طبيعى ، ومع ذلك فبسبب الخطية لم يعد المجتمع ما ينبغى أن يكون عليه لأن بعض مؤسساته الاجتماعية كالعبودية والملكية الخاصة ظهرت فى شكلها المطلق كنتيجة للسقوط .

وبينما يعتبر أمبروز أن الدولة شئ طبيعى، إلا أن السلطة العسكرية هى ثمرة للخطية، وهى ليست اختراع الشيطان، ولكنها علاج للخطية توافق عليه السماء، وهكذا فحيثما يوجد ملك يجب أن يقبل كسلطة يعينها الله وأن يُعطى ما يستحق.

وهكذا يوجد مجتمعان مميزان: الكنيسة والدولة، فما هى العلاقة بين هاتين الجماعتين؟ نتذكر أنه حين تحولت الإمبراطورية الرومانية الى المسيحية اعتبر قسطنطين نفسه مسئولاً أمام الله عن خير الكنيسة والدولة معاً ، ثم طور يوسابيوس من قيصرية هذا التصور إلى نظرية لاهوتية فى تفوق السلطة الإمبريالية على الكنيسة. لكن أثناسيوس وباسيليوس فقد اعترضا على هذا التصور ولكن بلا نتيجة، وفى الغرب أيضاً احتج هوسيوس من قرطبة وهيلارى من بوتييزر بشدة ضد هذا التصور.

بيد أنه لم يؤكد حق الكنيسة فى الاستقلال عن الدولة سواء فى النظرية والتطبيق إلا مع مجئ أمبروز، فهو يُفرق بين الدولة Reespublica والكنيسة religio ، فالأخيرة تمتلك حق الحرية فى مسائل الإيمان.

أما بالنسبة للتطبيق فإن حق الحرية هذا يعنى أن ممثلى الكنيسة، هم حكومة ، وهؤلاء يجب ألا يكونوا خاضعين لإشراف الدولة والسلطة العلمانية، فالأساقفة فقط وليس الأباطرة هم الذين يحاكمون إخوانهم من الأساقفة، وعلى النقيض من ذلك فإن الأباطرة المسيحيين يجب أن يخضعوا للأساقفة فيما يتعلق بمسائل الإيمان «فالإمبراطور فى الحقيقة هو فى الكنيسة وليس فوق الكنيسة» .

«الأشياء المقدسة لا تخضع لسلطة الإمبراطور» (خطاب ٢٠. ٨) واخيراً لا تخضع الكنائس والمبانى الإكليركية لسلطة الإمبراطور: «القصور تخص الإمبراطور أما الكنائس فتخص الأسقف» (خطاب ٢٠، ١٩) .

إضافة لذلك فبينما ينبغى على الإمبراطور المسيحى ألا يتدخل فى شئون الكنيسة يجب عليه أن يساعد فى وضع قرارات الكنيسة حيز التنفيذ حتى ولو بالقوة ، وكذلك يجب عليه أن يحمى الدين الحقيقى والكنيسة الحقيقية، وذلك بأن يحظر الديانات الوثنية، ويعاقب المهرطقين. أما الكنيسة فبما لها من دور في تطبيق القانون الأخلاقى فلها أن ترشد الإمبراطور فى قراراته بواسطة الأساقفة حتى تسير وفقاً للمعايير الأخلاقية، حتى لو اضطرت إلى استخدام قوتها الخاصة وهى العقوبات الروحية والحرمان والتهديد باللعنة.

وهكذا قام أمبروز فى الحقيقة بحرمان ثيودوسيوس وماكسيموس ويوجينوس لأن الامبراطور - كمسيحى - هو من داخل الكنيسة و- كعلمانى - هو خاضعُ للأسقف.

وعلى ذلك فعقيدة أمبروز بخصوص العلاقة بين الكنيسة والدولة لا تؤيد عالمين كاملين بالتبادل بل تتضمن تفسيراً للكنيسة والدولة، فبين الأثنين توجد علاقة متبادلة لكن السلطة المطلقة تعطى ليد الكنيسة، لأن الملك لا يكون مسئولاً أمام الله مباشرة بل أمام الكنيسة. وقد اضطرت الكنيسة فى مرات عديدة أن تخبر المؤمنين عما إذا كان الملك قد تصرف على نحو صحيح ومن ثم وجبت عليهم طاعته أم لا .

إنه يوجد سؤال قائم ، هل يمتلك الأسقف أو مجموعة من الأساقفة المعرفة والحكمة الكافية ليعلنوا بيقين مطلق وبلا أدنى احتمال فى الوقوع فى الخطأ أن الملك قد تصرف على نحو ظالم ومن ثم لا حق له فى أن يطلب من رعيته الطاعة .

النظام السياسى البدائى والحالى

فى البداية، مارس الناس سلطتهم السياسية المعطاة لهم بالفطرة مثل النحل، وعلى هذا فقد كان العمل والكرامة مشتركين ، وتعلم الأفراد كيف يتشاركون في واجباتهم وكيف يقسمون سلطتهم ومكافآتهم ولم يستثن أحد من الشرف أو العمل. وقد كانت هذه أفضل حالة للأمور حيث لا يمكن للمرء أن يصبح متغطرساً عن طريق امتلاك السلطة بصورة دائمة، أو يُسحق بواسطة الخضوع المتواصل . كانت الترقية تتم بدون حسد وفقاً لنظام المراكز ومقدار الوقت، كانت المناصب تعطى بالتناوب بأسلوب يتميز بالتسامح ولا يستطيع أحد أن يجرؤ ويلقى عبئاً ثقيلاً على زميله الذى سوف يأتى بعده فى مكان العمل . وهذا الأخير بدوره لا يمكن أن يفكر فى إلحاق الأذى بزميله. ولم يشعر أحد بثقل الحمل إذا عرف أنه سيحصل على الشرف فى النهاية.

بيد أنه - بعد ذلك - بدأ الناس فى اشتهائهم للقوة أن يدّعوا حقهم فى السلطة التى لا يستحقونها ولم يرغبوا فيما بعد فى التخلى عما حصلوا عليه ، وأصبحت الخدمة العسكرية عبئاً بعد أن كانت حقاً عاماً . اختفى نظام التعاقب فى السلطة فكان كل فرد حراً فى أن يغتصب لنفسه ما يستطيع الحصول عليه وأصبحت المناصب أكثر صعوبة فى تحملها، ولأنها لم تكن تشغل بصورة اختيارية فقد تعرضت للإهمال، لأن أى شئ مهما كانت سهولته قد يصبح صعباً عندما يكون إجبارياً.

وهكذا نزع العمل والخضوع المستمر إلى تدمير المحبة والمصلحة، أما امتلاك السلطة

المستمر والمتواصل فقد أنتج الغطرسة . فمن ذلك الإنسان الذى يستطيع أن يترك سلطته باختياره، ويتخلى عن مملكته العظيمة، وينقل نفسه بمحض إرادته من الأول للآخر؟ فنحن لا نتصارع على المناصب العليا فقط ولكن أيضاً على المناصب المتوسطة، بل نتنازع على الأماكن الأولي في الموائد. وأما إذا تصادف وشغلنا مركزاً من مراكز المسئولية فلا نرغب فى التخلى عنه، وعلى النقيض من ذلك ففى العصور القديمة نجد مساواة فى العمل وتواضع فى السلطة.

الفردوس

(فضيلة العدل ، أساس المجتمع)

(النهر الرابع هو الفرات) وهو يعنى في اللغة اللاتينية «الخصب ووفرة الثمار»، إنها رمز العدل وغذاء كل روح، لا تستطيع فضيلة أخرى أن تنتج منافع أوفر من الإنصاف أو العدل، فهذه الفضائل تهتم بالآخرين أكثر من اهتمامها بنفسها، وتهمل مصلحتها الخاصة مفضلةً عليها الخير العام . العدل هو أهم فضيلة لأنه يمثل الانسجام بين الفضائل الأخرى، وهو لا يمكن تقسيمه إلى أجزاء ، إنه لا يزال أصل كل الفضائل.

«فى نابوت »

(طموح الأغنياء وطمعهم)

مع أن قصة نابوت قديمة إلا أنها ذات مغزى دائم، فالأغنياء والأثرياء يشتهون خيرات الآخرين كل يوم ، ويحاولون باستمرار أن يجردوا المتضعين من ممتلكاتهم، وأن يسرقوا ممتلكات الفقراء التى هى عبارة عن قطعة أرض صغيرة متوارثة. وبسبب عدم رضائهم عن ما لديهم ، فإنهم يشعرون أن رغبتهم تشغلها ممتلكات جيرانهم، ولذلك فإن آخاب ليس مجرد شخص وُجد منذ فترة طويلة مضت بل يشهد العالم كل يوم - مع الأسف - مولد العديد من الأشخاص مثل آخاب . وهذا النوع لا ينقرض أبداً ، فإذا مات أحدهم فإن حشداً منهم يقوم بدلاً منه لكى يستمر عدد الذين يُسلبون أكثر من عدد الذين يسلبون، فنابوت ليس شخصاً واحداً فحسب ، فقير أُغتيل ذات مرة ، بل هناك أشخاص مثل نابوت يتم تقديمهم للموت. فكل يوم يتم اغتيال الفقراء.

أنتم أيها الأغنياء إلى أين يسوقكم طمعكم المسعور؟ لِمَ تنبذون الناس الذين هم مخلوفات مثلكم وتدّعون أن كل الخليقة هي ملك لكم؟ في البدء كانت الأرض للجميع مشاركة، وخلقت للأغنياء والفقراء على السواء، فأى حق لكم إذن في احتكارها؟ الطبيعة لا تعرف شيئاً عن الأغنياء، فالجميع فقراء عندما يولدوا ، حيث نولد بلا ثياب أو ذهب أو فضة أو طعام أو شراب أو غطاء . والذى يولد فى القصر لن يستطيع أن يأخذ فدادينه معه، بل تكفيه قطعة أرض صغيرة .

فكما أن الطبيعة كانت غير متحيزة عند مجيئنا تكون كذلك أيضاً عند رحيلنا، فهى تلدنا متساوين وتدفننا متساوين داخلها. فمن يستطيع أن يميز بين الطبقات وسط الأموات؟ افتح الأرض ثانية واعثر على النفس - إن استطعت - ثم احفر قبراً آخر بعد ذلك، واثبت أن هذا المائت كان فقيراً، الفرق الوحيد هو أن الغنى أفنى معه أشياء أكثر مثل الثياب الحريرية والأقمشة المذهبة التي تغلف جسده ، إنه يترك وراءه ورثة ليتخاصموا.

٤ - وحتى فى أثناء حياته لماذا يعتقد أن لديه كل شئ بوفرة؟ أنت أيها الغنى الذى تسمى نفسك ثرياً أنت لا تعلم كم أنت محتاج وكم أنت مُعوز فعلاً، فكلما ازداد ما لديك كلما ازدادت إعوازك ، وعلى الرغم من كثرة ما تفوز به فلا تزال فقيراً فى عينيك، الجشع لا يخمده كثرة الربح بل يثيره أكثر وأكثر، والكتاب المقدس يبين لنا كيف أن الغنى قد يصبح فقيراً بائساً وضيعاً.

٥ - لقد كان آخاب ملكاً لإسرائيل ، أما نابوت فقد كان رجلاً فقيراً (١ملوك ٢١)، الأول كان يتمتع بفيض المملكة كلها أما الآخر فكان يمتلك قطعة أرض صغيرة، وعلى الرغم من هذا فلم يشته أياً من ممتلكات الغنى ، أما آخاب فقد اعتبر نفسه معوزاً لأن جاره الفقير كان له كرماً، فأى منهما تعتقد أنه كان فقيراً .

لكن دعونا نرى كلمات الكتاب المقدس: «١- وحدث بعد هذه الأمور أنه كان لنابوت اليزرعيلى كرم فى يزرعيل بجانب قصر آخاب ملك السامرة، ٢- فكلم آخاب نابوت قائلاً اعطنى كرمك فيكون لى بستان، لأنه قريب بجانب بيتى فأعطيك عوضه كرماً أحسن منه أو إذا حسن فى عينيك أعطيتك ثمنه فضة ٣- فقال نابوت لآخاب حاشا لى من قبل الرب أن أعطيك ميراث آبائى ٤- فدخل آخاب بيته مكتئباً واضطجع على سريره وحوّل وجهه ولم يأكل خبزاً» (ملوك الأول ٢١ : ١-٤) .. ما الذى قاله الملك ؟

ألم يقل «اعطنى» أليست هذه كلمات الفقراء وبعض المتسولين فى الشوارع ؟ «اعطنى، اعطنى - إنى مُعوز اعطنى - ليس لدى ما يقيم أودى، اعطنى - ليس لدى ما آكل أو أشرب أو أكسو نفسى، ليس رغيف أو عُملة ولا شئ على الإطلاق ، اعطنى - الرب أعطاك لذلك يجب عليك أن تعطينى، إنه لم يعطنى شيئاً، اعطنى فأنا عاجز إن لم تعطنى، اعطنى - مكتوب «قدم صدقة»،يا لها من ذلة واحتقار تلك التى يظهرها هذا الموقف! لا يوجد أى شعور بالاتضاع فى هذا بل طمع مستعر فقط، ويالها من وقاحة تلك التى تظهرها هذه الكلمات الذليلة! إنه يقول اعطنى كرمك، «فأعطيك عوضه كرماً»، الغنى يزدرى ما يمتلك ويرى أنه لا قيمة له ويشتهى ما للآخرين ويرى أنه ثمين جداً «أو إذا حسن فى عينيك أعطيتك ثمنه فضة» إنه يحاول أن يغطى خطأه الأول فيعرض المال مقابل الكرم، إنه يريد أن تمتد ممتلكاته إلى كل مكان ولا يمتلك أحد آخر أى شئ.

١١ - « فيكون لى حقل بقول» هذا إذن هو الهدف من كل هذا السُعار الجامح، إنه يريد مساحة للبقول. هكذا أنتم أيها الأغنياء إنكم لا تتطلعوا للتملك لكى تستخدموا ممتلكاتكم بل بالحرى تريدون أن تبعدوا الآخرين، إنكم تهتمون بسرقة الفقراء أكثر من اكتساب أى شئ لأنفسكم، إنها إهانة لكم إذا كان لأحد الفقراء شئ ما يتطلع الغنى لامتلاكه، إنكم تنظرون للأشياء التى تخص الآخرين كما لو كنتم قد خسرتموها، فأى متعة تأتى لكم من تبديد ثروة الطبيعة؟ خُلق العالم للجميع ، ومع ذلك تحاول حفنة من الأغنياء أن تجعله حكراً لها.

١٢ - يصرخ النبى قائلاً : « ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ويقربون حقلاً بحقل » (إشعياء ٥:٨) ويتهمهم بالطمع الذى يتعدى أهدافه الخاصة، إنهم يهربون من الحياة مع الآخرين ويطردون جيرانهم إلا أنه يتضح استحالة الهرب، لأنهم حين يطردون هؤلاء يجدون آخرين وبعد طرد الجديد يجدون أيضاً جيراناً جدد لأنهم لا يستطيعون أن يحيوا على الأرض بمفردهم .

١٣ - استمعنا إلى كلمات الغنى الذى يسعى خلف ممتلكات الآخرين فاسمع الآن دفاع الفقير عما يملك: «حاشا لى من قبل الرب أن أعطيك ميراث آبائى» . إنه ينأى بنفسه عن أموال آخاب كما لو كانت وباءً.

١٤ ـ اضطربت روح الملك الجشعة بهذه الكلمات فاضطجع على سريره وحوّل وجهه، ولم يأكل خبزاً. يحزن الأغنياء إذا منعوا من النهب، وإذا لم يتخل الفقير عن ممتلكاته فلا يستطيع الأغنياء أن يخفوا شدة حزنهم ويلجأون للنوم ، ويغطون وجوههم، ولا يستطيعون أن يحتملوا فكرة وجود شئ ما فى مكان ما يخص شخص آخر ، أو أنه يوجد شئ ما فى العالم كله لا يمتلكونه أو يعرفون أن أحد الجيران لديه ممتلكات أو يسمعون صوت الفقير الذى يتحداهم.

١٥ ـ « ولم يأكل خبزاً » لأنه كان يريد خبز الآخرين، الخبز الذى يأكله الأغنياء يخص الآخرين أكثر منهم، لأنهم يحيون على السلب وما يدفعونه إنما يأتى مما ينهبونه، أو قد نقول إنه حين لم يأكل كان يعنى أن يوقع عقاب الموت على نفسه لأنه حُرم من شئ ما.

١٦ ـ قارن هذا كله بحالة نابوت، الذى لم يكن يملك شيئاً، وبالنسبة له لا يوجد أى شئ يدفعه للصوم بسبب مشكلة تؤرقه كما حدث مع الملك ، فنابوت لا يصوم إلا إذا كان الصوم تقرباً لله أو بسبب الحاجة ، وهكذا أنتم أيها الأغنياء تسرقون كل شئ من الفقراء وهم الذين يعانون من عقوبة الإعواز، أما الفقراء فهم لايفعلون هذا، إنهم يصومون إذا لم يكن لديهم أى شئ وأنتم تصومون عندما يكون لديكم ، ومن ثم تجلبون عقاباً على أنفسكم قبل أن توقعونه على الفقراء ، فتعانون من آلام الحاجة الشديدة بسبب طبيعة عقولكم ، الفقراء ليس لديهم شئ يتمتعون به ، أما أنتم فلن تتمتعوا بما لديكم ولن تتركوا الآخرين يتمتعون به، تستخرجون الذهب من المناجم ثم تقومون بدفنه مرة أخرى ، وكم من حياة تدفنونها معه أيضاً.

١٧ ـ ولمن تحفظ ثروتك؟ أنت تقرأ عن الغنى البخيل الذى: «يدخر ذخائر ولا يدرى من يضمها» (مزمور ٣٩:٧) ، فوريثك يحيا فى كسل ولا يعمل وقد يتذمر ويشكو من طول عمرك، إنه يستاء بينما ميراثه يأخذ فى الازدياد، ويتوق إلى اللحظة التى يستطيع فيها أن ينفقه . إنه لشئ محزن حقاً ألا تتلقى امتناناً حتى من الذى ينتفع بأعمالك ، إنك تجوّع نفسك لعدة أيام من أجله خائفاً من الوجبات وتأثيرها السلبى على امداداتك، ومن أجله تصوم كل يوم.

١٨ ـ أعرف رجلاً غنياً كان عندما يذهب إلى الريف يشترى أرغفة صغيرة الحجم من

المدينة حتى أن المرء يستطيع أن يعرف من عدد الأرغفة مقدار الأيام التى يقضيها فى الريف، إنه يغلق مخزنه ولا يفتحه حتى لا تنتقص ممتلكاته، ويسمح لنفسه أن يتناول رغيفاً واحداً يومياً يكفى بالكاد شهية أحد البخلاء وسمعت عن هذا البخيل - وأنا أصدق ذلك - أنه إذا قُدمت له بيضة فى إحدى الوجبات كان يشكو من أن هناك حاجة سوف تنقص من عنده، وأنا أسجل هذا لكى أوضح لكم أن عدل الله يعاقبكم على أعمالكم بمثلها مستخدماً تقشفكم لينتقم لدموع الفقراء.

(رياء صوم الغنى)

٤٤ - يرسم الكتاب المقدس صورة حية للأغنياء وطرقهم وكيف ينفطر قلبهم حزناً حين لا يستطيعون سرقة جيرانهم، ويرفضون أن يأكلوا، ويصومون ليس ليقللوا جريمتهم بل لينفذوها، وتراهم فى مثل هذه الأوقات ينضمون لجماعة المصلين فى الكنيسة فى طاعة وانتظام ورزانة آملين أن يفوزوا بالنعمة ليحققوا هدفهم الشرير لكن الله يقول لهم: «أمثل هذا يكون صوم أختاره - يحنى كالأسلة رأسه ويفرش تحته مسحاً ورماداً هل تسمى هذا صوماً مقبولاً للرب.. حلّ قيود الشر فكّ عقد النير وأطلق المسحوقين أحراراً وقطّع كل يد، أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك » (إشعياء ٥٨: ٧) .

٤٥ - أنت أيها الغنى هل تسمع ما يقوله الرب الإله؟ ومع ذلك تذهب إلى الكنيسة ليس لتعطى الفقراء بل لتأخذ وتصوم ليس لتذهب ثمن وجبتك إلى الذين يحتاجون بل لتربح شيئاً منهم بالسرقة ، وماذا تقصد بخطابك وورقتك وخاتمك وكتابتك وقيدك القانونى؟

ألم تسمع هذه الكلمات: «حل قيود الشر، فك عقد النير، وأطلق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير» ؟. أنت تبين لى ألواحك وأنا أنطق كلمات ناموس الله، أنت تكتب بالحبر وأنا أستشهد بوحى الأنبياء المكتوب بروح الله، أنت تخترع شهادة زور وأنا أستدعى للشهادة، ضميرك الذى يتكلم ضدك بالحكم الذى لا تستطيع أن تتجنبه أو تهرب منه، والذى لا تستطيع إنكار شهادته فى اليوم الذى يعلن الله فيه أسرار الإنسان، انت تقول: «أهدم مخازنى» أما الرب فيقول: بل بالأحصى اجعل كل المخزون فيها لخدمة الفقراء والمحتاجين أنت تقول: «أبنى أكبر منها وأجمع هناك جميع خيراى» والرب يقول «أن تكسر للجائع خبزك» أنت تقول: «ضخذ بيت الفقير منه» والرب يقول: «أن تدخل المساكيژ التائهين إلى

بيتك» . فكيف تطلب من الله أن يصغى لك وأنت لا تصغى لصوت الله نفسه ؟ وإن لم تشبع نسوة الغنى يختلق الذرائع، ويعتبر رفض ما يطلبه إهانة وجهها له الله.

(مشاركة الثروة واجب من واجبات العدل)

٥٣ - إن كل ما تعطونه للمحتاجين - يا أيها الأغنياء - يحقق ربحاً لأنفسكم ، وتزداد ممتلكاتكم حين يكون من المفترض أن تنتقص، أنتم تُطعمون بالخبز الذى تعطون للفقراء، لأن من يرحم الفقير تحفظه ثمار الشفقة، تُزرع الرحمة فى الأرض وتثمر فى السماء وما يزرع فى الفقراء ينتج أمام الله، الرب يقول لك «لاتقل سأعطيك غداً» (أمثال ٣:٢٨) فإذا كان لايحتمل قولك «سأعطيك غداً» فكيف يستطيع أن يحتمل ردك «لن أعطيك»؟ فأنت حين تعطى للفقير لا تعطه مما هو لك بل ترد إليه ماله، فالأشياء المشتركة للجميع والتي أُعطيت للجميع ليستخدموها اغتصبتها أنت لنفسك فقط، الأرض تخص الجميع وليس الأغنياء فقط، ومع هذا فالذين لا يتمتعون بها أقل بكثير من الذين يتمتعون بها، أنتم إذن تردون دينكم ولستم تعطون مجاناً ما لا تملكون .

(الغنى والفقير متساويان)

٥٤ - ما سبب غرورك إذن أيها الغنى؟ كيف تقول للفقير « لا تلمسنى »؟ ألم تحمل فى الرحم وتولد مثل الفقير؟ ولِمَ تتباهى بأصلك النبيل؟ فبينك وبين أمثالك يتم تتبع سلالة أحد الكلاب مثل سلالة أحد الأغنياء ويتم التباهى بسلالة أحد الخيل مثل سلالة أحد القناصل، فهذا الفرس له والد كذا وكذا وأم كذا وكذا ، بينما يستطيع فرس آخر أن يتباهى بسلالته لجيلين ، أو ثلاثة للوراء ، ولكن لا قيمة لذلك كله فى السباق لأن السرعة وليست السلالة هى التى تفوز بالجائزة ، بل أن ذاك الذى يتمتع باسم شهير يلحق به خزى أكبر إذا خسر، احذر إذن أيها الغنى من أن يلحق بفضائل آبائك أى خزى فى شخصك وإلا سيضطرون لتحمل التوبيخ «لِمَ اخترتموه، ولِمَ جعلتموه وريثاً؟ لا يحسب لأى وريث أنه يطلى الأسقف وألواح الرخام بالذهب، ثناء على هذا فلا يجب أن ينسب للناس بل للمنجم، ومقلع الحجارة حيث يعمل الناس، فرغم أن الفقراء هم الذين يحفرون بحثاً عن الذهب إلا أنهم يُحرمون منه وهم يكدون بحثاً عما لا يستطيعون الاحتفاظ به.

٥٥ - لكن أرى أنه شئ غريب أن تتباهى أيها الغنى بالذهب لأن الذهب حجر عثرة ولا

يوجد فيه سبب يدفعنا لكى نحبه ونثنى عليه «الذهب أيضا عثرة ويل للذين يسعون وراءه» وبارك الغنى الذى «وجد أنه بلا عيب، الذى لم يذهب وراء الذهب، أو وضع ثقته فى كنوز المال». بيد أنه يبدو من الصعب أن نجده لأن الكاتب يتمنى أن يرى مثل هذا الإنسان «من هو كى نمتدحه؟» أفعاله تستحق الثناء لأنها شئ نادر لا نجده كثيراً ولا نستطيع أن نعتبر هذه الأفعال من قبيل الأفعال المألوفة ، لذلك فالإنسان الذى يظل جديراً بالثناء بينما يمتلك الثروات هو إنسان كامل وممجد بحق «ذلك الذى كان يستطيع أن يأثم ولم يأثم ومن كان يستطيع أن يفعل الشر ولم يفعل (سيراخ ٣١:٧ ـ ١٠).

(قسوة الأغنياء ـ الاستخدام الصحيح للممتلكات)

٥٦ ـ أنت تغطى الحوائط وتعرى الناس ، يصرخ العريان أمام منزلك ولا تعره انتباهاً، أخوك الإنسان هناك يصرخ عرياناً بينما يحيرك اختيار الرخام الذى تكسو به أرضيتك، الفقير يسألك مالاً لكن عبثاً يحاول، أخوك الإنسان هناك يستجدى الخبز وحصانك يقضم الذهب بين أسنانه ، آخرون ليس لديهم حتى الذرة وخيالك مشغول بالزخارف الثمينة، يا لها من دينونة تجلبها لنفسك! الناس يتضورون جوعاً وتغلق مخازنك، ياك من إنسان لديه الإمكانية لكن ليس له الإرادة لإنقاذ أرواح كثيرة من الموت حيث يستطيع خاتم من الجواهر أن ينقذ حياة كثيرين.

٥٨ ـ أنت يا من تخفى ذهبك فى الأرض، ما أنت الا حارس أمين على ثروتك وليس ربها وسيدها، ولكن حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً، وقلبك هناك مدفون مع الذهب فى الأرض، أجدر بك أن تبيع ذهبك، وتشترى خلاصك ، حرى بك أن تبيع جواهرك وأن تشترى ملكوت السموات، بع أرضك واشتر الحياة الأبدية ! ما أقوله هو الحق لأنى أستشهد بكلمات الحق نفسه: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء» (متى١٩:٢٠) .لا تحزن لهذا القول خشية أن يقال فيك: «إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات» (متى ١٩:٢٣) ، بل أثناء قرائتك لهذه الكلمات فكر كيف يستطيع الموت أن ينزع ثروتك منك، ويغتصبها آخر أعظم منك بقوته، فكر أيضاً كيف طلب منك أن تعطى القليل مقابل الكثير، المؤقت مقابل الأبدى، كنز المال الذى يمكن أن يفسد مقابل كنز النعمة الذى يدوم، فكر كذلك فى أنك لست المالك الوحيد لهذه الأشياء التى

يشارك فيها السوس والصدأ الذى يفسدها، هذه هى الشركة التى أعطاها لك الطمع، وبعد ذلك لاحظ نوع المدينين الذين يربطهم عرفان الجميل بك: «تبارك فى البار وفرة الخبز وتكون هناك سعادة لبره» (سيراخ ٣١:٢٨). الله الأب يصبح هو المدين لك ويدفع الفائدة ، كما لو كانت تدفع لمقرض عطوف ، للعطية التى تساعد بها الفقراء، الله الابن أيضاً يقول : «لأنى جعت فأطعمتمونى، عطشت فسقيتمونى، كنت غريباً فآويتمونى ، عرياناً فكسوتمونى » (متى ٢٥:٣٥ ـ ٣٦) ، لأنه يقول ما نعطه لإخوته الأصاغر كأننا نعطه له هو .

فى واجبات رجال الدين

(الرحمة ومزاياها)

١، ١١، ٣٨ الرحمة أيضاً شئ جميل لأنها تجعل الناس كاملين فهى تتمثل بالآب الكامل، الرحمة هى أكثر شئ يمكن أن يعطى نعمة للروح المسيحية، وهى تمارس أساساً مع الفقراء الذين ينبغى أن نعتبرهم شركاء لك فى ثمار الأرض التى تقدمها ليستخدمها الجميع، لهذا ينبغى أن توزع ما لديك على الفقراء، وبهذه الطريقة تساعد إخوتك ورفقاءك، أنت تعطى مالاً فيعيش الفقير، المال الذى تعطيه هو حياته وممتلكاته.

إضافة لذلك فهو يعطيك أكثر مما تعطيه أنت لأنه هو دائنك فيما يتعلق بخلاصك، إذا كسوت العريان تكسو نفسك بالبر، إذا استقبلت ورحبت بالغرباء والمحتاجين فى بيتك تنل صداقة القديسين ومكان سُكنى أبدى، وهذا ليس بالتعويض القليل فأنت تزرع أشياء أرضية وتحصد مكافآت سماوية.

(متطلبات العدالة الإجتماعية)

(١) ، ٢٨، ١٣ ـ العدل موضوع هام للمجتمع وجماعة الجنس البشرى، لأن ما يربط المجتمع: العدل والنية الطيبة ، والأخيرة تسمى أيضاً التسامح والعطف وأعتقد أن العدل هو الأسمى، والتسامح أكثر الاثنين جلباً للرضا، أحدهما يدين والآخر يظهر الصلاح.

بيد أن ما يعتبره الفلاسفة الوثنيون أول واجب للعدل غير مقبول لنا.إنهم يقولون إن أول متطلبات العدل هو ألا تؤذى أحداً طالما أن المرء لم يُستفذ بما قد يتعرض له من ظلم، وهذا الرأى يخالف الإنجيل لأن الكتاب المقدس يريدنا أن نتمثل بروح ابن الإنسان الذى أتى

ليعطى نعمة لا ليهلك (لوقا ٩: ٥٦).

١٣٢ ـ وما يوافق العدل عند هؤلاء الفلاسفة هو أن يتعامل المرء مع الأشياء المشتركة والتى تعتبر من الممتلكات العامة كشئ عام ، وأن يعامل الخاص كشئ خاص، لكن هذا يتعارض حتى مع الطبيعة، لأن الطبيعة سكبت كل الأشياء للجميع ليشاركوا فى استخدامها، الله نفسه أمر أن تُنتج كل الأشياء كى يتوفر الطعام للجميع بالتشارك وأن تكون الأرض نوعاً من الملكية المشتركة للجميع، أعطت الطبيعة حقاً مشتركاً للجميع لكن الطمع جعله حقاً وحكراً لفئة قليلة، وهنا أيضاً نعرف أن الرواقيين كانوا يُعلّمون أن كل الأشياء التى تنتجها الأرض خُلقت ليستخدمها الإنسان، وأن الناس ولدوا من أجل الناس كى يفيد كل منهم الآخر..

١٣٥ ـ وهكذا وفقاً لمشيئة الله ووفقاً للطبيعة، ينبغى أن يساعد كل منا الآخر، وأن نتنافس فى فعل الأعمال الصالحة، وأن نضع حسناتنا أمام الجميع، و(إذا استخدمنا كلمات الكتاب المقدس) أن نساعد بعضنا البعض بدافع من الشعور بالتفانى أو الواجب بأن نعطى الأموال أو بأن نفعل شيئاً ما بطريقة أو بأخرى كى يزداد خير المجتمع بيننا، فلا يتهرب أحد من هذه الواجبات خوفاً من الأخطار، بل ليعتبر كل منكم جميع أمور المجتمع سواء كانت صالحة أم شريرة شغله الشاغل. وهكذا لم يكن موسى خائفاً من أن يخوض حروباً رهيبة من أجل شعبه، ولم يخش كذلك جيوش أقوى الملوك، ولم ترعبه وحشية الأمم البربرية فنحى جانباً تفكيره فى سلامته لكى يعطى شعبه الحرية .

(استخدام الأوانى الذهبية المقدسة للأغراض الخيرية) .

(٢) ، ٢٨ ، ١٣٦ ـ إنه دافع عظيم للرحمة أن نشارك الآخرين فى محنهم وأن نساعدهم بأقصى ما نستطيع وأكثر ، لأن الرحمة تقتضى أن نتبنى قضية ونتعرض للنقد من أن نظهر شعوراً بعدم الاهتمام ، ولذلك قد عرضت نفسى للنقد ذات مرة لأنى حطمت الأوانى المقدسة لأفتدى الأسرى ، وهى حقيقة أغضبت أتباع آريوس، ولم يكن الفعل نفسه هو الذى أغضبهم بل اتخذوه كذريعة لإيقاع اللوم علىّ. من يستطيع أن يكون بهذه القسوة والوحشية وفتور القلب ويغضب من أن رجلاً تم إنقاذه من الموت أو امرأة أُنقذت من الاغتصاب الوحشى وهى أشياء أسوأ ؟

١٣٧ـ ومع أننا لم نسلك هكذا بلا دافع قوى، إلا أننا تتبعنا هذا الأمر مع الشعب كى نعترف ونعلن مجددين أنه من الأفضل أن نحافظ على الأرواح لله أكثر من الذهب لأنه هو الذى أرسل الرسل والكنيسة بلا ذهب ، فالكنيسة تمتلك ذهباً لا من أجل تخزينه بل لتوزيعه واستخدامه لمساعدة المحتاجين، فما الحاجة إذاً لحراسة وحفظ أشياء لا فائدة منها لأحد؟ ألا نعلم نحن مقدار الذهب والفضة الذى حمله الآشوريون من هيكل الرب؟ ألم يكن من الأفضل بكثير أن يصهره الكهنة لإعالة الفقراء إذا نفدت الإمدادات الأخرى، من أن يسلبه ويدنسه العدو ؟ ألن يقول الله نفسه : « سمحتم للكثيرين من المحتاجين أن يموتوا بسبب الجوع؟ بالتأكيد لديكم ذهب، لذلك كان ينبغى عليكم أن تعطوهم الطعام والعون ، لِمَ كثر عدد الأسرى الذين يُرسلون إلى سوق الرق، ولِمَ لم يفتد الكثيرون وتركوا ليقتلهم العدو؟ من الأفضل أن تحافظوا على الأوانى الحية أكثر من الأوانى الذهبية.

(الخير العام هو خير كل فرد على حدة)

(٣) ٤، ٢٥ ـ يتضح إذن أننا ينبغى أن نعتبر أن ما يفيد الفرد هو الخير العام وأننا لا ينبغى أن نحكم على شئ أنه مفيد إذا لم يفد الكل، لأنه كيف يستطيع المرء أن يستفيد بمفرده؟ فالذى هو غير مفيد للجميع هو ضار، فأنا لا أستطيع أن أتصور أن ما هو غير مفيد للجميع يمكن أن يفيد أى فرد على الإطلاق، لأنه إن كان هناك قانوناً طبيعياً واحداً فقط للجميع، فإنه يوجد أيضاً فائدة واحدة للجميع، ونحن ملزمون بقانون الطبيعة أن نعمل من أجل خير الجميع، ومن ثم فليس من الملائم للشخص الذى يرغب فى حصص الآخرين أن يعامل وفقاً للطبيعة ، هذا ضد قانون الطبيعة.

فى طوبيا (Tobit)

(الربا الفاحش والإقراض بالربا)

إذا أقرضت دون أن أحصل على ربا فأنا بذلك أسلك بالحق، لأن الإقراض انتظاراً للربا عمل ظالم، لكن الإقراض نفسه ليس كذلك، كما هو مكتوب: « اقرض جارك فى ساعة احتياجه » (سيراخ ٢٩:٢) . داود أيضاً قال : « أما الصديق فيترأف ويعطى » (مزمور ٣٧:٢١) أما الإقراض الذى يتم بهدف الحصول على ربح فهو عمل بغيض والناموس يحرمه (تثنية ٢٣:١٩). فطوبيا ينأى بنفسه عن أخذ الربا: إنه يُعلم ابنه ألا يحتقر

وصايا الرب، وأن يقدم الصدقات عن ممتلكاته، وألا يقرض مالاً بربا وألا يحول وجهه بعيداً عن الفقراء (طوبيا ٤: ٦ ـ ٩). وكل من يقدم هذه النصيحة يدين الربا الذى يتمثل لكثيرين طريقة للربح وفرصة للاشتغال بالتجارة، فالربا يُحرم على القديسين.

٨ـ أما الربا الفاحش فهو يستحق لوماً أكثر، والإنسان العظيم هو الذى يمتنع عنه . إذا كان لديك مالاً وزعه، اجعل مالك الخامل مفيداً للآخرين، اعطه وأنت تنوى عدم استرداده، وإذا عاد إليك لا تأخذ عنه ربا. إذا لم يستطع المقترض أن يعيد إليك مالك دعه يدفع لك امتنانه ، أما إذا أخذ منك مالك بالاحتيال فستنل عدلاً ، لأنه من يترأف ويقرض هو إنسان عادل. وإذا خسرت مالك ستنل رحمة، كما هو مكتوب: « رحيم من يقرض أقاربه » (سيراخ ١:٢٩) .

(الأغنياء يقرضون ليحصلوا على أرباح)

١١ ـ أيها الأغنياء هذه هى خدماتكم في الواقع، تعطون القليل وتطلبون الكثير فى المقابل، هذه هى شفقتكم: «تسلبون حتى عندما تقولون إنكم تساعدون الفقراء فهم بالنسبة لكم ليس إلا مصدراً للربح ، لأنكم تخضعونهم للربا الفاحش ، وتعرفون كيف تجبرونهم على دفع الربا لكم ، حتى عندما لا يكون لديهم ما يكفى الإيفاء بالضروريات الأساسية ، ياالكم من رحماء!! تمنحونهم الحرية ثم تقيدونهم بأنفسكم وتجبرونهم على دفع الربا، حتى عندما لا يملكون شيئاً ليأكلوه. فهل تستطيعون أن تتخيلوا أى شئ أكثر انحرافاً من هذا؟ الفقراء يسألون دواءً فتعرضون عليهم سماً، يستجدون خبزاً فتعطونهم سيفاً، يلتمسون حرية فتخضعونهم لعبودية، يتوسلون لفك قيودهم فتوقعونهم فى شرك لا مهرب منه.

الرسائل

(الاستخدام الصحيح للثروة)

٢ ، ١١ ـ لا تدع شعبك يتطلع إلى أشياء كثيرة، فالأشياء القليلة هى بالفعل كثيرة لهم، الفقر والثراء كلمات تعنى ضمناً الإعواز والشبع، ليس غنياً من يملك كل شئ يرغبه، وليس فقيراً من ليس عنده. لا يحتقر أحدكم أرملة أو يغش يتيماً أو يسلب جاره.

ويل لذلك الإنسان الذى يجمع ثروة بالخداع ويبنى مدينة بدم، فالدم هو روح الإنسان ،

فالروح هى التى يجب أن تُبنى كالمدينة، والطمع لا يبنيها بل يشعل النار فيها ويحرقها. ثروة الإنسان ينبغى أن تعمل من أجل افتداء روحه وليس من أجل تدميرها، الثروة هى افتداء إذا استخدمها المرء على نحو جيد، وهى فخ إن أسئ استخدامها ، فما الفائدة من مال الإنسان إن لم يكن مدداً لرحلته؟ المقدار الكبير منه عبء والمبلغ المتوسط كاف. نحن سائحون فى هذه الحياة. كثيرون يتقدمون لكن يجب أن نقوم برحلة صالحة كى نتخذ من المسيح رفيقاً على الطريق، ذلك الذى قضى حياته على الأرض يصنع خيراً.

(شر الطمع)

٢ و ١٥ - بالسعادة ذلك الإنسان الذى استطاع أن يجتث أصل الرذائل وهو الطمع، فهو لن يخاف بالتأكيد من ميزان العدل، عادة ما يسبب الطمع تبلد حواس الناس ويفسد ملكات التمييز فيظنون أن الربح هو التقوى وأن المال هو مكافأة الحكمة، لكن عظيمة هى مكافأة التقوى وعظيمة هى ميزة الاعتدال حيث إن امتلاك هاتين الفضيلتين كافٍ ، لأنه ما فائدة الثروة الوفيرة فى هذا العالم إن لم تساعد في إحيائنا وتمنع موتنا؟! نحن ولدنا عرايا فى هذا العالم ونمضى كذلك فى فقر مدقع لأننا ندفن بدون ميراثنا.

(تمثل بالمسيح)

٢ و ٢٦ - لتدع شعبك يسعى لثروة الأعمال الصالحة وليكن غنياً فى الخُلق. جمال الثروة لا يكمن فى أكياس الأغنياء بل فى إعالة الفقراء، الثروة تبدو أكثر بهاءً فى الضعفاء والمحتاجين، فليتعلم الأثرياء ألا يسعوا لمصالحهم الخاصة بل لمصالح المسيح كى يسعى المسيح إليهم، ويغدق عليهم من ممتلكاته، لقد سفك دمه لأجلهم، سكب روحه، إنه يقدم لهم مملكته، فالذى أعطى نفسه ، ماذا يمكن أن يعطى فوق ذلك ؟ أو ما الذى سيرفض الآب إعطاؤه وهو الذى سلم ابنه الوحيد للموت من أجلنا؟ لذلك أنصحهم أن يخدموا الرب فى طهارة ونعمة، وأن يرفعوا أعينهم للأشياء السماوية بكل ما فى عقولهم من تركيز، وألا يعتبروا أى شئ ربح باستثناء ما يفيد الحياة الأبدية، لأن كل ربح هذا العالم ما هو إلا خسارة للأرواح.

(الدولة يجب أن تدافع عن المسيحية التى هى الدين الحقيقى وذلك بعدم إنشاء مذابح للاحتفال بمناسبات الانتصار) .

١٧ ، ٩ - افترض الآن أن إمبراطور وثنى (لا سمح الله) يقيم مذبحاً للأوثان، ويجبر المسيحيين بأن يجتمعوا هناك، وأن يكونوا حاضرين أثناء تقديم الذبائح، يخنقهم رماد المذابح ، فى مكان ملئ برماد التدنيس ودخان الكانون ، يقسمون أمام مذبح الوثن قبل أن يدلوا بأصواتهم فى مجلس الشيوخ، (لأنهم يفهمون أن المذبح إنما وضع هناك كى ما يتم الاجتماع تحت يمين القسم له) . ويحدث كل هذا على الرغم من حضور أغلبية مسيحية فى المجلس، ألا يعتبر المسيحى الذى أُجبر على حضور المجلس وأمامه مثل هذا الاختيار أن ذلك اضطهاد له ؟ أو على الأقل إكراه، يُجبر بمقتضاة المسيحيون على الحضور تحت التهديد بالعقوبات ، والآن بعد أن أصبحت إمبراطوراً، هل يجبر المسيحيون على الحلف بالمذبح ؟ إن القسم عبارة عن إقرار بالقوة السماوية موجه لمن تقسم باسمه لتثبت له إيمانك به ، وأنت بعد أن أصبحت إمبراطوراً هل قُدمت إليك التماسات وطلبات بأن تأمر ببناء مذبح وبأن تقدم التمويل للذبائح الدنيوية؟

١٠ - لا يمكن أن يُصدر مثل هذا المرسوم بلا تدنيس للمقدسات لذلك أتضرع إليك ألا تصدره أو تأمر به، وألا توقع على المراسيم من هذه النوعية، كأسقف للمسيح احتكم لإيمانك، كما نناشدك كمجموعة من الأساقفة بخصوص ما سمعنا عن ما تم تقديمه إلى مجلسك الكنسى أو ما طلبه منك مجلس الشيوخ وتم تنفيذه بسرعة مذهلة لدرجة أنه كان من الصعب تصديقه.

(رفض أمبروز لتسليم الكنيسة الجديدة للآريوسيين)

(حدود سلطة الدولة)

١٩ . ٢٠ - يصدر الأمر بتسليم الكنيسة وأنا أجيب: «إن تسليمها بالنسبة لى ليس قانونياً ، كما أنه لا يليق بجلالتكم أن تتسلموها، فإذا لم يكن من حقكم أن تنتهكوا حرمة أحد المواطنين فهل تعتقد أنك تستطيع أن تستولى على بيت الله؟ يقال إنه من حق الإمبراطور أن يفعل أى شئ وأن كل شئ تابع له ، أما أنا فأرد وأقول: «لا تثقل نفسك بفكرة أنك إمبراطور ولك الحق فى أشياء الله. لا تمجد نفسك ، إن أردت أن تظل إمبراطوراً

قدم نفسك لله لأنه مكتوب: «اعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر» .

تخضع القصور للإمبراطور أما الكنائس فتخضع للأسقف ، أنتم لكم سلطان قضائى على البنايات العامة لكن ليس على البنايات المقدسة، مرة أخرى يقال إن الأمر أتى من الإمبراطور فأجيب: «أنا أيضاً ينبغى أن أحتفظ بالكنيسة، وليس قانونياً أن تحتفظ أنت بها. ما علاقتك أنت بإحدى الزوانى؟ إن التى لم تنضم للمسيح بالاتحاد القانونى تعتبر زانية ».

(رفض أمبروز بأن يحاكم أمام المحكمة المدنية ، ينبغى أن يُحاكم الأساقفة من جانب الأساقفة فقط)

٢١ـ الأسقف أمبروز إلى الإمبراطور المعظم والمبارك أُغسطس فالنتينيان

١ ـ دعانى «دالماتيوس تريبيون والسكرتير بأمر من سموكم كما زعم ، طالباً منى أن أختار قضاة كما فعل اوكسنتيوس، ولم يذكر أسماء الذين سألوا ولكنه أضاف إن المناظرة ستتم في المجلس الكنسى ويكون سموكم الحكم الأخير..

٢ ـ أعتقد أن لدى إجابة كافية لهذا، لا ينبغى أن تعتبرونى متمرداً حين أوكد ما أجاب به والدكم ليس فقط بكلام الفم بل بعقوبات قانونية، إنه فيما يتعلق بأمور الإيمان أو الانضباط الكنسى لايجب أن يكون القاضى أقل شأناً فى المنصب أو مختلفاً فى المنزلة. هذه هى كلمات رد الإمبراطور وهى إنما تعنى أن الأساقفة ينبغى أن يحاكمهم أساقفة، فإذا حدث أنه أثناء محاكمة بعض الأساقفة أثيرت تهمة تتعلق بالسلوك، فإن التحقيق يتم فيها أمام محكمة من الأساقفة ، وهذا ما يرغب فيه الإمبراطور.

٣ ـ فمن هو الشخص الذى أجاب سموكم بتمرد؟ أهو الذى يرغب أن يراكم مثل أبيكم أم ذلك الذى يتمنى أن يراك مختلفا عنه؟ أم ربما يوجد البعض الذين لا يقيمون وزناً لرأى ذلك الإمبراطور العظيم على الرغم من أن إيمانه قد أكده ثبات رأيه، وحكمته أظهرها تحسن حالة الدولة؟

٤ ـ متى سمع سموكم أن العلمانيين يحاكمون الأساقفة فى أمور الإيمان؟ أم أننا قد غلبنا التملق لننسى حقوق الأسقف حتى أفكر فى أن أعهد للآخرين ما أعطانى الله؟ ماذا

سيحدث بعد ذلك إذا أعطى علمانى تعليمات لأسقف؟ يلقى العلمانى خطبه والأسقف يستمع، يتعلم الأسقف على يد العلمانى. فى ضوء الكتاب المقدس وحوادث العصور القديمة من المستحيل أن ننكر أنه فى مسألة الإيمان - وأكرر فى مسألة الإيمان - يجب أن يحاكم الأساقفة الأباطرة المسيحيين وليس العكس.

٥ - إن شاء الله ستتقدمون فى العمر فى أحد الأيام، وعندئذ ستعرفون ماذا تظنون فى الأسقف الذى يسمح للعلمانيين بأن يتعدوا على حقوقه الأسقفية، أبوكم الذى وصل لسن ناضجة اعتاد أن يقول: «ليس أنا الذى أحكم بين الأساقفة». والآن يقول سموكم: «يجب أن أكون القاضى» ، فإذا كان والدك الذى تعمد فى المسيح يعتقد أنه كفؤ أتأتى أنت يا سيدى الذى لم تنل سر المعمودية بعد لتتولي مهمة القضاء فيما يتعلق بالإيمان، أنت الذى لم تعرف بعد أسرار الإيمان؟

الجزء الثانى

جيروم

تجمع حياة جيروم (٣٤٧ - ٤١٩) وكتاباته أهم أحداث وشخصيات عهد آباء الكنيسة، ولد جيروم فى الفترة التى أصبحت فيها المسيحية الديانة الرسمية، والتى شهدت التأسيس النهائي للمسيحية الأرثوذكسية فى الإمبراطورية، ومات بعد أن نهب Alaric روما بفترة قصيرة، وكان على اتصال بالعديد من الآباء البارزين فكان غالباً ما يشير إلى أمبروز في كتاباته، وكان يتبادل الرسائل مع أوغسطين، وتعلم تحت يد جريجوريوس النازينزى وكان على معرفة بجريجورى من نياسا.

لم يكن جيروم مفكراً مبدعاً ولم يكن منظِّراً اجتماعياً مقتدراً، إلا أن السبب الرئيسى فى شهرته يرجع لترجمته الإنجيل للغة اللاتينية (The Vulgate) ، ومحاولته تقديم الحياة النسكية فى الغرب. وفيما يتعلق بالتعاليم الاجتماعية لم تكن أفكار جيروم عميقة أو لامعة، ففى خطابه إلى دمترياس (الخطاب ١٣٠) يؤكد أن اقتناء الممتلكات الأرضية ليس متعارضاً مع الإنجيل وأن النصيحة لبيع ممتلكات المرء وتوزيعها على الفقراء ليست إلزامية للكل. ومع هذا فهو يشجع بشدة مشاركة الممتلكات مع الآخرين، وبالإضافة الى رسائله

المائة والخمس والعشرين التى تعطينا معلومات لا تحصى عن الأشخاص والأحداث، فإن أحد أهم أعمال جيروم فيما يتعلق بموضوعنا هو عظته على لوقا ١٦:١٩ ـ ٣١ ، قصة الغنى ولعازر التى علق عليها يوحنا ذهبى الفم ضمن آخرين، ومن الشيق أن نقارن تعليق جيروم بتعليق يوحنا ذهبى الفم فى الفصل الرابع.

الرسائل

(تجنب الجشع والطمع)

٢٢ ، ٣١ ـ يجب عليك أيضاً أن تتجنب خطية الطمع ، ليس برفض الاستيلاء على ما يخص الآخرين فحسب ، ولكن أيضاً بألا تتعلق بممتلكاتك الخاصة التى لم تصبح ملكك فيما بعد ، الرب يقول : « و إن لم تكونوا أمناء فى ما هو للغير فمن يعطيكم ما هو لكم » (لوقا ١٦ : ١٢). الذهب والفضة ليسا لنا ، الذى لنا هو الميراث الروحى ، و فى موضع آخر : « فدية نفس رجلٍ غناه » (أمثال ١٣ : ٨). وأيضاً : « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد و يحب الآخر أو يلازم الواحد و يحتقر الآخر لا تقدروا أن تخدموا الله والمال » (متى ٦ : ٢٤). الثروة تعنى المال فى اللغة السورية ، " الأشواك " التى تخنق إيماننا هى الاهتمام المفرط باحتياجاتنا الجسدية ، أصل الاشتهاء هو الانهماك فى الأشياء الدنيوية التى تليق بالأوثان .

٣٢ ـ محبة المال أصل كل الشرور، والرسول يتحدث عن الطمع كعبادة الأوثان (كولوسى٣:٥) « اطلبوا أولاً ملكوت الله و بره و هذه كلها تزاد لكم » (متى ٦ : ٣٣). الرب لن يسمح بأن يموت الصديق من الجوع ، يقول صاحب المزامير : « أيضاً كنت فتى وقد شخت ولم أر صديقاً تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس خبزاً » (مزامير ٣٧ : ٢٥) .

(الفقر والكمال)

١٣ ، ١٤ ـ أعتقد أنه ليس من الضرورى أن أحذرك من الطمع بما أن طريقنا يجب أن يجمع بين شيئين متناقضين : الغنى واحتقار هذا الغنى فى نفس الوقت، الرسول يخبرنا أن الطمع هو عبادة الأوثان ، سأل الشاب الغنى المسيح قائلاً : « أيها المعلم أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟ » وأجاب الرب : « إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك

واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى » (متى ١٩ : ١٦ ، ٢١). هذا هو كمال الفعل الرسولي و الفضيلة : بيع كل ما لدى المرء و توزيعه على الفقراء، وهكذا نتحرر من كافة العوائق الأرضية، لنطير إلى ملكوت السموات مع المسيح ، وانا أقول لك: ـ إن الوكيل الامين يثق فيه سيده . برغم أنه فى هذه الظروف يجب أن نعطى الحرية كاملة فى الاختيار للفرد، سواء شيخاً أم صغيراً.

قال المسيح : « إن أردت أن تكون كاملاً » وهو يقصد أن يقول:ـ أنا لا أجبرك ، أنا لا آمرك ولكنى أضع رمز الانتصار أمامك وسوف أريك المكافأة ، إنه أمر متروك لك إذا كنت ستدخل الميدان وتفوز بالتاج ، دعونا نتأمل كيف تكلم الحكمة بحكمة : « بع كل أملاكك » لمن يعطى هذا الأمر ؟ بالطبع للشخص الذى قيل له : « إن أردت أن تكون كاملاً » لا تبع جزءاً من أملاكك بل« كل أملاكك » وبعد أن يبيعها ماذا يفعل ؟ « اعط الفقراء » وليس للأغنياء ، ليس لأقاربك، وليس لكاهن للمتعة الشخصية بل لتريح الآخرين من احتياجاتهم ، لا يهم إن كان هذا الإنسان كاهناً أم أحد الأقارب أو المعارف فالشئ الوحيد الذى يجب أن تفكر فيه هو فقره ، ليأتى تسبيحك من أمعاء الجوعى وليس من الموائد الغنية للمتخومين .

قد يبنى آخرون الكنائس ويزخرفون أعمدتها الرخامية، أو يزينون عواصمهم التى هى جماد بالذهب والزخارف الثمينة ، قد يغطون مداخل الكنائس بالفضة، ويزينون المذابح بالذهب والجواهر، أنا لا ألوم من يفعلون هذه الأشياء ولا أتبرأ منهم ، فكل واحد ينبغى أن يتبع ضميره ، ومن الأفضل أن ينفق المرء ماله بهذه الطريقة من أن يكدسه ويطيل التفكير فيه . لكن واجبك أنت من نوع مختلف ، واجبك أن تكسو المسيح فى الفقراء، وأن تزوره فى المرضى، وتطعمه فى الجوعى، وأن تأوي من لا مأوى لهم ولا سيما أهل الإيمان ، وأن تعول جماعات العذارى ، وأن تهتم بخدام الله، وبهؤلاء الفقراء فى الروح الذين لهم نفس الإله مثلك تماماً نهاراً وليلاً ، ويحيون حياة الملائكة ويتكلمون بتسبيحات الله ، وإذا كان لديهم الطعام والكساء يفرحون ويحصبون أنفسهم بين الأغنياء ولا يسعون إلى ما هو أكثر من هذا ويظهرون أنهم لا يستحقون حتى الأشياء الضرورية .

عظة من لوقا ١٦ : ١٩ - ٣١

الغنى ولعازر

« وكان إنسان غنى » عندما أعلن الرب : « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لا تقدرون أن تخدموا الله، والمال » . أما الفريسيون الجشعون فلم يعجبهم كلامه واحتجوا عليه وهو الذى وضع أمامهم مثالاً بل بالحرى حقيقة، فى صورة مثل أو حكاية رمزية ، وهو ليس مثلاً بالمعنى المفهوم لكنه قصة حقيقية لأن أسماء الشخصيات موضحة فيه ، فالمثل يقدم عبرة لكن بدون تعيين الهوية ، حيث إنه ذكر إبراهيم بالاسم ، لعازر ، الأنبياء وموسى ، وإذا كان إبراهيم شخصاً حقيقياً يكون لعازر أيضاً . قرأنا عن إبراهيم ولكن لم نقرأ عن لعازر، ولكن من خلق لعازر خلق إبراهيم أيضاً ، فإذا كان يتحدث عن إبراهيم كشخص حقيقى نفهم أيضاً أن لعازر حقيقة حية لأن الخيال لا يتطابق مع الحقيقة .

« كان إنسان غنى » فكر فقط فى عطف الرب ! لعازر المسكين فقط دُعى باسمه لأنه قديس، ولكن الغنى المتفاخر رأى السيد أنه لا يستحق اسماً. « كان إنسان غنى » وأقول "إنسان " لأنه مضى كالظل، « كان إنسان غنى وكان يلبس الأرجوان والبز » لقد غطى الرماد والتراب والطين بالأرجوان والحرير . « وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً » . فكما كان الحال مع ثيابه كان طعامه كذلك ونفس الشئ بالنسبة لنا فطعامنا يتناسب مع ثيابنا .

« وكان مسكيناً اسمه لعازر » معنى اسم لعازر هو " الشخص الذى يتلقى المساعدة "، إنه ليس مساعداً بل من يتلقى المساعدة ، كان فقيراً وفى فقره أتى الرب ليساعده « طُرح عند بابه مضروباً بالقروح » لم يتهم الغنى فى فخامة أرجوانه بالطمع أو الاستيلاء على ممتلكات الآخرين أو الزنا ولا بأى فعل ظالم ، فالشر الوحيد الذى عمله هو تكبره ، ما أكثر الناس بؤساً ، ترى عضواً من أعضاء جسدك مطروحاً خارج بابك ولا تشفق عليه ؟ فإذا كانت وصايا الرب لا تعنى شيئاً لك فعلى الأقل ترحم على محنتك أنت وخف خشية أن تصبح مثله ، لِمَ تدخر ما هو فائض عليك لمتعتك ؟ وأنا لا أطلب منك أن تبدد ثروتك بل الذى أطلبه منك هو أن تقدم الكسر الساقطة من مائدتك كصدقة .

(حالة لعازر التى يرثى لها ومكافأته)

« طرح عند بابه » . إنه كان مطروحاً عند الباب ليجذب الانتباه للتشوهات التى تعرض لها جسده، وليمنع الغنى من أن يقول (لم ألاحظه فقد كان فى أحد الأركان ولم أستطع أن أراه ولم يخبرنى به أحد) . إنه كان مطروحاً عند الباب وتراه فى كل مرة تدخل أو تخرج فيها. فعندما كان زمرة خدامك وتابعيك يخدمونك كان هو مطروحاً مضروباً بالقروح، فإذا كانت عيناك تزدرى أن تنظر الجسد المريض المشوه فعلى الأقل ألم تسمع أذناك صوت توسله ؟

« الذى طُرح عند بابه مضروباً بالقروح » .لم يكن عنده مجرد جرح واحد فحسب، بل كان جسده بالكامل مليئاً بالجروح كى ما يثير حجم معاناته عظيم شفقتك « الذى طرح عند بابه مضروباً بالقروح، ويشتهى أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنى » ، يوجد شئ من التهوين للمرضى إذا كان للمرء بعض الموارد، أما إذا أضفت الفقر للضعف الشديد فإن العجز يتضاعف ، فالمريض دائماً شديد الحساسية، ولا يستطيع أن يحتمل شيئاً حاداً، فهذا يصيبه بالغثيان وبالمعاناة الحقيقية ، ووسط كل هذه الجروح هو لا يفكر فى آلام بلواه بل فى آلام الجوع « ويشتهى أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنى » . وهو بذلك يقول للغنى : إن الفتات الساقط من مائدتك يكفينى ، اعط صدقات ، واربح من خسائرك « بل كانت الكلاب تأتى وتلحس قروحه » وإذ لم يتلطف أى إنسان بغسله أو لمسه كانت الحيوانات الرقيقة تلحسه .

« فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، ومات الغنى أيضاً ودفن فرفع عينيه فى الهاوية .....» . سمعنا عن الطريقة التى عاشها كل منهما على الأرض، كل ما هو وقتى قد مضى وانتهى أما الذى يلى بعد ذلك فهو الأبدية ، مات كلاهما، الواحد قابلته الملائكة أما الآخر فقابله العذاب ، الواحد حملته أكتاف الملائكة أما الآخر فيمضى لعقابه ، الواحد يتلقاه إبراهيم فى حضن سعادته أما الآخر فتلتهمه الهاوية ، لعازر «حملته الملائكة » أستبدلت المعاناة الشديدة فجأة بالمسرات ، حملته الملائكة دون أن يبذل أى مجهود فى المسير، حمل لعازر بعد المحنة الشديدة لأنه كان خائر القوى « حملته الملائكة » لم يكن ملاكاً واحداً لحمل ذلك الفقير بل أتى كثيرون ليشكلوا فريق ابتهاج ، « حملته الملائكة » فكل

ملاك يُسر بحمل مثل هذا الحمل الثمين، فهم يحملون هذه الأحمال بكل سعادة ليوصلوا الناس إلى ملكوت السموات ، حُرس وحُمل إلى حضن إبراهيم، وليس إلى جانب إبراهيم بل إلى حضن إبراهيم كى يستطيع إبراهيم أن يربت عليه بلطف وينعشه كى يحتضنه فى صدره، ومثل أب عطوف رحيم يعيده إلى الحياة مرة أخري .

(مصير الغنى)

« ومات الغنى أيضاً ودفن » التراب عاد إلى الأرض « فرفع عينيه فى الهاوية » لاحظ مغزى كل كلمة "لعازر كان فوق وهو تحت" ، رفع عينيه لينظر لعازر لا ليزدريه " فرفع عينيه وهو فى العذاب " جسده كله كان فى كرب ، عيناه فقط كانتا حرتان لتنظرا سعادة الإنسان الآخر ، سُمح لعينيه بالحرية لتتعذبا أكثر لأنه لا يتمتع بما للآخر ، غنى الآخرين ما هو إلا عذاب للذين يعيشون فى الفقر " فرفع عينيه وهو فى العذاب " الواحد حملته الملائكة أما الآخر فيحيا فى عذاب لا ينتهى أبداً ، وعندما كان يتعذب لم يقل الإنجيل عذاب بل عذابات فهذه هى مكافأة الثروة الجشعة ، رأى إبراهيم من بعيد فنظر إليه ليزيد عذابه "لعازر فى حضنه " حضن إبراهيم هو فردوس الفقير .

«إبراهيم من بعيد ولعازر فى حضنه » قد يقول أحدهم : هل الفردوس فى العالم الأسفل ؟ أقول هذا أن حضن إبراهيم هو فردوس حقيقى، ولكنى أيضاً أسلم بأن حضن الإنسان المقدس هو فردوس .

« فنادى وقال » (الألم المفرط يزيد من قوة صوته) « يا أبى إبراهيم ارحمنى » « أبى إبراهيم » مع أنى فى قبضة العذاب إلا أنى أنادى أبى ، تماماً مثل الابن الذى بدد كل أمواله ينادى أباه ، حتى أنا أناديك أبى على الرغم من معاناتى ، أناديك أبى بالطبيعة مع أنى قد خسرتك كأب بسبب الخطية ، ارحمنى « ففى العالم الأسفل من يقدم لك الشكر ؟ » والآن أيها الغنى فإن توبتك ذهبت هباءً حيث لا تنفع توبة، فالعذاب هو الذى يرغمك على التوبة وليس نزعة روحك « ارحمنى » ، إن إبراهيم أب مقدس ومبارك وكلنا نسرع إلى حضنه ولكنى لست متأكداً إذا كان من الممكن لأى شخص فى الجحيم أو السماء أن يرحم أحداً . فالخالق وحده هو الذى يستطيع أن يرحم خليقته . وهناك طبيب واحد أتى ليقيم الأموات لأن الآخرين لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك .

« أرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء » . أنت مخطئ أيها البائس لأن إبراهيم لا يستطيع أن يرسل، إنه يستقبل فقط ، تذكر حياتك أيها الغنى ، أنت لم تتعطف لترى لعازر فى حياتك الأرضية ، ولكنك تتوق الآن لطرف اصبعه « ارسل لعازر » ، كان ينبغى عليك أن تفعل هذا له أثناء حياته « ليبل طرف إصبعه بماء ». انظر إلى ضمير الخاطئ ، إنه لا يجرؤ أن يطلب الإصبع بالكامل « ويبرد لسانى لأنى معذب فى هذا اللهيب »، يبرد لسانى لأنه تفوه بكلمات كبرياء كثيرة ، حيث توجد خطية يوجد أيضاً عقاب للخطية . كم يمكن أن يكون اللسان شراً؟، يخبرنا يعقوب فى رسالته : « هكذا اللسان أيضاً هو عضو صغير ويفتخر متعظماً » ، فكلما ازدادت خطاياه ازداد عذابه ، تتوق الآن للماء أنت الذى كنت تحتقر كل شئ فى حياتك السابقة .

فقال إبراهيم له : « يا ابنى أذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك » ، إنك أخذت ما اعتقدت أنه خيرات، لكنك لا تستطيع أن تكون سيداً على الأرض وتحكم هنا أيضاً، فمن المستحيل أن يكون لك ثروة على الأرض وفى الهاوية أيضاً، وكذلك لعازر البلايا . فإذا كنا مرضى وإذا كنا فقراء ، أو أضعفنا المرض أو أهلكنا البرد ، إذا لم يكرم أحد وفادتنا لنفرح ولنبتهج ولنستوف البلايا فى حياتنا، وحين يضغط علينا حمل العجز والمرض دعونا نفكر فى لعازر. « وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوه عظيمة » لا يمكن أن تُعبر أو تزال أو تهدم، نحن نستطيع أن نراها لكن لا نستطيع أن نعبرها ، نحن نرى المصير الذى انتهى بنا وأنتم ترون ما خسرتم ، فرحنا وسعادتنا تضاعف عذاباتكم ، عذابكم يزيد سعادتنا .

(عبودية الغنى للحواس)

فقال « أسألك أذاً يا أبت » يا له من مخلوق تعيس لا يتوقف عن مناداته بأبى « أسألك أذاً يا أبت » ، كان يجب عليك أن تناديه بأبى فى الأوقات السابقة لأنه كان أباك الحقيقى ، هل تعترف بأبيك يا من تحتقر أخاك ؟ « أن ترسله إلى بيت أبى » لاحظ الانحراف أنه لا يتكلم بالحق حتى فى وسط آلامه ، انظر إلى ما يقول « أسألك إذاً يا أبت » أبوك إذاً هو إبراهيم فكيف تقول أرسله إلى بيت أبى ؟ أنت لم تنس أباك ، لم تنس من كان أباك الذى حطمك ، لأنه كان أباك وكان لك خمسة إخوة : النظر ، الشم ، التذوق ، السمع ، اللمس ، هؤلاء هم الإخوة الذين كنت مستعبداً لهم فى الماضى ، لقد كانوا إخوة لك وحيث أنهم

كانوا إخوتك الذين أحببت فلم تستطع أن تحب أخاك لعازر ، هؤلاء الإخوة لا يحبون الفقر، نظرك ، حاسة شمك ، تذوقك ، حاسة لمسك، وهؤلاء الإخوة يحبون الثروة ولا يلتفتون للفقر « لأن لى خمسة إخوة حتى يشهد لهم » . إنهم هم الذين أرسلوك إلى هذه العذابات ولا يستطيعون أن يخلصوا ما لم تمت « لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا » لِمَ تريد أن تنقذ هؤلاء الإخوة الذين لا يحبون الفقر ؟ يجب أن يعيش هؤلاء الإخوة مع أخيهم .

« قال له إبراهيم عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم » لِمَ تسأل أن يذهب لعازر ؟ «عندهم موسى والأنبياء » وبالإضافة لذلك فقد كان موسى والأنبياء يسيرون مرتدين جلد ماعز، ويتجولون فى الكهوف والحفر فى الأرض ، لقد كانوا فقراء تماماً مثل لعازر، وتعرضوا للمحن واحتملوا الجوع ، فلِمَ تسألنى لأرسل لعازر ؟ عندهم لعازر فى موسى والأنبياء ، موسى كان لعازر ، لقد كان فقيراً وعرياناً ، حسب فقر المسيح غنىً أعظم من كنوز فرعون ، عندهم أيضاً الأنبياء ، عندهم إرميا الذى ألقى فى جب من الوحل والذى أكل خبز الضيق ، عندهم كل الأنبياء ليسمعوا منهم ، يعظ موسى والأنبياء كل يوم ضد إخوتك الخمسة فليعلموهم وليؤدبوهم ، ليستدعوا العين وماذا يقولون لها ؟ لا تنظرى إلى الأشياء الجسدية بل تبينى الأشياء الروحية ، يقول الرسول : « الذى رأيناه بعيوننا الذى سمعناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الله » ، إنه يرشد الأذن وأيضاً حاسة الشم والتذوق ، كل الأنبياء والقديسيين يعلمون هؤلاء الإخوة .

القديس أوغسطين من هيبو (St. Augustine of Hippo)

أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) هو أعظم آب لاتينى، وواحد من أعظم علماء اللاهوت فى كل العصور ، كان لأسقف هيبو تأثير كبير على الثقافة واللاهوت والموقف الدينى للعالم الغربى كأسقف أدى باقتدار المهام الثقيلة فى رعاية بما فيها بناء ملجأ للفقراء وخمسة كنائس على الأقل ، وكان أيضاً يعظ بلا توقف مركزاً اهتماماً خاصاً على تعاليم الفقراء والأميين، وكان له دور نشيط فى العديد من المجالس الإفريقية فى قرطاج وميلفيس . وكمعلم للإيمان حارب العديد من الهرطقات ولا سيما المانوية والدوناتية والبيلاجيوسية . وإضافة لذلك كتب أوغسطين أعمالاً بما يعادل خمسة عشر مجلداً فى موسوعة قياسية .

ولأن أوغسطين عالم لاهوت فهو يفهم جيداً تاريخ لاهوت النعمة ، ولكنه ناقش فى كتاباته كل الموضوعات الهامة تقريباً فى الفلسفة المسيحية واللاهوت ، لم يقدم أغسطين نظرية اجتماعية نظامية إلا أنه قدم تصورات رئيسية عديدة منتشرة فى كتاباته تشكل بنية التعليم الاجتماعى، وسوف نذكر منها ما هو وثيق الصلة بموضوعنا : النظام الاجتماعى ، الملكية الخاصة، والعلاقة بين الكنيسة والدولة .

أ - يرى أوغسطين أن النظام هو « التوزيع الذى يضع كل من الأشياء المتساوية وغير المتساوية فى مكانها المناسب لها» (مدينة الله ١٩ ، ١٣) . وهذا النظام يوجد فى الكون المادى، عندما يخضع الجماد والكائنات الغير العاقلة للإنسان(Ibid 19, 15) . ويوجد لدى الإنسان نفسه حين تحكم روحه جسده ، وحين يحكم عقله باقى أعضاء جسمه ، (ضد فاوستس ٢٢ ، ٢٧) . وأخيراً يوجد هذا النظام بين الكائنات البشرية فى علاقاتهم بعضهم ببعض ، وهذه العلاقة هى التى تكون النظام الاجتماعى ، والإنسان بالنسبة لأوغسطين هو كائن اجتماعى بالفطرة : « ولأن كل كائن بشرى هو جزء من الجنس البشرى ، كما أن الطبيعة الإنسانية هى تركيبة اجتماعية ، وهى تمتلك القدرة على تكوين الصداقة لأنها خير عظيم ووضع طبيعى . لهذا السبب أراد الله أن يخلق كل الناس من واحد فقط كى يرتبطوا معاً فى مجتمعهم ليس فقط بتشابه الجنس ولكن أيضاً برباط علاقة الدم » (حسنات الزواج ٧) .

يتحقق هذا النظام الاجتماعى فى ثلاثة أشكال : الأسرة والمدينة أو الدولة و المجتمع العام للإنسانية : « يأتى العالم بعد المدينة أو الدولة وهو الدائرة الثالثة للمجتمع الإنسانى - البيت والمدينة » (مدينة الله ١٩ ، ٧) . وكل من هذه الدوائر لها أشكال تعتمد على القانون والسلطة وهذان يجب أن يتبعا القانون الأبدى ، وهذا الأخير «يعتبر القانون الذى يحكم كل شئ فى أسمى درجة » (فى الاختيار الحر للإرادة ١ ، ٦) . ومع هذا ففى قلب النظام الاجتماعى تكمن المحبة ، فالسلطة والقانون لا ينبغى أن يكونا حكماً استبدادياً مطلقاً، بل يجب أن تشكلها محبة الجميع : « لا يوجد واحد فى الجنس البشرى لا يستحق محبتنا إذا لم يكن بسبب محبته لنا فعلى الأقل بسبب طبيعتنا المشتركة » (خطاب ١٣٠ ، ١٣).

علاوة على المحبة فالعدل هو شرط وأساس السلام ، والسلام بالنسبة لأوغسطين هو «هدوء النظام » (مدينة الله ١٩ ، ١٣) . وهذا السلام له أنواع مختلفة : منزلى ومدنى وسماوى ويجب أن يتحقق بين الجسد والنفس وبين الإنسان والله وبين الإنسان والإنسان (مدينة الله ١٩ ، ١٣) .

يرى أوغسطين أن الحرية نفسها هى نتيجة من نتائج المحبة ، وهذا هو معنى قوله المأثور الشهير : «حب وافعل ما تريد » (تعليق على رسالة يوحنا ٧ ، ٨) .

ب ـ تتركز تعاليم أوغسطين فيما يخص العلاقة الاجتماعية للبشر بعقيدة النظام ، فإن تعاليمه فيما يتعلق بالغنى وحق الملكية مبنية على فكرة الاستخدام الصحيح، والفكرة الأخيرة هذه مماثلة فى الجوهر لفكرة النظام حيث أن الاستخدام الصحيح هو انتفاع منظم من الغِنى لتحقيق الغاية ، وهو يعقد مقارنة هامة بين " يستخدم " (Uti) "ويتمتع" (Frui): «أن تتمتع بأى شئ يعنى أن تتمسك به بقوة من أجل الشئ فقط، أن نستخدم شيئاً هو أن نوظف ما تلقيناه لنحصل على ما نحتاج، شريطة أن يكون من اللائق أن نحتاجه (فى العقيدة المسيحية ١ . ٤) . وهذا يعنى أنها يجب أن تُعتبر وسيلة لنحصل على ما نحب «تستخدم » الأشياء ومن بينها الغِنى . لنتعرض هنا لفكرة فائدة الغِنى التى رأيناها عند الآباء اليونانيين وخصوصاً كليمنت من الإسكندرية ويوحنا ذهبى الفم.

فإذا كنا ـ بدلاً من «استخدام» الأشياء «نتمتع» بها ، بمعنى أن نحبها من أجلها فنحن بذلك «نسئ استخدامها» . وفقاً لأوغسطين، تكمن الفضيلة والرذيلة بالفعل فى «التمتع». و«الاستخدام» الصحيح للأشياء، وتكمن الفضيلة فى «التمتع» بالأشياء الواجب التمتع بها، وفى استخدام الأشياء الواجب استخدامها . بينما تكمن الرذيلة فى التمتع بالذى يجب أن يستخدم وفى استخدام ما يجب «التمتع» به (فى العقيدة المسيحية ١ . ٣) . يكون استخدام الأشياء استخداماً صحيحاً عندما «تظل الروح متوافقة مع قانون الله ، وتخضع لله الواحد بمحبة كاملة ، وتدير كل الأشياء التى أعطيت إياها بلا قلق، أى وفقاً لتصورات الله (تعليق على التكوين ١، ٣) . ويكون استخدام الأشياء سيئاً عندما «يتعلق الشخص بها ، ويقع فى شركها ، بمعنى أنه يخضع للأشياء التى يجب أن تخضع له ، ويخلق لنفسه ممتلكات

يتطلب استخدامها الصحيح والملائم أن يكون هو نفسه صالحاً» (فى الاختيار الحر للإرادة ١، ١٣) .

يعترف أوغسطين بحق الملكية الخاصة ولكنه يعتبره مبرراً فقط حين تستخدم الممتلكات على نحو صحيح ، فتكون مقصورة على الاحتياجات الأساسية . عند أوغسطين تصور صارم للاحتياجات ، وهو يرى أن ما زاد عن الطعام والكساء الضرورى هو زائد لا ضرورة له، وكل ما هو زائد يجب أن يعطى للآخرين . كما يصر مكرراً: تأكد أن القليل يكفيك ، وأن الله يطلب منك أن تعطى كل الأشياء الزائدة للفقراء ، لأن هذه الأشياء الزائدة هى ممتلكات الآخرين (تعليق على مزمور ١٤٧ ، ١٢) .

ومن ثم فإن الغرض من الممتلكات المادية عند أوغسطين هو الإيفاء بالاحتياجات الأساسية للإنسان، ويستطيع الشخص أن يتملكها شريطة أن يكون هذا الهدف فى عقله، ولكن حين يُساء استخدامها أو عندما تصبح زائدة غير ضرورية ، فإنه بذلك ينتقص شرط أساسى من شروط الملكية الصحيحة . ونتيجة لهذا فمن يمتلكها يفقد حقه فيها ، فيتحتم عليه أن يعطيها للآخرين (عظة ٥٠ ، ٤) . ونتج عن هذا التزام أخلاقى صارم بمشاركة الأشياء الزائدة . ونستطيع أن نقول إن هذا الإصرار على مشاركة الممتلكات الأرضية هو أهم صفة مميزة للتعاليم الاجتماعية عند أوغسطين ، وهو يعتقد أن عدم مشاركة الأشياء الزائدة عن حاجة المرء مع المحتاجين يعادل الاحتيال (عظة ٢٠٦ ، ٢) والسرقة (عظة ١٧٨، ٣ـ٤).

وتوجد فقرتان فى أعمال أوغسطين ، وأعنى بهما (فى إنجيل يوحنا، بحث ٦، ٢٥، ٢٦) و(رسالة ٩٣، ٧، ٥٠) توضحان أن أوغسطين يحتفظ بتصور وضعى للملكية الخاصة بكل ما فى الكلمة من معنى ، ويبدو أنه يؤكد أن حق الملكية الخاصة إنما يعتمد على القوانين الإمبراطورية وليس على طبيعة الإنسان ، إلا أن معنى هاتين الفقرتين يبطل مثل هذا التفسير، ففى مناظرته مع الدوناتيين (DONATISS) الذين ادعوا أن لهم حق شرعى فى ملكية كنائسهم ، قال أوغسطين : – إن ادعاءاتهم يمكن أن نفندها بناء على ما جاء فى

الكتاب المقدس أو القوانين ، فالكتاب المقدس لم يحدد من سيتملك وماذا سيمتلك بصورة محددة ، ومن الناحية الأخرى إذا لجأ الدونانتيون للقوانين البشرية فسيدحضون أنفسهم ، لأن القوانين البشرية تنكر عليهم امتلاك الأشياء التى يدعون ملكيتها.

حـ ـ أخيراً سنذكر بإيجاز رؤية أوغسطين للدولة، والعلاقة بينها وبين الكنيسة، يرى أوغسطين الإنسان فى حالة السقوط وقد أفسدته الخطية إلى حد بعيد، تسوقه الرغبة المتأججة فى تعظيم الذات والشهوة التى لا تلين للسيطرة على الآخرين ، والشهية النهمة للشهرة والمجد، ولأنهم حيوانات اجتماعية فإن الناس بالضرورة يعيشون معاً فى المجتمع ، لكن لأنهم فاسدون يحتاجون للدولة لتسيطر على رغباتهم المتأججة. ومن ثم فإن الغرض من الدولة هو المحافظة على السلام الأرضى والسلام الخارجى ـ الذى هو ضرورى لكل الناس ـ يمكن أن نطلق عليه : سلام بابل (the peace of Babylon) ، وهو ليس مثل السلام الحقيقى لمدينة الله، إذ تحقق الدولة أغراضها أستناداً على استخدام الإجبار والتخويف من العقاب ، ولكن وفقاً لأوغسطين حتى هذا الغرض يتحقق بطريقة ناقصة ، لأن من يتولون السلطة السياسية ما هم إلا رجال خطاة معرضون للخطأ.

على الرغم من عيوب الحكام الذين رسمهم الله ليكونوا الكهنة الذين يعلنون غضبه على فاعلى الشر لكنهم يجب أن يُطاعوا ويُحترموا إلا اذا أُمروا بشئ يخالف بوضوح وصايا الله ، ومع ذلك فحتى فى هذه الحالة ليس من حق أحد الرعية أن يتمرد على الحاكم ، بل يجب أن يكون مستعداً لتقبل العقاب الذى أنزله الحاكم به بسبب تمرده ، ويصلى لله أن يسامح من يظلمه.

يعلمنا أوغسطين أيضاً أنه من واجب المسيحى أن يشارك فى عمل الدولة كإمبراطور أو مسئول أو قاض أو جندى أو سجان . ومثل هذا التعليم يمثل بدون شك انحرافاً عن موقف العهد الجديد فيما يتعلق بدور المسيحى فى الدولة . وعلاوة على ذلك فإن قلب أوغسطين الجذرى لموقف المسيحيين التقليدى تجاه الدولة وحكامها ، إنما أتى خلال صراعه مع الدوناتيين حين غير رأيه أخيراً، وأكد أن السلطات السياسية ليس لها الحق فقط بل أيضاً الالتزام باستخدام سلطانها لتعاقب هؤلاء المذنبين بالهرطقة والانشقاق عن حكم الكنيسة،

وتعاليم أوغسطين هذه ـ والكثير غيرها فيما يتعلق بالكنيسة والدولة ـ هى أمثلة لمحاولته الواقعية فى تكييف رسالة الإنجيل لظروف زمانه المتغيرة باستمرار.

الجزء الأول

الكتابات الاجتماعية

فى الاختيار الحر للإرادة

القانون السرمدى والقانون الوقتى

أوغسطين: من ثم إن وافقت دعنا نسمى القانون وقتياً لأنه يمكن أن يتم تغييره مع الوقت حتى وإن كان عادلاً.

أيفوديوس:دعنا نوافق على هذا الاسم .

أوغسطين: ماذا فى القانون يُسمى العقل الأسمى الذى يجب أن يُطاع دائماً، القانون الذى من خلاله يستحق الأشرار حياة بائسة، والصالحون حياة سعيدة والذي من خلاله يمكن أن يتوافق القانون الذى أسميناه للتو القانون الوقتى؟ أيستطيع أى إنسان مفكر أن يدرك أنه ثابت سرمدى؟ أيمكن أن يكون من الظلم أن يبتئس الأشرار ويسعد الأبرار أو أن يختار الناس المنظمون مسئوليتهم ويُحرم الأشرار من ذلك ؟

أيفوديوس : أنا أرى أن هذا القانون أبدى وغير قابل للتغيير .

أوغسطين: أنا أعتقد أيضاً أنك تفهم أن القانون الوقتي لا يوجد فيه شئ عادل وشرعى ليس أساسه القانون السرمدى ، فإذا كانت أمة ما تمنح المناصب على نحو عادل وفى زمان آخر لا تمنحها بعدل ، فهذا التغير عادل مع أنه وقتى ، ولأنه مستمد من القانون السرمدى حيث أنه يصدر من أناس موثوق بهم ، أم لديك وجهة نظر أخرى ؟

أيفوديوس: اوافق

أوغسطين: سأضع هذا فى كلمات قليلة بقدر ما أستطيع ، طُبعت فكرة القانون

السرمدى فى عقولنا: إنه ذلك القانون الذى تُسيِّر به الأمور فى أسمى درجة على نحو عادل، إذا كان لديك اعتراض أخبرني به الآن.

أيفوديوس: ليس لدىّ أى اعتراض لأن ما تقول هو حق.

أوغسطين : لذلك فمع أنه يوجد قانون واحد تتغير وفقاً له كل القوانين الوقتية التى تحكم الناس ، إلا أن القانون السرمدى نفسه لا يمكن أن يتغير ، أليس كذلك؟

أيفوديوس: أعرف أنه لايمكن أن يتغير، لا تستطيع أى سلطة أو مصادفة أو محنة أن تبرر القانون الذى لا يملك أن يعدل فى كل الأحوال ليكون هو الأسمى مكاناً ودرجةً .

(القوانين السرمدية والوقتية والاستخدام الصحيح للثروة)

أوغسطين: حيث إنه من الواضح أن بعض الناس يحبون الأشياء الأبدية ، بينما يحب آخرون الأشياء الوقتية ، وحيث أننا اتفقنا على أنه يوجد نوعان من القوانين ، السرمدى والوقتى ـ فإذا كان لديك أية فكرة عن العدل ففى رأيك من يجب أن يخضع للقانون السرمدى ومن يخضع للقانون الوقتى؟

إيفوديوس: أعتقد أن ما تسأل عنه يسهل الإجابة عليه، فمن الواضح أن السعداء الذين يحبون الأشياء الأبدية يسلكون وفقاً للقانون السرمدى، بينما يخضع التعساء للقانون الوقتى.

أوغسطين : حكمك صائب شريطة أن تتمسك بشدة بما يظهره العقل بوضوح: إن أولئك الذين يخدمون القانون الوقتى لايمكن أن يتحرروا من القانون السرمدى الذى قلنا إن كل الأشياء العادلة ـ أوالتى تغير على نحو عادل ـ مستمدة منه ، وإن أولئك الذين يلتزمون بالقانون السرمدى من خلال المشيئة الصالحة لا يحتاجون إلى القانون الوقتى ويبدو أنك تفهم هذا على نحو جيد وتماماً.

أيفوديوس: نعم أفهمه.

أوغسطين: وعلى هذا فالقانون السرمدى يأمرنا أن نحول محبتنا بعيداً عن الأشياء الوقتية وأن نوجهها بعد أن يتم تطهيرها إلى الأشياء الأبدية.

أيفوديوس: نعم إنه يأمرنا بهذا.

أوغسطين: ما هو اعتقادك فيما يأمرنا به القانون الوقتى أن نتملك تلك الأشياء التى نسميها ملكنا لبرهة من الوقت (حين يتمسك الناس بها بدافع من الرغبة). فهذا الحق يحفظ السلامة ويحفظ المجتمع الإنسانى. بقدر ما يمكن أن تتم المحافظة عليها وسط هذه الظروف؟ وهى أولاً :- الجسد مع ما يتبعه، مثل الصحة الجيدة والحواس الحادة والقوة والجمال، وبعض من هذه الأشياء نحتاجها في الفنون المفيدة ومن ثم تزداد قيمتها بينما توجد غيرها أقل منها فى القيمة، وبعد هذا توجد الحرية، وهى ليست فى واقع الأمر الحرية الحقيقية المحفوظة لأولئك السعداء الذين يلتزمون بالقانون السرمدى، بل أتحدث عن تلك الحرية التى يعتقد من ليس لهم سادة أنهم يمتلكونها، والتى يرغب فيها من يتمنون أن يتحرروا من السادة البشريين. وبعد ذلك يوجد الوالدان والإخوة والزوج أو الزوجة والأطفال والأسرة والأقارب والأصدقاء وأولئك المرتبطون بنا برباط من الألفة، وبعد ذلك توجد الدولة نفسها التى عادة ما يكون لها مكانة أحد الوالدين، ويوجد أيضاً الشرف والمجد وما يسمى الشهرة الشعبية، وأخيراً توجد الممتلكات، وهو اسم يشمل كل الأشياء التى نمتلكها بحق والتى يكون لنا عليها السلطة فى أن نبيعها أو نهبها.

من الصعب أن نوضح كيف يوزع القانون على كل إنسان ممتلكاته الخاصة، ومن الواضح أيضاً أن ذلك ليس ضرورياً فى مناقشتنا، ويكفى أن ندرك أن السلطة التى يمارسها هذا القانون لا تتعدى الحرمان من هذه الأشياء أو نزعها كلها أو بعضاً منها من أولئك الذين يستحقون العقاب. إن القانون يحافظ على النظام من خلال التخويف ويحول دون الرغبات التى تريدها عقول هؤلاء التعساء الذين تم تكييفهم ليحكمهم. ولأن الناس يخافون أن يفقدوا الممتلكات الوقتية فهم عندما يستخدمونها يتقيدون بمرونة تلائم روابط المجتمع الذى يؤسسه الناس من هذه النوعية، وهم لا يعاقبون خطية محبة الأشياء الوقتية إلا حين تنزع هذه الأشياء الوقتية المملوكة منهم بصورة غير أمينة. انظر كيف وصلنا للنقطة التى اعتقدت أنت أنها بعيدة جداً، لأننا خططنا أن نبحث إلى أى مدى يكون للقانون الذى يحكم دول وشعوب هذا العالم الحق فى أن يعاقب.

أيوفوديوس: أدرك ذلك أيضاً .

أوغسطين: وهكذا فإن بعض الناس يستخدمون هذه الأشياء على نحو سيئ ، وآخرون يستخدمونها على نحو صالح ، والإنسان الذى يسئ استخدامها يتمسك بها بمحبة ، فيقع فى شركها (بمعنى أنه يصبح خاضعاً للأشياء التى ينبغى أن تخضع له ، ويخلق لنفسه أشياء يتطلب استخدامها الصالح والملائم أن يكون هو نفسه صالحاً) . لكن الإنسان الذى يستخدمها على نحو جيد يثبت أنها بالفعل خيرات ، مع أن هذه الخيرات قد لا تكون له شخصياً (لأن هذه الخيرات لا تجعله صالحاً ولا تضعه فى مكانة أفضل ، ولكنها هى تصبح خيرات أفضل بسببه هو) . ومن ثم فهو لا يتعلق بها بمحبة خشية أن يجعلها امتداداً لروحه (وهو ما يحدث حين يحبها) وخشية أن تضعفه بالآلام والذبول حين تبدأ فى الانفصال عنه، وبدلاً من هذا فليكن هو فوق الأشياء الوقتية بالكامل، يجب أن يكون مستعداً ليتملكها ويسيطر عليها وأكثر استعداداً لأن يفقدها ويخسرها، وحين يحدث هذا لا تظن أن الفضة أو الذهب يجب أن يلاما بسبب الجشعين ، وكذلك الطعام والخمر بسبب النهمين والسكارى ، أو الجمال الأنثوى بسبب الزناة والفاسقين ، وهكذا مع الأشياء الأخرى فقد ترى طبيباً يستخدم النار لفائدة الناس بينما نجد شخصاً آخر يستخدم الخبز لكى يرتكب جريمة قتل بعد أن يدس فيه السم .

أيفوديوس: هذا فعلاً صحيح ، الأشياء نفسها لا يجب أن تدان بل الناس الذين يستخدمونها على نحو شرير.

طرق حياة الكنيسة الكاثوليكية

(امتلاك الثروة والكمال)

إذا فكر أى شخص فى كل كلمات أيوب بهدوء وسكينة ، سيرى قيمة تلك الأشياء التى يتمنى الناس أن تكون لهم السلطة عليها والتى يتعلقون بها بجشع ، لدرجة أنهم يصبحون عبيداً لها حتى وإن حاولوا أن يتسيدوها.

بعد أن فقد أيوب كل ثروته وأصبح فقيراً معدماً لم تضطرب روحه ، بل تثبت أكثر فى الله كى يبين أنه لا أهمية للأشياء الأرضية فى نظره ، فهو أعظم منها والله بدوره أعظم

منه، فإذا كان لأناس هذه الأيام نفس هذه العقلية ما كنا مُنعنا مكرراً فى العهد الجديد من امتلاك هذه الأشياء كى ما نصل للكمال ، لأن امتلاكنا لمثل هذه الأشياء بدون أن نتعلق بها لشئ جدير بالثناء أكثر من عدم الامتلاك مطلقاً.

(المسيحية وامتلاك الخيرات)

لِمَ تستمرون أيها المانويون (أتباع مانى الفارسى الذى دعا إلى الأديان بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام) فى ثورتكم؟ لِمَ تسمحون لأنفسكم أن يعميها التحامل الحزبى؟ ولِمَ تستمرون في هذا الدفاع الممل عن مثل هذه الأخطاء؟ ابحثوا عن الثمار فى الحقل، والحبوب فى أرضية الدراسة وستعثرون عليها بلا صعوبة، بل ستعرض هى نفسها لمن يسعى خلفها، لِمَ تحدقون فى النفاية بإصرار؟ لِمَ تبعدون الجهلاء بعيداً عن فيض البستان الخصب حيث تضعون الحواجز ؟ بالتأكيد يوجد ممر يعرفه قليلون يستطيع المرء أن يدخل من خلاله لكنكم لا تؤمنون بوجوده أو لا ترغبون فى اكتشافه، يوجد فى الكنيسة الكاثوليكية أعداد كبيرةً من المؤمنين الذين لا يستخدمون الخيرات الدنيوية، ويوجد آخرون يستخدمونها كأنهم لا يستخدمون، كما قال الرسول (١كورنثوس ٣١:٧) اتضح هذا فى الأزمنة التى أجبر المسيحيون فيها على عبادة الأوثان لأنه كم من أثرياء وأرباب بيوت ريفية وتجار وجنود، كم من قادة وحتى أعضاء مجلس شيوخ وأشخاص من كلا الجنسين عانوا وقاسوا بسبب الإيمان والدين الحقيقى، وتخلوا عن تلك الخيرات التافهة الوقتية التى استخدموها ولكن لم يستعبدوا لها وبذلك أثبتوا لغير المؤمنين أنهم امتلكوا هذه الأشياء ولم تتملكهم.

٧٨ ـ لِمَ تدّعون بخبث أن المؤمنين الذين تجددوا بالمعمودية لاينبغى لهم ـ فيما بعد ـ أن ينجبوا أطفالاً أو يتملكوا أرضاً أو منازلاً أو أموالاً؟

يسمح القديس بولس بمثل هذه الأشياء ، لأنه لايمكن أن ينكر أنه كتب للمؤمنين ما يلى بعد أن عدّد الأشرار الذين لن يرثوا ملكوت الله : «وهكذا كان أناس منكم لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١كورنثوس ١١:٦). وبالتأكيد لن يجرؤ أحد على أن يفهم أن الذى اغتسل والذى تقدس هو إنسان آخر غير الإنسان المؤمن وأولئك الذين تخلوا عن هذا العالم .

(الخيرات تقتنى على نحو شرعى بالقانون السماوى أو الإنسانى)

٩٣ (موجه إلى فنسنت ، أحد الأساقفة الدوناتيين)

٥٠ ـ استمع منى لصوت (حبوب الرب) التى تترضض بين العصافة حتى يتم تذريتها فى النهاية على (أرضية درّاسة الرب) التى هى العالم الواسع حيث « دعا الله الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها » وحيث يمجد الله حتى الأطفال ، استمع إلى هذا الصوت: كل من يضطهدك بسبب هذا المرسوم الإمبراطورى ولا يقويك من خلال المحبة بل يبدى كراهيته لك ، كما لو كان عدواً ، فمثل هذا الشخص يغضبنا.

ومع أنه لا يوجد من يمتلك بحق شيئاً من الخيرات الأرضية إلا بالقانون السماوى الذى به يمتلك الإنسان العادل كل الأشياء ، أو بالقانون الإنسانى الذى تشرعه سلطة الملوك الأرضيين ، وحيث أنكم تدعون ملكية الأشياء بغير حق حيث تأمركم قوانين الملوك الأرضيين أن تتخلوا عنها فلن يجدى قولكم: «نحن قد عملنا بكد لنجمعها» حين تقرأون هذا النص: «ثروة الخاطئ تذخر للصديق» (أمثال ١٣:٢٢) لكنه مما يثير استنكارنا أن يشتهى شخص ما ممتلكاتك بناء علي القانون .

وأخيراً ، فإذا احتفظ أحد بممتلكات الفقراء أو بكنائس الشعب التى أنتم تحتفظون بها والتى تخص الكنيسة بالكامل، يسبب الطمع وليس العدل فإنه أيضاً يثير استنكارانا.

(الممتلكات تصبح صالحة من خلال صلاح من يمتلكها)

(موجه إلى بروبا)

ينبغى عليك من خلال المحبة لهذه الحياة الحقيقية أن تعتبر نفسك بائساً في هذا العالم ، بغض النظر عن السعادة التى تتمتع بها . إننا نحيا الآن حياة قد تبدو حقيقية ، فمهما كانت هذه الحياة مبهجة ومهما امتدت وطالت ، فإن تلك الحياة التى نحياها الآن لا تسمى حياة مقارنة مع تلك الأخرى التى نحبها كثيراً، هكذا أيضاً الراحة الحقيقية التى وعد الله بها حين قال النبى: « سأعطيهم راحة حقيقية سلام على سلام » (إشعياء ٥٧ : ١٨ ، ١٩).

وبدون هذه الراحة لا يوجد سوى الأسى والحزن ، فليس هناك تعزيات فى الراحة

الأرضية مهما كانت ، فالثروة والمناصب الرفيعة والأشياء الأخرى هى أشياء يعتقد الناس أنهم سعداء بسبب تملكها ، لأنهم لم يعرفوا أبداً تلك السعادة الحقيقية ، وما هى الراحة التى يمكن أن تقدمها هذه الأشياء ، عندما يكون من الأفضل ليس فقط أن لا نتمسك بها ولكن أن لا نحتاجها من البداية.

وعندما يعذبنا تشوقنا الشديد لتملكها ألا نزال نتعذب أكثر من الخوف من فقدانها بعد أن نمتلكها؟ لا يصبح الناس صالحين بمثل هذه الممتلكات ، ولكن بعد أن يصبحوا صالحين بطريقة أخرى فإنهم يجعلون هذه الأشياء صالحة عن طريق استخدامها على نحو صالح، وعلى ذلك فإنه لا يوجد راحة حقيقية فى هذه الأشياء بل توجد الراحة حيث توجد الحياة الحقيقية ، وسعادة الإنسان إنما تتأتى بالضرورة من نفس المصدر الذى أتى منه صلاحه.

(الكفاية والأشياء الزائدة)

١٢ ـ هل نتفق إذاً أنه فوق الرفاهية الوقتية يجوز للناس أن يتطلعوا للمناصب ذات المقام الرفيع والسلطة لأنفسهم ولعائلاتهم؟ بالتأكيد أنه من الملائم أن يتطلعوا إلى هذه الأشياء ليس من أجل هذه الأشياء نفسها، بل لسبب آخر وأعنى به أن يفعلوا الخير. وذلك بتحقيق الرفاهية لمن يعيشون تحت حكمهم . لكن ليس من الملائم أن يشتهونها بدافع من الكبرياء الأجوف، والغرور أو التفاخر عديم الجدوى ، أو الزهو الضار. ومن ثم فإذا تمنوا ما هو كاف فقط من ضروريات الحياة لأنفسهم ولعائلاتهم كما يقول الرسول: « وأما التقوى مع القناعة فهى تجارة عظيمة لأننا لم ندخل العالم بشئ وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشئ فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فسيقطون فى تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس فى العطب والهلاك لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة (١تيموثاوس ٦:٦ـ١٠) . فهذه الكفاية ليست مرفوضة لأن من يتطلع لأكثر من الكفاية أصبح يرغب فى شئ غيرها وأصبح يتمنى شيئاً خاطئاً . هناك إنسان تمنى هذا وصلى من أجله قائلاً :

«لاتعطنى فقراً ولا غنى، اطعمنى خبز فريضتى لئلا أشبع وأكفر وأقول من هو الرب أو لئلا أفتقر وأسرق وأتخذ اسم إلهى باطلاً (أمثال ٣٠: ٨ و ٩) . وبالتأكيد ترى أن هذه الكفاية لا تشتهى من أجل ذاتها بل لتعول صحة الجسد والكساء الذى يلائم كرامة الإنسان

الشخصية ، والتى تمكنه من أن يحيا مع الآخرين بشرف وباحترام.

من أمثلة الأشياء التى نتمناها سلامة الإنسان الشخصية والصداقة ، شرط أن يتمناهما المرء من أجل ذاتهما . ونحن نسعى وراء الكفاية فى ضروريات الحياة ، وسعينا هذا يكون صحيحاً إذا تم على نحو يتمشى مع السببين الذين ذكرا سابقاً وليس من أجل الكفاية نفسها، فالسلامة الشخصية مرتبطة إلى حد بعيد بالحياة ، والصحة وسلامة العقل والجسد . وبنفس الطريقة فإن الصداقة ليست محدودة بقيود ضيقة فهى تشمل كل الذين لهم الحق فى المحبة والمشاعر ، مع أنها قد تصل سريعاً للبعض وتصل ببطء للبعض الآخر، ولكنها تصل حتى إلى أعدائنا الذين أوصينا أن نصلى من أجلهم.

وهكذا ، فإنه لا يوجد واحد فى الجنس البشرى لا يستحق المحبة سواء كان ذلك مقابل الحب المتبادل أم بفضل اشتراكه فى طبيعتنا المشتركة، بيد أن أولئك الذين يحبوننا بالتبادل فى القداسة والطهارة هم مصدر فرحنا الحقيقى ، وهذه هى الخيرات التى يجب أن نصلى لنحتفظ بها حين تكون لدينا ، ونحاول أن نحصل عليها حين لا تكون لدينا .

(الاستخدام السيئ للممتلكات يحرم المالك من حقه فى الملكية)

١٥٣ ـ (موجه إلى ماسيدونيوس)

والآن إن نظرنا بإمعان لما هو مكتوب: «العالم كله ثروة الأمين ، أما غير الأمين فليس عنده شئ» ، ألا نثبت أن هؤلاء الذين يقرضون بالأرباح المكتسبة بصورة شرعية ولا يعرفون كيف يستخدمونها، إنما يمتلكون بالفعل ممتلكات الآخرين؟ إن ما يُمتلك على نحو شرعى ليس ممتلكات الآخرين ، ولكن «شرعى» يعنى :– "بحق" "وبحق" يعنى:– "على نحو صحيح" وكل من يسئ استخدام ثروته فهو بذلك يمتلكها على نحو غير شرعى والامتلاك غير الشرعى يعنى أن هذه الممتلكات تخص الآخرين، ترى إذاً عدد الذين ينبغى عليهم إعادة ممتلكات الآخرين لأصحابها مع أن عدد أولئك الذين يستحقون إعادة الملكية قد يكون قليلاً.

من الواضح أنه لا أحد يمتلك العدل على نحو غير شرعى : فكل من لا يحب العدل لن يناله ، لكن الأشرار يمتلكون المال بشكل سيئ بينما الأبرار لا يحبون المال رغم أنهم أصحاب الحق فى هذا المال ، فهم يحتملون ظلم الملاك الأشرار كما تشرع فى مواجهتهم

قوانين تسمى القوانين المدنية ، ليس لأنها تجعل الناس يستخدمون ثروتهم بأسلوب صحيح ولكن لكى تحد من الاستخدام السيئ ليصبح أقل إيذاءً للآخرين.

وهذا يحدث لأن بعضاً منهم يصبحون مؤمنين ومتحمسين - وهؤلاء لهم الحق فى كل الأشياء - أو لأن هؤلاء الذين يعيشون وسطهم لا تعوقهم أعمالهم الشريرة فبعد أن تم اختبارهم وصلوا إلى المدينة ليرثوا الأبدية حيث الأبرار فقط لهم مكان ، وحيث الحكماء فقط لهم القيادة ، وكل من يوجد هناك يمتلك بحق ما هو له .

ومع هذا فحتى هنا لا نتوسط لنمنع إعادة الملك وفقاً للأعراف والقوانين الدنيوية ، مع أننا نتمنى أن تكونوا متسامحين مع فاعلى الشر ليس لنجعلهم يتمتعون أو يستمرون فى شرهم لكن لأنه متى أصبح أى منهم صالحاً فإن الله ترضيه ذبيحة الرحمة، وإذا لم يجده فاعلو الشر رحيماً فلن يكون هناك أناس صالحين .

(إمكانية خلاص الغنى ، الملكية والأسرة)

١٥٧ - (موجه إلى هيلاريوس)

٢٣ - استمع الآن لشئ ما عن الغنى رداً على الاستفسار التالى فى رسالتك ، ففيها كتبت أن البعض يقولون إن الغنى الذى يستمر غنياً لا يمكن أن يدخل ملكوت السموات ما لم يبع كل أملاكه ، وإن حفظه للوصايا لا يفيده طالما احتفظ بثروته ، وجدالهم هذا أغفل آباءنا إبراهيم وإسحق ويعقوب الذين رحلوا منذ زمن بعيد عن هذه الحياة.

إنها حقيقة أن كل هؤلاء كان لديهم ثروات طائلة ، كما يشهد الكتاب المقدس بذلك بأمانة. ومع هذا فإن الذى أصبح فقيراً من أجلنا مع أنه كان غنياً بحق تنبأ فى وعد صادق أن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون ليس فوقهم وليس بدونهم بل معهم فى ملكوت السموات (متى ٨:١١) . مع أن الغنى المتعجرف الذى كان يلبس الأرجوان والبز ويأكل ما لذّ وطاب انتهت حياته ومات وتعذب فى الهاوية، فلو أنه رحم الفقير فإنه كان سينال رحمة لكنه عامل الفقير باحتقار . أما الفقير فلو أنه كان يستحق الرحمة لمجرد أنه فقير وليس لأنه صالح ، فإن الملائكة لم تكن تأتى لتحمله إلى حضن إبراهيم ، فإبراهيم نفسه كان غنياً أثناء حياته.

والمقصود من هذا هو أن نرى أن الفقرلم يكن نفسه هو الذى تجازيه السماء ، ولم يكن الغنى نفسه هو الذى تدينه ، بل كان الجزاء مبنياً على ورع الواحد وعدم تقوى الآخر . وكما كان عذاب النار هو نصيب الغنى غير التقى كذلك استقبل حضن إبراهيم هذا الفقير الورع ، مع أن إبراهيم كان غنياً إلا أنه كان ينظر لثروته بلا مبالاة ، وكان يرى أن لها قيمة ضئيلة مقارنةً بوصايا الله لدرجة أنه ما كان ليغضب الله برفضه أن يقدم ابنه ذبيحة بناءً على وصية الله ، ذلك الابن الذى كان يتمناه ويصلى من أجله كوريث لثروته (تكوين ٢٢:١ـ١٠).

٢٤ ـ وفى هذه النقطة قد يقولون إن الآباء القدماء لم يبيعوا كل أملاكهم ليعطوها للفقراء لأن الرب لم يوص بهذا، لم يكن العهد الجديد قد أعلن بعد ، لأنه كان من المناسب ألا يحدث هذا إلا بعد أن يأتى ملء الزمان ، كذلك لم يكن ملائماً أن تكشف فضيلتهم إلا أن الله كان يعلم أنهم يستطيعون أن يمارسوا هذه الفضيلة فى داخلهم ، وشهد لهم مع أنه إله كل القديسيين والأبرار إلا أنه تلطف وتحدث عنهم كأصدقاءه «إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب هذا اسمى إلى الأبد» (خروج ١٥:٣) . لكن بعد «عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد» (١تيموثاوس ١٦:٣) أصبح مجئ المسيح منظوراً بدعوة كل الأمم ، والآباء أيضاً آمنوا به لكن احتفظوا بالإيمان فى أصل الزيتونة التى نرى ثمارها فى حينه كما يقول الرسول (روميه ١١:١٧) . ومن ثم قيل للغنى «بع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى» (متى ١٩:٢١).

٢٥ ـ يبدو أنهم يتحدثون بشئ من المنطق عندما يقولون هذا، لكن يجب عليهم أن يسمعوا ويحسبوا حساب الكل لا أن يفتحوا آذانهم للنصف ويسدّونها عن النصف الآخر، لمن أعطى الرب هذه الوصية؟ للغنى الذى كان يطلب منه نصيحته ليرث الحياة الأبدية لأنه قال للرب : «أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية» (متى ١٩: ١٦ـ٢٢)، لم يقل له المسيح «إن أردت أن تدخل الحياة بع كل أملاكك» بل قال : « إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا» . وحين قال الشاب إنه قد حفظ كل الوصايا التى ذكرها الرب له فى الناموس، وسأل سؤالاً آخر عن ماذا يعوزه بعد، تلقى الرجل هذه الإجابة من المسيح : «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء». ولئلا يعتقد أنه سيخسر ما يحبه كثيراً قال له: «فيكون لك كنز فى السماء» ثم أضاف «وتعال اتبعنى» . حتى لا يعتقد من يفعل هذا أن

هناك مكافأة أخرى غير مكافأة اتّباع المسيح، لكن الشاب مضى حزيناً . وهكذا يستطيع أن يرى كل شخص كيف حفظ الشاب وصايا الناموس ، لأنى أعتقد أنه كان يتكلم بكبرياء أكثر منه بحق حين أجاب بأنه حفظها، ولكن من الواضح أن المعلم الصالح ميز بين وصايا الناموس ، وذلك الكمال السامى لأنه فى أحد المواضع قال: «إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا» وفى موضع آخر «إن أردت أن تكون كاملاً بع كل أملاكك» .لِمَ إذاً نرفض أن نعترف أن الأغنياء مع أنهم بعيدون كل البعد عن هذا الكمال يدخلون الحياة على الرغم من هذا إن هم حفظوا الوصايا وأعطوا كى يُعطى لهم وغفروا كى يُغفر لهم ؟

٢٦ ـ نعتقد أن الرسول بولس كان كاهناً للعهد الجديد حين كتب إلى تيماثوس قائلاً: «اوص الأغنياء فى هذا الدهر الحاضر أن لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى بل على الله الحى الذى يمنحنا كل شئ بغنى للتمتع وأن يصنعوا صلاحاً ، وأن يكونوا أغنياء فى أعمال صالحة، وأن يكونوا أسخياء فى العطاء كرماء فى التوزيع مدخرين لأنفسهم أساساً حسناً للمستقبل كى يمسكوا بالحياة الأبدية» (١تيموثاوس ٦:١٧ـ ١٩).

وبنفس الطريقة قيل للشاب «إن أردت أن تدخل الحياة»، أعتقد أن الرسول حين أعطى هذه الوصايا للأغنياء لم يكن مخطئاً فى عدم قوله: «اوص أغنياء هذا العالم أن يبيعوا كل أملاكهم ويعطوها للفقراء ويتبعوا المسيح» بدلاً من «أن يستكبروا ويلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى ». كبرياء الغنى ـ وليس غناه ـ هو الذى أودى به لعذاب الهاوية ، لأنه احتقر الفقير البار المطروح عند بابه ، ولأنه ألقى رجاءه فى الغِنى غير اليقينى، واعتقد أنه سعيد فى ارجوانه وبزّه وموائده المترفة.

٢٩ ـ ليستمع الأغنياء إلى هذا : « الغير مستطاع عند الناس مستطاع عند الله » وسواء احتفظوا بثرواتهم وفعلوا أعمالهم الصالحة بواسطتها أم دخلوا ملكوت السموات عن طريق بيعها وتوزيعها لإعالة احتياجات الفقراء ، فلينسبوا أعمالهم الصالحة ليس لقوتهم الشخصية بل لنعمة الله، الغير مستطاع عند الناس مستطاع ـ ليس للناس بل لله ـ لتدع أصدقاءك يسمعون هذا وإذا لم يكونوا قد باعوا كل ممتلكاتهم بالفعل ووزعوها على الفقراء أو لا زالوا يخططون ويرتبون لفعل ذلك ، وبهذه الطريقة يستعدون لدخول ملكوت السموات ، لا تدعهم ينسبون ذلك لقوتهم الشخصية بل لنفس النعمة السماوية ، لأن الغير مستطاع

عند الناس لأنهم أناس بل بالنسبة لله . يقول لهم الرسول : «تمموا خلاصكم بخوف ورعدة لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة» (فيلبى ٢:١٢)، نعم هم يقولون إنه عن طريق بيع ممتلكاتهم فإنهم بذلك يتبعون وصية الرب فى الكمال لأنه أضاف هناك : «وتعال اتبعنى» لماذا إذاً فى أعمالهم الصالحة يعتمدون كليةً على إرادتهم ولايسمعون توبيخ وشهادة الرب : «بدونى لاتقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يوحنا ١٥:٥).

٣٠ـ قال الرسول : «اوص الأغنياء أن لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى» .ومعنى هذا أنه ينبغى عليهم أن يبيعوا كل أملاكهم ، وأن يربحوا مكافأتهم بتوزيعها على المحتاجين، ثم تبع ذلك بقوله : «أن يكونوا أسخياء فى العطاء كرماء فى التوزيع مدخرين لأنفسهم أساساً حسناً للمستقبل» . فالرسول كان يؤمن أنهم لا يستطيعون أن يدخلوا ملكوت السموات بغير هذه الطريقة ، فهل معنى هذا أنه كان يخدع الذين نظموا بيوتهم بعناية محذراً ومعلماً كيف يجب على الزوجات أن تتصرفن تجاه أزواجهن والأزواج تجاه الزوجات والأبناء تجاه الوالدين والآباء تجاه الأبناء والخدام تجاه سادتهم والسادة تجاه خدامهم لأنه كيف يمكن أن يتم هذ ا كله بدون بيت وبدون ممتلكات الأسرة؟

٣٤ـ كل من يتخلى عن هذا العالم يتخلى بدون شك عن كل شئ فيه ليكون تلميذاً للمسيح ، لأنه حين ذكر مثل النفقات اللازمة لبناء البرج، واستعداد الملك لمحاربة ملك آخر أضاف: «كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لى تلميذاً» (لوقا ١٤:٣٣) . إذا كان لشخص ما أموال فإنه يتخلى عنها، إما بأن لا يحبها ويوزعها على المحتاجين وبذلك يتخلص من حمل عديم الجدوى، أو بأن يحب المسيح أكثر ويحول رجاءه منها إلى المسيح ، ويستخدمها ليعطى بسخاء ، ويشاركها ليدخر أساساً حسناً فى السماء، وأن يكون مستعداً ليتخلى عنها، كما يتخلى عن والديه وأبنائه وزوجته إذا واجهه خيار عدم تملكها، وإلا فإنه يتخلى عن المسيح، لأنه إن تخلى عن العالم على أساس أية شروط أخرى فإنه حين يقترب من سر الإيمان (المعمودية) فهو يفعل ما فعله سيبريان المبارك فى حالة المرتد قائلاً: « إنهم تركوا العالم بالكلام فقط وليس بالأعمال » (رسالة ١١، ١). فالشخص الذى يخاف أن يخوض تجربة فقْد ثروته أكثر من إنكار المسيح تنطبق عليه هذه الكلمات: « هذا الإنسان ابتدأ يبنى ولم يقدر أن يكمل » (لوقا ١٤:٣٠) . هو أيضاً ذلك الشخص

الذى يبعث رسوله مطالباً بالسلام بينما يكون عدوه لا يزال بعيداً جداً، بمعنى أنه عند اقتراب خطر التجربة فإنه يوافق - قبل ان تؤذيه - على التخلى عن المسيح وإنكاره بدلاً من أن يُحرم مما هو أغلى عنده ، ويوجد كثيرون يظنون أنه على الدين المسيحى أن يساعدهم فى زيادة ثرواتهم ومضاعفة مباهجهم الأرضية.

٣٥ - بيد أن هذه النقطة لا تضم المسيحيين الأغنياء الذين على الرغم من امتلاكهم للثروات إلا أنها لا تتملكهم ، لأنهم تخلوا عن العالم بالحق فى قلوبهم والذين لا يلقون رجاءهم على مثل هذه الممتلكات ، إنهم يستخدمون نظاماً قويماً فى تدريب زوجاتهم وأولادهم وبيوتهم بالكامل للتمسك بالدين المسيحى ، تفيض بيوتهم بكرم الضيافة « يقبل باراً باسم بار فاجر بار يأخذ» (متى ١٠:٤١) . إنهم يقدمون خبزاً للجوعى. يكسون العرايا ويفتدون الأسرى « مدخرين لأنفسهم أساساً حسناً للمستقبل لكى يمسكوا بالحياة الأبدية » (١تيموثاوس ١٩:٦).

وإذا كان عليهم أن يخسروا أموالهم بسبب الإيمان بالمسيح فإنهم يكرهون ثروتهم، وإذا هددهم العالم بالحرمان من أسرهم أو الانفصال عنهم، فإنهم يكرهون والديهم وإخوتهم وأولادهم وزوجاتهم ، وأخيراً إذا طرحت مسألة أى اتفاق مع عدوهم فيما يتعلق بحياة جسدهم نفسها فإنهم يكرهون حتى حياتهم ، لماذا؟ لأنه فى كل هذه النقاط تلقوا وصية تفيد بأنهم لا يمكن أن يكونوا تلاميذاً للمسيح إلا بهذه الطريقة.

٣٦ - إلا أن هذه الوصية التى تفيد بأنه يجب عليهم أن يكرهوا حتى حياتهم من أجل المسيح لا تعنى أنهم يمتلكونها كشئ يمكن أن يباع أو يضعون أيديهم على أنفسهم ويدمرونها ، بل تعنى أنهم مستعدون لأن يفقدونها عن طريق الموت من أجل اسم المسيح بدلاً من أن يحيوا حياة ميتة بإنكار المسيح . وبنفس الطريقة فإن الثروة التى لم يكونوا مستعدين لبيعها عند دعوة المسيح يجب أن يكونوا مستعدين لفقدها من أجل المسيح لئلا يخسروا أنفسهم مع ثرواتهم لو خسروا المسيح ، ولدينا أمثلة رائعة عن هذا فى الأثرياء من كلا الجنسين الذين ارتفعوا عالياً بواسطة مجد الاستشهاد .

وهكذا فإن الكثيرين الذين رفضوا فيما سبق أن يعترفوا أن الكمال يكتسب عن طريق بيع ممتلكاتهم، أصبحوا كاملين على حين غرة بمحاكاة آلام المسيح ، وأولئك الذين تمسكوا

بثرواتهم من خلال ضعف الجسد حين قابلتهم الخطية فجأة قاوموا الإيمان حتى الدم، يوجد آخرون لم يفوزوا بتاج الاستشهاد ولم يأخذوا نصيحة الكمال السامية النبيلة إلى قلوبهم عن طريق بيع ممتلكاتهم، إلا أنهم لا يرتكبون الأعمال التى تستحق الدينونة، إنهم أطعموا المسيح حين جاع، أعطوه شراباً حين عطش، كسوه حين تعرى، قبلوه حين كان غريباً، ومع أنهم لن يجلسوا مع المسيح على العرش حين يأتى ليدين إلا أنهم سيقفون على يمينه لينالوا حكم الرحمة «طوبى للرحماء لأنهم يرحمون» (متى ٥:٧) و«لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة و الرحمة تفتخر على الحكم».

٣٧ ـ من الآن فصاعداً فليتوقف أولئك المعترضون عن التكلم ضد الكتاب المقدس، فليشجعوا الناس فى عظاتهم على الأشياء السامية ، دون أن يدينوا الأشياء الأقل شأناً حيث إنهم لا يستطيعون أن يتحدثوا عن البتولية المقدسة فى عظاتهم دون أن يدينوا رباط الزواج ، مع أن الرسول يعلمنا أن «كل واحد له موهبته الخاصة من الله ، الواحد هكذا والآخر هكذا» (١كورنثوس ٧:٧) . فلتدعوهم لكى يسيروا فى طريق الكمال عن طريق بيع كل أملاكهم وإنفاقها على أعمال الرحمة ، ولكن إن كانوا حقاً فقراء كالمسيح وإن كانوا يدخرون للمسيح وليس لأنفسهم فلماذا يصدرون أحكاماً بالعقوبات على الناس الضعفاء الذين هم أعضاء المسيح قبل أن يرتقوا لكراسى الحكم؟ إذا كانوا من ذلك النوع من الناس الذين قال عنهم الرب: « تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر » (متى ١٩:٢٨) . والذين قال عنهم الرسول: « ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة » فلتجعلهم بالحرى مستعدين أن يقبلوا الأغنياء في القصور الأبدية ليس الذين لُعنوا بل المتصدقين الذين صنعوا أصدقاء بمال الظلم (لوقا ١٦:٩) . وأنا أعتقد أن بعضاً من هؤلاء الذين يثرثرون بهذه الأفكار بلا قيد أو مبرر يعتمدون على بعض من الأغنياء والمسيحيين الورعين فى تسديد احتياجاتهم، نستطيع أن نقول إن الكنيسة لها جنودها وموظفيها المحليين الذين قال عنهم الرسول « من تجند قط بنفقة نفسه » ولها أيضاً كرمة ومزارعيها، رعية وراعيها الذين قال عنهم الرسول: « من يغرس كرماً ومن ثمره لا يأكل أو من يرعى رعية ومن لبن الرعية لا يأكل» (١كورنثوس ٩:٧) . ومع هذا إن عرضنا مثل هذه الحجج التى يعرضونها نكون بذلك لا نغرس كرماً بل نقتلعه ، لا نجمع الرعية للمرعى بل نسوق الخراف من الرعية للهلاك .

٣٨ ـ كما أن أولئك الذين يطعمهم الأغنياء ويكسونهم ـ حيث إنهم لا قبلون أى شئ لاحتياجاتهم إلا من هؤلاء الذين يبيعون أملاكهم ، الذين يعولون احتياجات الناس بأيديهم (أع ٢٠ : ٢٤) ، هؤلاء عليهم ألا يميزوا بين من يساعدونهم ولا ينبغى عليهم أن يدينوا الذين يعولونهم بل بالأحرى ليحيوا حسب التعليم الصحيح فيقولون لمن يساعدونهم : « إن كنا نحن قد زرعنا لكم الروحيات أفعظيم إن حصدنا منكم الجسديات» (١كورنثوس ٩:١١). فخدام الله الذين يحيون عن طريق بيع ثمر أيديهم الشريفة يمكن أن يحتقروا الذين لا ملكية لهم ولا يربحون شيئاً ولا يقدرون على العمل بأيديهم ، الذين يعانون من ضعف الجسد ومع ذلك يدينون الذين يعتمدون عليهم فى معيشتهم اليومية.

التعليم المسيحى

(«الاستخدام» و«التمتع»)

٣.٢.١ ـ توجد بعض أشياء للتمتع ، وأخرى للاستخدام ، وبعض الأشياء الأخرى للتمتع والاستخدام معاً ، وتلك التى للتمتع تجعلنا سعداء أما التى تخصص للاستخدام فهى تساعدنا فى محاولتنا لنصبح سعداء ، وبمعنى آخر تحافظ على حياتنا، إلا أننا إن حاولنا أن نتمتع بالأشياء التى من المفروض أن نستخدمها نجد أن تقدمنا يعاق ـ وقد يتعثر من آن لآخر ـ ونتيجة لهذا ، ولتقيدنا بالتعلق بالأشياء الأقل أهمية نتأخر إما في الحصول على تلك الأشياء التى سنتمتع بها أو قد نبتعد عنها كلية.

٤ ـ أن نتمتع بأى شئ يعنى أن نتمسك به من أجل ذاته، أن نستخدم شيئاً ما يعنى أن نوظف ما تلقيناه للاستخدام لنحصل على ما نحتاج شريطة أن يكون من الملائم لنا أن نحتاجه. وجدير أن نعرّف الاستخدام السيئ بإساءة الاستعمال لأننا مسافرون فى أرض غريبة ولا نستطيع أن نعيش فى قناعة إلا فى بلدنا الأصلى، وإذا قررنا أن نعود للوطن لأننا غير سعداء بالغربة ونرغب فى وضع نهاية لبؤسنا ، فمن الضرورى أن نستخدم وسيلة من وسائل المواصلات ـ سواء بالبر أم بالبحر ـ لتمكننا من الوصول إلى الأرض التى سنتمتع بها، ولكن إن أسعدنا جمال الرحلة وحركة العربات وانصرفنا عن التمتع بالأشياء الحقيقية الأبدية ، وبدلاً من أن يكون هدفنا التمتع بالأبدى فإننا نحول هذا التمتع إلى استخدام فقط وهنا نرتبك بسعادة زائفة فنصبح غير مستعدين لإنهاء رحلتنا بسرعة ، ونبتعد عن الأرض

التى ستجعلنا سعداء حقاً.

وبنفس الطريقة فنحن مسافرون بعيداً عن الله على طريق هذه الحياة الفانية ، فإذا أردنا أن نعود لبلدنا الأصلى حيث تكون سعادتنا فيجب علينا أن نستخدم هذا العالم لا أن نتمتع به كى نرى «أمور الله غير المنظورة مدركة بالمصنوعات» (رومية ١: ٢٠)، بمعنى أنه من خلال الجسدى الوقتى نستطيع أن نفهم الأبدى الروحى.

عظة ربنا على الجبل

(اعطوا لكل واحد لكن ليس كل شئ)

٦٧.٢.١ - إن امتناعك عن ايذاء الآخرين يبدو أمراً بسيطاً أمام مسئوليتك التى تعرض عليك منح المساعدة للمحتاج بكل قدرتك ، فربنا ويقول: «من سألك فاعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده» (متى ٥: ٤٢). وهو يقول «من سألك فاعطه». وليس كل شئ لمن يسأل، ولذلك يجب أن تعطى ما تستطيع بأمانة وتعطى بحق . ماذا لو سأل أحد مالاً كى يستخدمه فى ظلم الأبرياء؟ ماذا لو سألك أن ترتكب أعمالاً غير طاهرة؟ ولكننا لن نقدم هنا نماذج عديدة لأنه لا يمكن حصرها بالفعل ، ولكن بالتأكيد يجب أن تعطى ما لا يؤذيك أو يؤذى الطرف الآخر بقدر ما يستطيع الإنسان أن يعرف أو يحسب .

فإذا مُنع أحدهم بحق من الحصول على ما يسأل فإن العدل يطالبك بأن توضح له لماذا رُفض سؤاله كيلا تصرفه بعيداً خالى الوفاض . وبهذه الطريقة أنت تعطى لكل من يسألك مع أنك لن تعطى دائماً ما يسأل بل قد تعطى شيئاً أفضل حين لا تعطى من يسألك طلبات غير عادلة .

(اقرض بلا ربا)

٦٨- بالنسبة لقول الرب: « من أراد أن يقترض منك فلا ترده»، هذا يشير إلى الموقف العقلى لأن الله يحب المعطى المسرور (٢كورنثوس ٩: ٧) . كل من يقبل أى شئ يقترض حتى وإن لم يكن عليه أن يرده لأنه بما أن الله هو الذى سيدفع، فكل من يصنع معروفاً يقرض بربا، وإذا كانت كلمة «مقترض» تعنى فقط كل من يقبل أى شئ بغرض رده يجب علينا إذاً أن نفهم أن الرب ضمن طريقتين لفعل المعروف وهما : - أن نعطي مجاناً كفعل من أفعال الإحسان ، أو أن نقرض للذى سيرد لنا ما أقرضناه . وعادة ما يتباطأ الذين

يفكرون فى المكافأة السماوية ويميلون للعطاء مجاناً فى تقديم ما يعطونه من قروض كما لو كانوا لن يأخذوا أى شئ فى المقابل من الله ، لأن من يقترض منهم يرد لهم الشئ الذى أعطوه إياه، ولذلك فإن السلطة الإلهية تنصحنا قائلة: «من أراد أن يقترض منك فلا ترده» بمعنى ألا تصرف إرادتك الصالحة عمن يسألها ، لأن مالك سيصبح عديم الجدوى ولأن الله لن يدفع لك فى المقابل حيث أن المقترض قد فعل هذا ، ولكن حين تقدم معروفاً من منظور التصور الإلهى فعملك هذا لايمكن أن يكون غير مثمر أمام من يعطى هذه الوصايا .

فى إنجيل القديس يوحنا

(حق التملك مبنى على أساس القوانين الإنسانية)

مقالة ٦، ٢٥ ـ حيث أنهم فشلوا فى كل مكان آخر فما الذى يزعمه (الدوناتيون) ضدنا الآن ، لا أعلم ماذا أقول ؟ لقد استولوا على منازلنا وممتلكاتنا، إنهم يقدمون وصايا « انظر كيف قدم جايوس سيوس ضيعة كمنحة للكنيسة التى يرأسها فاوستنوس » ، ما هى الكنيسة التى كان فاوستنوس أسقفاً لها ؟ إنه قال : ـ (للكنيسة التى يرأسها فاوستنوس) لكن فاوستنوس لم يترأس كنيسة بل طائفة ومع هذا فإن الحمامة هى الكنيسة .لِمَ تعترض ؟ نحن لم نستول على المنازل ، فلتحصل الحمامة عليها، دعونا نتساءل من هى الحمامة ودعونا نجعلها تحصل عليها ، تعلمون يا إخوتى أن منازلهم ليست منازل أوغسطين ، وإذا كنتم لا تعلمون هذا وتعتقدون إنى أتمتع بامتلاكها فالله وحده يعلم كيف أفكر فيها وما الذى أعانيه بسببها ، إنه يعلم تأوهى حيث أنه تلطف ومنحنى شيئاً ما من الحمامة .

انظروا ، هذه هى الضيعات فبأى حق تؤكدون دعواكم عليها ؟ أبالحق السماوى أم الحق الإنسانى ؟ فليردوا : لدينا الحق السماوى فى الكتاب المقدس والحق الإنسانى فى قوانين الملوك، فبأى حق يمتلك الإنسان ما يمتلكه ؟ أليس بالحق الإنسانى ؟ لأنه طبقاً للحق السماوى: « للرب الأرض وملؤها » (مزمور٢٤: ١) الله خلق الأغنياء والفقراء من طينة واحدة ، نفس الأرض تعول الفقراء والأغنياء على السواء ، يستطيع المرء أن يقول : « هذه الضيعة ملكى ، هذا البيت ملكى ، هذا الخادم ملكى » وذلك استناداً للحق الإنسانى وبحق الأباطرة ، لِمَ هذا ؟ لأن الله وزع هذه الحقوق الإنسانية للبشرية من خلال أباطرة وملوك هذا العالم .

أتريدنا أن نقرأ قوانين الأباطرة وأن ندبر الضياع وفقاً لهذه القوانين ؟ إذا أسست ملكيتك على الحق الإنساني فدعنا نتلو قوانين الأباطرة ودعنا نرى فيما إذا كانوا سيسمحون للمهرطقين بأن يمتلكوا أى شئ ، ولكنك تقول : من هو الإمبراطور بالنسبة لى ؟ إنك تمتلك الأرض استناداً إلى الحق الذى أقره الإمبراطور لك ، انزع الحقوق التى خلقها الأباطرة ولن يجرؤ آخر أن يقول: «هذه الضيعة ملكى، هذا الخادم ملكى، هذا المنزل ملكى» إذا كان الناس يمتلكون هذه الممتلكات لأنهم حصلوا على حقوق من الأباطرة ، هل تريدنا أن نقرأ القوانين حتى تكون سعيداً بامتلاكك بستان واحد ولا تعزوه لأى شئ إلا لرحمة الحمامة التى سمحت لك بالاستمرار فى الامتلاك ؟ يوجد بالفعل قوانين معروفة جيداً لدي كل من يوجه إليهم الإمبراطور هذه القوانين. ولأنهم خارج جماعة الكنيسة الكاثوليكية فهم يغتصبون لأنفسهم اسم المسيحيين وهم لا يرغبون فى السلام ليعبدوا خالق السلام ، وهم لا يجرؤون على امتلاك أى شئ باسم الكنيسة.

٢٦ـ ولكنك تجيب : « ما علاقتنا نحن بالإمبراطور ؟ » لقد قلنا بالفعل إننا نتعامل مع الحق الإنسانى ، الآن يريدنا الرسول أن نطيع الملوك وأن نكرمهم قائلاً « اكرموا الملوك » (١بطرس ٢ : ١٧) لا تقل إذاً : « ما علاقتى بالملوك ؟» ، ففى هذه الحالة سوف يكون هناك سؤال وهو : وما علاقتك أنت بالامتلاك ؟ إننا نتمتع بالممتلكات نتيجة للحقوق المستمدة من الملوك ، أنت قد قلت « ما علاقتى أنا بالملوك ؟ » فلا تقل إذاً إن هذه الممتلكات هى لك حيث أنك ربطت بين الملوك وبين هذه الحقوق نفسها التى على أساسها يتمتع الناس بممتلكاتهم . هل تزعم أنك تؤسس ممتلكاتك على الحق السماوى ؟ حسناً لنستشر الإنجيل ولنر إلى أى مدى تمتد كنيسة المسيح الكاثوليكية التى عليها هلت الحمامة التى قالت «هذا هو الذى يعمد» وبينما يقول الكتاب المقدس «حمامتى واحدة وحيدة أمها» (نشيد الأنشاد ٦ : ٩) لِمَ جُرِحَت الحمامة ؟ بل لِمَ جرحت أحشائك نفسها ؟ لأنه بينما تتمزق أنت إرباً تستمر الحمامة كاملة ومكتملة . ومن ثم يا إخوتى إن كانت جميع حججهم قد دُحضت ولم يعد لديهم ما يقولونه سأخبرهم أنا بما يفعلون : فليأتوا إلى الكنيسة الكاثوليكية ، فيكون معنا ليس الأرض فقط بل أيضاً يكون من خلق السماء والأرض .

شروح فى المزامير
(لمن يدخر الأغنياء خيراتهم)

شرح المزمور ٣٩ : ٧ ـ « يذخر ذخائر ولا يدرى من يضمها » يا لها من حماقة وتفاهة ! « طوبى للرجل الذى جعل الرب متكله ولم يلتفت إلى الغطاريس والمنحرفين إلى الكذب » أتعتقد أن الحديث الغليظ هذا ما هو إلا حكايات عجائز؟، (إنى أتحدث إلى إنسان لديه توق شديد للكنوز) . أنت رجل حريص واع ، كل يوم تستنبط طرقاً جديدة لجمع الأموال من الأعمال ومن الزراعة ، وربما من الدفاع والممارسة القانونية ، وربما من الخدمة فى الجندية، بالإضافة للربا ، أنت داهية تستخدم كل ما تعرفه فى أن تضيف العملة على العملة ، وفى أن تغلف كل ما ترجوه بسرية شديدة ، تسرق الآخرين ولا تتمنى أن يسرقوك ، فأنت تخاف من أن تعانى من الظلم الذى ترتكبه مع أن معاناتك لا تكفر عن خطيتك ، لكن بالطبع لا توجد معاناة بالنسبة لك لأنك رجل حريص بارع فى الاحتفاظ بالمال مثل براعتك فى الحصول عليه ، وتعرف كيف تستثمر ثروتك ، ولمن تودعها ، وكيف لا تفقد أياً من وسائل الجمع ، حسناً سأسألك فى مكرك وحرصك : لنسلم جدلاً أن جمعك وادخارك صامد ضد الفقدان ، فاخبرنى لمن تدخر كنزك . توجد شرور أخرى تتمشى مع طمعك وهذه الشرور سأتركها ولن أتهمك بها ، فالنقطة التى أوضحها والسؤال الوحيد الذى أسأله هو الذى يتأتى من قراءة المزمور ، فلنسلم جدلاً أنك تجمع وتدخر الكنوز، أنا لا أقول : « احذر لئلا تُجمع أنت نفسك عندما تجمعها ، احذر لئلا يعمى الطمع سمعك وفهمك » ، سأوضح هذا أكثر ، أنا لا أقول : « احذر لئلا فى اندفاعك لنهب الصغير أن ينهبك الكبير الذى لا تعرفه حيث أنك تعيش فى بحر يلتهم فيه السمك الكبير السمك الصغير» ، سأتجاهل هذا ، سأتجاهل الصعاب والأخطاء التى تحيق بالبحث عن المال ومحن أولئك الذين يجمعونه ، والمخاطر التى يواجهونها فى كل مرّة والمخاوف المميتة التى تنتابهم باستمرار ، لنسلم جدلاً أنك تجمع الثروة دون أى معوقات، وتدخرها دون أن يتحرش بك أحد ، لكن افحص ذلك المكر وتلك الحكمة التى تشجعك على السخرية من كلماتى باعتبارها حماقة وعندئذ أخبرنى ، إنك تدخر كنزاً ، فلمن تعتقد أنك جامعه ؟ أرى ما انتويت الإجابة به (أتعتقد أن هذا فات على صاحب المزامير ؟) ستقول : «لأولادى أنا، إنما أدخره من أجلهم » . أنت تتذرع

بالمحبة الأبوية لكى تحجب ظلمك (أنا إنما أدخره لأولادى) ، لنسلم جدلاً أنك تفعل هذا فهل هذه الحجة لم تكن معروفة عندئذ لايديثون (Idithun) ؟ إنه عرفها على وجه التأكيد لكنه اعتبر هذه الأشياء إنما تخص العصور القديمة فرفضها بازدراء لأنه كان يتطلع للجديد.

أعود لأفحص هذا الموضوع الخاص بك وأولادك ، فأنت يا من تدخر وهم الذين يُدخر لهم مقدر لكم أن تموتوا أو بالأحرى تموتون الآن بالفعل (حيث أن « مقدر لكم أن تموتوا » تعنى ضمناً بعض الموت الآن) . فمثلاً هذا اليوم بعينه فمن أول كلمات العظة حتى هذه اللحظة قد تقدم بنا العمر مع أنك قد لا تدرك هذا ، وهكذا الحال بالنسبة لشعر رأسك أنه ينمو ولا تلاحظه ولكنه ينمو على أية حال ، الآن فى الكنيسة بينما أنت واقف هناك وبينما تقول أو تفعل أى شئ لا ينمو شعرك فجأة لتذهب إلى الحلاق ، وهذا ما يحدث في حياتنا يذهب الوقت سريعاً سواء انتبهنا لذلك ، أو كنا منشغلين بشئ آخر ، فقد نشغل بشئ خاطئ ، سوف تموت ، وكذلك ولدك الذى تدخر له سوف يموت ومن ثم سأسألك أولاً : هل أنت واثق أن هذا الابن الذى تدخر له سوف يرثك ؟ أنت تدخر لأبناء قد لا يولدون أو يرثون أبداً ،نعم تدخر كنزك لكن ليس فى المكان الصحيح.

(ادخر خيراتك فى المكان الصحيح : السماء)

أنت خادم لشخص لديه ممتلكات عظيمة ، ولكن أنت أيضاً لديك خيرات خاصة بك ولا يمكن أن وصية الله تعنى خسارة خدامه لخيراتهم ، فكل ما لديك وكل ما تحب أعطاك هو إياه ، ولذلك فهو لن يسمح لك بأن تخسر عطيته حيث إنه حقاً مستعد لأن يعطيك ، وبالإضافة لهذا فهو لا يسمح أن تخسر حتى عطيته الوقتية ، إنها تتدفق حيث الزيادة والتضخم ومع ذلك أنا لا أسمح أن تخسرها يقول الرب « ماذا أفعل إذاً ؟ » أنقلها ، لأن المكان الذى وضعته فيها غير آمن ، وإذا جعلت طمعك مستشارك فإنك سوف تجد حتى مستشارك مقتنع بكلامك ، أنت تريد أن تحفظ ما لديك بالفعل دون أى خسارة، وسأريك أين يمكن أن تصونه ، لا تدخر كنوزاً على الأرض لأنك لا تدرى لمن تجمعها أو كيف ينفقها من يمتلكها بعد ذلك ، فأنت الآن تمتلكها وتضع يدك عليها لكن ربما يأتى اليوم الذى تجد فيه شخصاً آخر يمتلك أموالك ويضع يده عليها وعليك ، بل أنك قد تفقد هذه الأموال قبل أن يأتى هذا الآخر .

من ثم أنصحك لتهدأ وتستريح : « اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء » فالاكتناز علي الأرض أمر محفوف بالمخاطر فأنت إن أردت أن تصون ثروتك قد تبحث عن مخزن لأنك قد لا تثق فى بيتك ذاته وذلك بسبب الخدام، وقد تأخذ خيراتك إلى مركز المصرفى حيث تكون الحوادث أقل احتمالاً هناك لأن اللصوص نادراً ما يقتحمون المكان وبذلك تضمن حراسة وأمان ، لماذا يجب عليك أن تتخذ هذا الإجراء إلا إذا لم يكن لديك مخزناً أفضل ؟: فماذا إن عرضت عليك شيئاً أفضل ؟ هذه هى نصيحتى : « لا تعهد خيراتك إلى المصرفى لأنه لا يمكن الوثوق به ، يوجد آخر تستطيع أن تثق به فاعهد بها إليه ، لديه مخازن عظيمة حيث لا يمكن أن تفقد الثروة أبداً، إنه غنى أكثر من كل الأغنياء » . وقد ترد على هذا قائلاً : « لا أجرؤ أبداً أن أطلب من مثل هذا الشخص أن يحرس خيراتى » لكن ماذا لو كان هو ذاته يدعوك ؟ أعرف حقيقة هذا الشخص ، ذلك الشخص ذو الممتلكات العظيمة هو ربك وهو يتحدث قائلاً : « خادمى ، ما كنت لأسمح بأن تخسر خيراتك تعلّم منى أين تدخرها ، لِمَ تحفظها حيث يمكن أن تخسرها ، وحتى لو لم تخسرها فأنت لن تستطيع أن تبقى هنا إلى الأبد . يوجد مكان آخر سآخذك إليه فلتجعل ثروتك تسبقك ، لا تخش أية خسارة لأنى أنا من أعطيتها لك وسأحرسها من أجلك » .

(ادخر ممتلكاتك فى مكان آمن وذلك بإعطائها للفقراء)

هذه هى كلمات ربك ، اختبر إيمانك هل ستثق به ؟ قد تقول : « يتساوى عندى ما لا أراه مع ما خسرت ، يجب أن أرى ثروتى هنا » (الذي لا أستطيع أن أراه امام عينى ، يتساوى عندى مع الخسارة لأننى يجب أن أرى ثروتى) لكن أقول إذا كنت تقيس الأمور هكذا ، فأنا أقول لك أنت لا ترى أموالك هنا ولا تمتلكها هناك ... نعم لديك كنوز ، مهما كان حجمها فخبئها تحت الأرض ، وحين تغادر المنزل أنت لا تأخذها معك ، فأنت أتيت إلى هنا لتستمع إلى عظة ، لتحصد بعض الثروات الروحية إلا أن أفكارك معلقة على الشئ الوقتى ، حسناً تستطيع أن تحضرها معك ؟ فى هذه اللحظة لا تستطيع أن تراها ، تعتقد أنك تحتفظ بها فى المنزل حيث تعرف أين وضعتها، ولكن هل أنت متأكد أنك لم تفقدها ؟ فكم من أناس قبل الآن ذهبوا إلى المنزل ولم يجدوا ما ادخروه ، فهل نبضت القلوب الجشعة بسرعة أكبر عندئذ ؟ وحين تحدثت عن المخازن المجردة أعتقد أن كل منهم يهمس :

« لا سمحت السماء أيها الأسقف ، تمنى لنا حظاً أفضل ، صل من أجلنا، السماء لن تسمح بحدوث مثل هذه الكارثة، أثق فى الله وأثق أنى سأجد كنزى آمناً ، أأنت تثق فى الله لكنك لا تصدقه ؟ « ثق فى المسيح أن ما تركته سيكون آمناً وسليماً وأنه لن يقترب منه أحد ولن يأخذه أحد » . فإن وثقت فى المسيح فلن تخاف من أى خسارة ولن تخاف من الاحتياج وإن وثقت به أكثر فأنت سوف تخزن أموالك حيث يشير عليك هو . هل تثق فى خادمك وتشك فى ربك ، تثق فى منزلك وتشك فى السماء ؟ ولكنك قد تسألنى : « كيف أستطيع أن أدخر كنزاً فى السماء ؟» لقد سمعت نصيحتى ، لكنى لا أهتم بأن أعرفك طريقة وصول كنزك للسماء فقط ضعها فى أيدى الفقراء ، أعطها لمن يحتاجونها ، ماذا يعنى لك وصول مالك إلى المحتاجين ، هل ورد بخاطرك أنك تسلم ما أعطاه لك الله من قبل ؟ هل نسيت كلماتى : « كل ما تفعلون مع إخوتى الأصاغر تفعلونه بى » ؟ افترض أن أحد أصدقائك لديه صهريج أو غيره من الأوعية المصنوعة بمهارة لتخزين الخمر أو الزيت ، وافترض أنك تبحث عن شئ ما لتخبئ أو تدخر فيه محصولك ، إنه قد يقول لك : « سأدخره لك » لأن لديه ممرات ودهاليز سرية ليصل لهذه الأوعية ومن خلالها يسافر السائل المنسكب المرئى دون أن يُرى ، وقد يقول لك : «اسكب هنا ما لديك »وأنت حين تجد أن هذا ليس المكان الذى فكرت فى وضعها فيه تخاف من أن تفعل ذلك ، لكن صديقك الذى يعرف الأعمال المخبأه تحت أرضه يأمرك : « اسكبها وركز عقلك على الباقى، فهى تمر من هنا إلى هناك ولا تستطيع أن ترى كيف ، ولكن ثق بى لأنى أنا من بناها » .

الذى خلق كل الأشياء بنى قصوراً لنا جميعاً ، وخشية أن نفقد خيراتنا على الأرض أراد أن تسبقنا هذه الأشياء إلى هناك ، فإذا كنت تدخرها على الأرض فأخبرنى لمن تجمعها ، وأنت قد تجيب قائلاً " لدى أبناء ، " حسناً فلتجعل أكبر الحصص للمسيح .

عظات

(الصوم الكبير هو أنسب وقت لفعل الأعمال الخيرية)

٢٠٦ ، ١ ـ مع اكتمال دائرة العام يأتى موسم الصوم الكبير الذى أجد نفسى مضطراً فيه لأنصحكم لأنكم تدينون لله بأعمال تتناسب مع روح هذا الموسم وهى أعمال ليست مفيده لله بقدر ما هى مفيدة بالنسبة لكم أنتم ، ومع أن فصول العام الأخرى يجب أن

تشهد للمسيحى بسبب صلواته وصومه وتقديمه للصدقات ، إلا أن هذا الموسم بالذات يجب أن يوقظ حتى أولئك الذين يتكاسلون فى الأوقات الأخرى . يجب عليهم الآن أن ينفذوا هذه الأعمال باجتهاد أكبر ، فالحياة فى هذا العالم هى وقت لإذلالنا كما ترمز هذه الأيام حين تتجدد آلام ربنا يسوع المسيح الذى قاسى الموت من أجلنا كل عام مع مجئ هذا الموسم المقدس ، لأن ما حدث مرة واحدة فقط كى ما تتجدد به حياتنا ، نحتفل به بمهابة حتى تظل الذكرى متجددة دائماً ، فإذا كان ينبغى علينا أن نكون متضعين فى القلب مملوئين بمشاعر التقوى الصادقة طوال فترة سكنانا على الأرض ، عندما نعيش وسط التجارب ، فكم بالأحرى تكون ضرورة اتضاعنا فى هذه الأيام حين نقضى وقت اتضاعنا ليس بالحياة فقط، بل بالتكريس الخاص : علمنا اتضاع المسيح أن نكون متضعين لأنه تعطف على الأشرار بأن قبل الموت ، يرفعنا سمو المسيح عالياً لأنه عن طريق قيامته أضاء الطريق لتلاميذه الأتقياء لأن « إن كنا قد متنا معه فسنحيا أيضاً معه ، إن كنا نصبر فسنملك أيضاً معه » (٢ تيموثاوس ٢ : ١١ - ١٣) . ونحتفل الآن بإحدى هذه الحالات بالطقوس الواجبة نظراً لاقتراب مجئ موعد آلامه، وهناك احتفالات أخرى نحتفل بها بعد عيد القيامة حين تتم قيامته ثانية مثلما حدث قبل الآن ، فبعد أن عانى المسيح من الذل أتى وقت التمجيد، ومع أن الوقت لم يحن بعد لنختبر هذا السمو إلا أننا نسعد حين نتخيله فى أفكارنا ، دعونا إذاً الآن نتضرع أكثر فى صلواتنا، وعندئذ نبتهج أكثر فى تسبيحنا .

(عدم مشاركة الخيرات الزائدة مع الآخرين شبيه بالسرقة)

٢ - دعونا بصلواتنا نضيف أجنحة التقوى لصدقاتنا ، ونصلى كى ما تطير بسرعة أكبر إلى الله، وعلاوة على ذلك فإن روح المسيحى تتفهم أهمية أن يتجنب سرقة خيرات الآخرين حين يدرك أن عدم مشاركة ما يزيد عن حاجته مع المحتاجين شبيه بالسرقة، فالرب يقول : « أعطوا تُعطوا اغفروا يُغفر لكم » (لوقا٦: ٣٧ و ٣٨) . دعونا ننفذ هذين النوعين من تقديم الصدقات بنعمة وبحماس ، وهما العطاء والغفران لأننا نحن بدورنا نصلى لله أن يمنحنا أشياء صالحة وألا يجازى أعمالنا الشريرة ، إنه يقول « اعطوا تعطوا » فأى شئ أعدل وأحق من أن الذى يرفض أن يعطى فهو لا يخدع إلا نفسه ومن ثم فلن يأخذ ؟ فإذا كان أحد المزارعين لا يحق له أن يحصد محصولاً حين يعلم أنه لم يبذر أى بذور ، فكم يكون من

غير المعقول لذلك الإنسان الذى رفض أن يستمع لتوسل الفقير أن يتوقع أى رد فعل كريم من جانب الله ؟ لأنه فى شخص الفقير تمنى أن يُطعم ذلك الذى لا يجوع أبداً. لذلك دعونا لا نزدر إلهنا المحتاج فى شخص فقرائه كى ما يسد إعوازنا من غناه ، نحن عندنا المحتاجين إلا أننا أنفسنا لدينا احتياج ، لنعط كى نأخذ ، وفى الحقيقة ماذا نعطى ؟ وماذا نرغب فى أن نأخذ فى مقابل هذا المقدار الضئيل والمرئى والوقتى والأرضى ؟ « ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان» (١ كورنثوس٢:٩) . من الوقاحه أن نتمنى نوال هذه الكنوز فى مقابل التفاهات الحقيرة، ومن الوقاحة أن نرفض أن نعطى لجارنا المحتاج هذه الأشياء التى ما كنا نمتلكها لولا سخاء من يحثنا على العطاء ، فبأى ثقة نتمنى أن نراه يعطى جارنا ويعطينا إذا احتقرنا وصاياه فى أقل تفاصيلها؟ « اغفروا يُغفر لكم » بمعنى أن تسامحوا كى تُسامحوا ، ليصالح الخادم أخاه الخادم لئلا يعاقبه الرب بحق . وفى هذا النوع من الصدقات لا يوجد فقير، فحتى هذا الذى لا يمتلك أى وسيلة من وسائل المعيشة يستطيع أن يفعل هذا كى يضمن لنفسه الحياة الأبدية . هذه الصدقات تعطي مجاناً وتزداد لو وهبناها ، وهى لا تستخدم (أى لا نفع بها) فى حالة عدم مشاركتنا بها للمحتاجين. لذلك ضعوا نهاية لتلك الخصومات التى استمرت حتى اليوم ، لتنهوها خشية أن تنهيكم ، ولا تحتفظوا بها كيلا تحتفظ بكم . اجعلوا الفادى يدمرها خشية أن تدمركم أنتم يا من تحتفظون بها .

(الصوم وممارسة الفضائل الأخرى)

٣ ـ لا تجعلوا صومكم يكون مثل ذلك النوع الذى يدينه النبى حين قال : « أمثل هذا يكون صوماً أختاره يقول الرب » (إشعياء ٥٨ : ٥) ، لأنه يدين صوم المتخاصمين ويبحث عن صوم الأتقياء . يدين من يظلمون ويبحث عمن يحررون . يدين من يثيرون الأحقاد ويبحث عمن يفكون الأسر، لأنه خلال هذه الأيام تكبحون رغباتكم عن الملاحقات غير الشرعية كيلا تفعلون ما هو غير شرعي . فكل من هو راض فى زواجه الآن لن يدمن الخمر أو الزنا، وهكذا فعن طريق الاتضاع وعمل الخير ، عن طريق الصوم وتقديم الصدقات والاعتدال والغفران ، عن طريق مشاركة النعم وعدم الانتقام من الشرور والابتعاد عن الشر وفعل الخير فإن صلواتنا تبحث عن السلام وتناله ، لأن الصلاة إذا دُعمت على أجنحة

الفضيلة تسرع إلى الأعالى وتُحمل بسهولة إلى السماء حيث سبقنا المسيح الذى هو سلامنا .

(تقديم الصدقات والاتضاع)

٢٣٩ ، ٤ إذا كان إيليا لم يحتاج أى شئ فهل يحتاج المسيح ؟

الكتاب المقدس يا إخوتى يوبخنا لهذا السبب بعينه : غالباً ما يجعل الله خدامه يحتاجون مع أنه قادر على إطعامهم كى ما يجد بعض الأرواح المكرسه له ، لا يفتخر أحدكم لأنه يعطى للفقراء ، فالمسيح كان فقيراً . لا يفتخر أحدكم لأنه يقبل عابر سبيل ، فالمسيح كان عابر سبيل فإن الذى يأخذ أغنى من الذى يعطى ، الذى يأخذ (الله) يمتلك كل شئ والذى يعطى ، يعطى مما أخذه من الله ، لا يفتخر أحدكم إذاً يا إخوتى حين يعطى للفقراء ولا يقل فى نفسه : « أنا أعطى وهو يأخذ، أنا أقبله وهو يحتاج للمأوى » فربما كان أعلى شأناً منك فى بعض النواحى التى تنقصك، فربما يكون إنساناً عادلاً رغم أنه ينقصه الخير لكن أنت ينقصك الحق، هو ينقصه مأوىً ولكن أنت ينقصك سماء، هو ينقصه مالاً لكن أنت ينقصك عدلاً .

(أقرض بلا ربا)

اقرض مالك، اعط ما تأخذ ، لا تخف من دينونة الله إذا أقرضت مالك ، أقرض مالك مهما كلفك الأمر ولكن الله يقول لك : « ماذا تريد ؟ » هل تريد أن تأخذ ربا ؟ ماذا يعنى «أخذ الربا » ؟ أن تعطى أقل لتأخذ أكثر ، عندئذ يقول الله لك : « انتبه ، أعطنى فأنا آخذ أقل وأعطى أكثر ، نعم ، أنا أعطى مائة ضعف وحياة أبدية » ، ذلك الذى تعطه مالك كيما يزداد، نعم اعط للإنسان ولا ترد من يسألك قرضاً ، لكن خذ فقط بقدر ما أعطيت ، لا تجعل من أعطيت يبكى لئلا تكون بذلك قد أفسدت عملاً من أعمال الشفقة ، وإذا استحق موعد سداد ما أخذه ولم يكن فى متناول يده انتظر لأنه ليس معه وسيدفع لك حين يكون معه ، لا تسبب له متاعب جديدة ذلك الذى خففت من أعبائه ذات مرة . انظر أنت قد أعطيت مالاً والآن تطلبه لكنه ليس معه ليعطى لك ، إلا أنه سوف يدفع لك حين يمتلكه ، لا تصرخ وتقول : « هل أنا أطلب قرضاً ؟ أنا أسأل فقط ما أعطيت وما أعطيت سوف آخذه » . أنت

على حق، لكنه ليس لديه المال ، أنت لست مقرض أموال ، ومع هذا تريد ممن أعطيته مالاً أن يلجأ إلى مقرض أموال ليدفع لك ، إذا كنت لا تطلب بسبب الربا كيلا يُنظر إليك كمقرض أموال فلِمَ تطلب منه أن يتحمل متاعب مقرض أموال آخر بسببك ؟ أنت تضغط عليه وتشدد من قيدك عليه مع أنك تطلب ما أعطيت فقط ، أنت بهذا تخلق له الصعاب ولا تكون قد صنعت معروفاً معه بل سببت له مزيداً من الحزن ، ربما قد تقول : « كان لديه المال الكافى ليدفع ، لديه بيت فليبعه ، لديه ممتلكات فليبعها » فهو حين سعى إلى طلب عونك إنما فعل ذلك لكيلا يبيع ، فلا تجعله بإلحاحك عليه يفعل ذلك الشئ الذى ساعدته ليجتنبه، فالله يأمر والله يريد أن نتخذ هذا الموقف تجاه كل الناس .

(الإقراض للفقير هو إقراض لله)

٥ ـ لكن هل أنت طماع؟ الله يقول لك: « كن طماعاً كما شئت لكن تفهم طرقى لأنى جعلت ابنى الغنى فقيراً من أجلك » . حقاً كان المسيح غنياً وأصبح فقيراً بسببنا، هل تسعى وراء الذهب؟ هو خلقه ، هل تبحث عن الفضة؟ هو خلقها، هل تبحث عن منزل؟ هو صنعه، هل تبحث عن قطيع ؟ هو خلقه، هل تسعى وراء ممتلكات ؟ هو صنعها، لماذا تسعى فقط وراء ما صنعه؟ ابحث عمن خلق كل هذه الأشياء، فكر فى كم أحبك: « كل شئ به كان وبغيره لم يكن شئ مما كان » (يوحنا ١:٣) . هو خلق كل الأشياء بما فيها هو نفسه، من خلق الإنسان قد تجسد هو نفسه، أصبح مثل الإنسان كيلا يفنى الإنسان ، فكر فى الغِنى، من هو أغنى أكثر ممن خلق كل الأشياء؟ ومع هذا فبالرغم من أنه كان غنياً إلا أنه تجسد في الجسد الفانى فى رحم عذراء ، ولد طفلاً ولف بالقماط ووضع في مزود ، وانتظر بصبر مراحل الحياة الطبيعية. من خلق كل الفصول تحمل الفصول بصبر، رضع وصرخ وبدا تماماً كطفل رضيع، اضطجع هناك ومع هذا كان يحكم، كان فى المزود ومع هذا كان يبقى فى العالم، ربّته أمه وعبدته الأمم، ربّته أمه ووقرته الملائكة، أرضعته أمه وأعلن عن مولده نجم متلألئ . ياله من غنى وياله من فقر! اغتنى كى ما يخلقكم، افتقر كى ما يفتديكم ، ومن ثم فإن حقيقة كونه فقيراً كانت نتيجة تنازله وليس احتياجه .

الحياة المسيحية

(مسيحى بالاسم وبالفعل)

٦ ـ دعونا لا نخدع أنفسنا بسبب حقيقة أننا نُدعى مسيحيين ، بل بالأحرى دعونا نؤمن أننا نستحق الإدانة إذا انتحلنا اسماً لا حق لنا فيه ، أو إذا كان أحدكم غير مصدق أو غير مؤمن، لحوح، عنيد، جرئ لدرجة أنه لايخاف غضب وسخط الله الديان ، فليشعر بالخجل أمام الأحكام البشرية ، وليدرك كم يعتبره الآخرون غبياً أحمقاً عديم الإحساس لأن غروره وجنونه وصلا لدرجة عظيمة حتى أنه ينتحل لنفسه اسماً لا حق له فيه. لأن من ذلك المغرور الجدير بالشفقة الذى يجرؤ ويقيم نفسه كمحام وهو غير متعلم؟

ومن ذلك المجنون المحروم من العقل ويعلن أنه جندى وهو لا يعرف كيف يستخدم الأسلحة ؟

فالمرء لا يختار مثل هذا الاسم بلا مبرر، ولكن عندما يطلق على أحدهم لقب اسكافى فهو يجب أن يصلح الأحذية. ولكى ينظر للمرء كحرفى أو كعامل يجب عليه أن يظهر دليلاً على فنه. ولكى يُعترف به كتاجر يعرض المرء بعض الأشياء الثمينة التى اشترت فى الأصل بسعر أقل.

ومن هذه الأمثلة ندرك أنه لا يوجد اسم بدون فعل معه ، وأنه بالإضافة لذلك يشتق كل اسم من الفعل السابق . والآن هل تُسمى مسيحياً إن لم تؤد أفعالاً مسيحية مميزة؟ الاسم المسيحى يفيد ضمناً العدل ، الصلاح ، الكمال ، الصبر ، العفة ، التعقل ، الاتضاع ، العطف ، البراءة ، والتقوى . فكيف تدافع عن انتحالك لهذا الاسم حين لا يبين سلوكك إلا عدداً قليلاً من فضائل كثيرة ؟ إن المسيحى الحق لا يكون بالاسم فقط ولكن بالفعل أيضاً، ذلك الذى يتمثل ويتبع المسيح فى كل النواحى، ذلك المقدس البرئ الطاهر العفيف الذى لا مكان للشر فى قلبه حيث أن قلبه يهيمن عليه التقوى والصلاح، ذلك القلب الذى يعرف كيف يساعد الجميع ولا يعرف كيف يضر أو يؤذى أحداً . إنه مسيحى ذلك الذى ـ وفقاً لمثال المسيح ـ اعتاد على فعل الخير للذين يعارضونه ، ويصلى لمضطهديه وأعدائه بدلاً من أن يكرههم . أما كل من يسرع لإيذاء شخص آخر فإنه يكذب حين يسمى نفسه مسيحياً، المسيحى الحق ذلك الذى يستطيع أن يقول بكل أمانة: «لم أؤذ أحداً، وعشت فى بر مع كل الناس» .

(المسيحى الحقيقى يقبل تعاليم المسيح ويتمثل بمحبته)

١٤ـ لذلك لا تدعوا أحداً يخدع أو يضلل آخر لأنه إن لم يكن الإنسان باراً فلا حياة له داخله، إن لم يحفظ وصايا المسيح فى كل النواحى لا يستطيع أن يشاركه، إن لم يحتقر الممتلكات الأرضية لن يحصل على الممتلكات السماوية، إن لم يحتقر الأفكار البشرية لن ينال البركات السماوية لا تدعوا أحداً يعلن أنه مسيحى إن لم يتبع تعليم المسيح ويتمثل بمثاله، هل تعتقدون أنه إنسان مسيحى من لا يطعم المحتاج بخبزه ، من لايسقى أى ظمآن بخمره ، من لا يشاركه أحد في مائدته ، من لا يسكن تحت سقفه غريب أو عابر سبيل، من لا تكسو ثيابه أى شخص عريان، من لا تساعد يداه أى فقير، من لا يختبر بركاته أي شخص ومن لا يشعر برحمته أحد. من لايتمثل بالصالحين بأى وجه من الوجوه بل يسخر منهم ويهزأ بهم، ويتربص بالفقراء باستمرار؟ فليتجنب كافة المسيحيين هذا السلوك ، فلا يمكن أن نلقب شخصاً من هذه النوعية بلقب مسيحى وابن لله ، فالمسيحى هو من يتبع طريق المسيح ومن يتمثل بالمسيح فى كل الأشياء كما هو مكتوب: « من قال إنه ثابت فيه ينبغى أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضا » (١يوحنا ٢:٦) . المسيحى هو من يظهر الرحمة تجاه الجميع، من لا يضطرب فى الضيق ، من لا يسمح أن يُظلم الفقراء فى حضوره، من يساعد البائس ويسعف المحتاج ، من يشفق على الحزين ويشعر إن أسى الآخرين إنما هو أساه هو شخصياً، من تبكيه دموع الآخرين ، من يكون منزله ملكية عامة للجميع، من لا يغلق بابه أمام أى أحد، من يشاركه الفقراء فى مائدته، من يعرض طعامه للجميع، من يشاركه الجميع في خيراته ولا يشعر أحد منهم أنه يلاقى إهمالاً ، من يخدم الله ليلاً ونهاراً، من يتأمل ويتفكر فى مبادئه باستمرار، من يجعل نفسه فقيراً في هذا العالم كي ينال غنىً فى عينى الله، من يعانى من اعتباره ليس ذى قيمة بين الناس كى يقبل أمام الله والملائكة ، لا يخبئ شيئاً فى قلبه ، من كانت روحه بسيطة وبلا عيب ، من كان ضميره أميناً طاهراً، من يوجه تفكيره بالكامل تجاه الله ، ومن كان كل رجائه فى المسيح، من يرغب فى الممتلكات السماوية وليس الأرضية ، ومن يحتقر الخيرات الأرضية لكى يحصل على السماويات .

أما بالنسبة لأولئك الذين يحبون هذا العالم، أولئك المسرورون والقانعون بهذه الحياة، اسمع ما يقوله الكتاب المقدس لهم « أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله ، فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله » (يعقوب ٤:٤) .

الجزء الثانى

الكتابات السياسية

مدينة الله

(الطبيعة الاجتماعية للإنسان)

١٢ ، ٢٨ ـ لذلك فالدين الحقيقى يعترف ويعلم على نحو صحيح أن خالق الكون هو نفسه خالق كل الكائنات البشرية ، بمعنى أنه خالق كل من الأرواح والأجساد ، ومن بين هذه المخلوقات الأرضية يبرز الإنسان لأنه خلق على مثال الله . ولهذا السبب الذى ذكرته مع أنه قد يكون هناك أسباب أخرى أعظم شأناً لا نعلمها، خلق الإنسان كفرد لكنه لم يتركه بمفرده لأن الجنس البشرى أكثر من أى نوع آخر هو كائن اجتماعى بالفطرة ، وتقدم حقائق الطبيعة الإنسانية أوضح التحذيرات ضد هذا التنافر والإخلال بما تقره الطبيعة فتحذرنا الطبيعة لكي نحترس من شر الشقاق ، وإن حدث وظهر هذا الشقاق فعلينا أن نعالجه بأن نتذكر الأب الأول لجنسنا الذي خلقه الله كفرد واحد لهذا القصد: أن يتكاثر الجنس البشرى من هذا الفرد ، وهذه الحقيقة تعلم الإنسان كيف يحافظ على وحدة متناغمة فى التعدد ، وإضافة لهذا فإن حقيقة خلق امرأة للرجل الأول من جنبه ، تبين لنا بوضوح كيف ينبغى أن يكون الارتباط حميماً بين الرجل والزوجة (تكوين ٢:٢٢).

(أصل المدن الأرضية والسماوية)

نرى إذاً أن المدينتين انبثقتا من نوعين من المحبة: المدينة الأرضية خلقت من محبة الذات التى وصلت إلى درجة احتقار الله، أما المدينة السماوية فقد خلقت بمحبة الله وتتميز باحتقار الذات . وفى الحقيقة فإن المدينة الأرضية تعتمد على نفسها أما المدينة السماوية فتعتمد على الرب (٢كورنثوس ١٠:١٧) .

الأولى تتطلع إلى المجد من الناس ، أما الأخرى فتجد أسمى مجدها في الله، وشهادة الضمير الصالح . الأرضية ترفع رأسها فى مجدها، أما المدينة السماوية فتقول لإلهها: «مجدى ورافع رأسى». فى الأولى تسيطر شهوة الهيمنة على أمرائها كما تسيطر على الأمم التى تستعبدها ، أما فى الأخرى فإن كل من لهم السلطة والخاضعين لهم يخدمون بعضهم

البعض بمحبة، الحكام بالمشورة والرعية بالطاعة. الأولى تحب قوتها الخاصة المتمثلة فى قادتها الأقوياء ، أما الأخرى فتقول لإلهها: « أحبك يارب يا قوتى » (مزمور ١٨:١) .

ومن ثم ففى المدينة الأرضية يعيش الحكام وفقاً للمستويات البشرية ، وهم يسعون خلف شهوات الجسد أو شهوات العقل أو الاثنين معاً . أو يعيش أولئك الذين استطاعوا أن يعرفوا الله «ولم يعبدوه كإله ولم يقدموا له الشكر بل حمقوا فى أفكارهم وأظلم قلبهم الغبى فى تأكيد حكمتهم» بمعنى أنهم حين وجدوا أنفسهم في حكمتهم تحت سيطرة الكبرياء ـ «صاروا جهلاء وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحافات» ـ لأنهم عندما عبدوا هذه الأوثان أصبحوا إما قادة أو تابعين للجماهير العامة «وعبدوا المخلوق دون الخالق الذي هو مبارك إلى الأبد» (رومية ١:٢١) .

وعلى النقيض من ذلك ، ففى المدينة السماوية لا نجد مجرد حكمة بشرية بل التقوى التى تعبد بحق الإله الحقيقى . وتتطلع إلى مكافأتها فى صحبة القديسين ليس فقط فى الناس المقدسين بل أيضاً فى الملائكة المقدسين « لكى يكون الله الكل فى الكل » (١ كورنثوس ١٥: ٢٨) .

(قانون الطبيعة يحفظ سلام الكون)

٢١ ، ١٣ ـ سلام الجسد هو التوازن المنظم لكل أعضائه ، وسلام الروح غير العاقلة هو السكون المنظم على نحو واف للشهوات . أما سلام الروح العاقلة فهو فى الانسجام المنظم بين المعرفة والفعل ، أما سلام الجسد والروح معاً فهو فى الحياة المنظمة وصحة الكائن الحى، أما السلام بين الانسان الفانى والله فهو الطاعة المنظمة التى يرشدها الإيمان فى الخضوع لقانون أبدى، وأما السلام بين الناس فهو فى الصحبة المنسقة المنظمة ، وسلام البيت هو فى الاتفاق المنظم بين أولئك الذين يعيشون معاً فيما يتعلق بإعطاء الأوامر وطاعتها، وسلام المجتمع السياسى هو فى تناسق منظم للسلطة والطاعة بين المواطنين . أما سلام المدينة السماوية فهو فى الصحبة المنظمة المتناسقة على نحو كامل في التمتع بالله ، ورفقة متبادلة فى الله . وسلام الكون بأسره هو فى هدوء النظام ، والنظام هو ترتيب الأشياء المتساوية وغير المتساوية فى نموذج يحدد لكل منها وضعه الملائم .

(عطايا الله يجب أن تستخدم على نحو ملائم)

خلق الله كل الأشياء بحكمة سامية ونظمها جميعها بعدل كامل، وحين جعل الجنس البشرى أعظم المخلوقات أعطاه بعض الأشياء الصالحة الملائمة لهذه الحياة مثل: السلام الوقتى فى فترة الحياة القصيرة ، ذلك السلام الذى يكمن في الصحة الجسدية والأمان ، وفى صحبة الآخرين من البشر ، والحصول على ضروريات الحياة مثل : الضوء، الكلام، الهواء ، الماء ، وكل ما هو ملائم لحاجة الجسد من طعام وملبس . هذه الأشياء ممنوحة بأكثر الشروط عدلاً: إن كل إنسان يستخدم هذه الخيرات على نحو صحيح سيجد أن هذه الخيرات إنما خُلقت لتخدم سلام الإنسان حتى يأخذ خيرات أوفر وأفضل ، وأعنى بها سلام الخلود والمجد والكرامة فى حياة أبدية فى التمتع بالله ، أما ذلك الذى يستخدم هذه الخيرات الأرضية على نحو سيئ سيفقدها ، ومن ثم فلن ينال عطايا السماء الفضلى .

(النظام والسلام فى المجتمع البشرى)

نرى إذاً أن كل الخيرات الوقتية للإنسان يجب أن تُستخدم لكى نتمتع بالسلام الأرضى فى المدينة الأرضية ، كما تستخدم هذه الخيرات في المدينة السماوية لنتمتع بالسلام الأبدى. فإن كنا حيوانات غير عاقلة فسيكون هدفنا الوحيد هو تنظيم لإشباع شهواتنا. لكن هناك هدف آخر يمكن أن يسعي إليه الإنسان وهو تحقيق راحة الجسد وتوفير إشباع ملائم للرغبات بهدف أن يعزز السلام الجسدي سلام الروح ، لأنه إن نقص السلام الجسدي فإن السلام الروحى يُعاق حيث أنه لا يستطيع أن يحقق إشباع احتياجاته ، لكن الاثنين معاً يعززان ذلك السلام الذى هو الانسجام المتبادل بين الروح والجسد، سلام الحياة المنظمة والصحة ، لأن الكائنات الحية تعبر عن محبتها للسلام الجسدي بتجنبها الألم. وعن طريق سعيها وراء الرغبة لإشباع متطلبات احتياجاتها، تبين محبتها لسلام الروح ، وبهذه الطريقة المتبادلة بين احتياجات الجسد والروح ، يظهر السلام الناتج عن التوازن بينهما .

بيد أنه بسبب وجود روح عاقلة فى الإنسان فهو يخضع لسلام الروح العاقلة ، لذلك فهو يتحرك بترو ويتصرف وفقاً لعقله لكى يحقق هذا التوافق المنظم بين المعرفة والفعل الذى نسميه سلام الروح العاقلة ، واضعاً هذا الهدف فى الحسبان ، آملاً فى تجنب الألم والحزن وقلق الرغبة وفناء الموت ، لكى يتوصل إلى بعض المعرفة النافعة ، وأن ينظم حياته وفقاً لهذه

المعرفة ، لكنه يحتاج إلى توجيه إلهى يطيعه بإصرار، وعونٍ سماوى كى يطيعه بحرية ليمنعه من السقوط كضحية لخطأ مميت من خلال ضعف العقل البشرى أثناء تحمسه للمعرفة، فطالما استوطن في هذا الجسد الفانى فهو سائح فى أرض غريبة بعيداً عن الله ، لذلك يسلك بالإيمان لا بالعيان (٢كورنثوس ٥:٦) ، ذلك هو سبب أنه يتطلع إلى كل سلام، سلام الجسد وسلام العقل أو كلاهما .

والآن يعلمنا الله سيدنا مبدأين رئيسيين: محبة الله ومحبة القريب ، ومن خلالهما يجد الإنسان ثلاثة أهداف لمحبته: الله ، ونفسه ، وقريبه ، ويعلم أنه لايخطئ إن هو أحب نفسه طالما أحب الله ، وسيتبع هذا أيضاً أن يهتم بأن يجعل قريبه يحب الله حيث إنه أوصى بأن يحب قريبه كنفسه ، ونفس الشئ فى اهتمامه بزوجته وأولاده وأعضاء بيته وباقى الناس الآخرين بقدر المستطاع . ولنفس الهدف فإنه سيتمنى أن يهتم جاره به إذا احتاج هذا الاهتمام . ولهذا السبب سيكون فى سلام مع كل الناس بقدر ما يكمن فيه هذا السلام ويتأسس هذا النظام على قاعدتين:

اولاً : ألا يؤذى أحداً ، **ثانياً** : أن يساعد الجميع حينما يستطيع، ومن ثم نبدأ بأن الإنسان عليه مسئولية تجاه بيته لأنه من الواضح أنه على اتصال قريب بهم وفقاً لكل من القانون الطبيعى والقانون البشرى.

ولذلك يستطيع أن يمارس اهتمامه بهم ، ولهذا السبب يقول الرسول : « إن كان أحد لا يعتنى بخاصته ولاسيما أهل بيته فقد أنكر الإيمان وهو شر من غير المؤمن » (١تيموثاوس ٥ : ٨) . هذا هو المكان الذى يبدأ فيه السلام المنزلى ، الاتفاق المنظم ، فيما يتعلق بإعطاء وإطاعة الأوامر بين من يعيشون في نفس البيت ، فالذين يعتنون بمصالح الآخرين هم الذين يعطون الأوامر ، وهكذا يعطي الزوج الأوامرللزوجة ، الآباء للأبناء ، السادة للخدام . ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء الذين يكونون موضوع الاهتمام يطيعون الأوامر. وعلى سبيل المثال تطع الزوجات أزواجهن ، والأبناء يطيعون آباءهم والخدام سادتهم، بيد أنه فى بيت البار الذى « يعيش على الإيمان » الذى لايزال يحيا فى غربة بعيداً عن تلك المدينة السماوية ، فإنه حتى أولئك الذين يعطون الأوامر هم خدام للذين يأمرونهم لأنهم لا يأمرون بدافع شهوة السيطرة ، بل بدافع الاهتمام المنبعث

من الإحساس بالواجب تجاه مصالح الآخرين ، ليس بكبرياء بل بمحبة فى الاعتناء بالآخرين.

(حرية الإنسان الطبيعية والعبودية التى سببتها الخطية)

٢١ ، ١٥ ـ هذه العلاقة يفرضها نظام الطبيعة ، والله قد خلق الإنسان فى هذه الحالة لأنه يقول: «فيتسلط على سمك البحر وعلى طير السماء.. وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (تكوين ١:٢٦) . إنه لم يشأ أن يكون للكائن العاقل الذى خُلق على صورته سلطان إلا على المخلوقات غير العاقلة، وليس لإنسان سلطان على إنسان .

ومن ثم فإن الأبرار الأوائل كانوا بمثابة رعاة للقطيع وليس ملوكاً على الناس كى يعلمنا الله بهذه الطريقة أن السلسلة الطبيعية للمخلوقات مختلفة عن تلك التى فرض عليها عقاب الخطية هذه الضرورة التي تتطلب ممارسة الخضوع ، ويلتزم الخاطئ بهذا دون أن نعتبر أن هناك ظلماً وقع عليه ، ولهذا السبب لا تسمع عن أى عبد فى أى مكان فى الكتاب المقدس الى مجئ نوح البار الذى دان خطية ابنه بهذه الكلمة (تكوين ٩:٢٥) ولهذا استحق ذلك الابن هذا الاسم بسبب اثمه وليس بسبب طبيعته . ويعتقد أن أصل الكلمة اللاتينية لعبد SERVUS مشتق من اللقب الذي كان يطلق علي المهزومين والذين كان يمكن أن يوقع عليهم المنتصرون أحكاماً بالموت وفقاً لقوانين الحرب ، ولكنهم بدلاً من أن يحكموا عليهم بالموت كانوا يأخذونهم (عبيداً) . وحين يحدث ذلك فإن هؤلاء العبيد يأخذون اسم من حفظهم من الموت ، إلا أن هذا الاستعباد يمكن أن يحدث نتيجة للخطية فقط لأنه حين تقوم حرب عادلة فإن الطرف المنتصر يمكن أن يكون شريراً ، ولذلك يكون الانتصار الذى حققه هو إذلال يوقعه الحكم الإلهى عليه سواء لتقويمه أو لعقاب خطاياه .

ولنا شاهد على ذلك فى دانيال، إنسان الله، الذى يعترف فى عبوديته بخطاياه وخطايا شعبه لله ويشهد بأسى أنهم السبب فى هذه العبودية (دانيال ٩:٣ ـ ١٥) ، فأول سبب للعبودية هو الخطية التى يخضع بموجبها الإنسان للإنسان في حالة الاسترقاق ، ولايحدث هذا إلا بحكم الله الذى لا يوجد عنده أى ظلم ، والذى يعرف كيف يعين عقوبات مختلفة وفقاً لما يستحق المعتدى .

الان كما يقول ربنا « كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية » (يوحنا ٨:٣٤) ، ولهذا

وعلى الرغم من أن أبراراً كثيرين يعملون كعبيد عند سادة أشرار ، إلا أن السادة أنفسهم ليسوا أحراراً « لأن ما انغلب منه أحد فهو له مستعبد أيضاً » (٢ بطرس ١٩:٢). ومن الواضح أنه من الأفضل أن تكون عبداً لإنسان من أن تكون عبداً لشهوة ، فإن أكثر أنواع السيطرة تدميراً لقلوب الناس هى تلك التى تمارسها شهوة السيطرة هذه بعينها . ومع ذلك ففى هذا النظام الذى يحدث فيه السلام نتيجة للخضوع للآخرين ، فإن الاتضاع مفيد للخدام مثلما يكون الكبرياء ضار بالسادة إلا أن الإنسان ليس عبداً للإنسان أو للخطية بالفطرة ، فى الحالة التى خلقه الله عليها ، ولكن تبقى حقيقة وهى أن العبودية تأخذ طابع العقاب ، فقد فرضها القانون الذى يحفظ نظام الطبيعة ويمنع اضطرابها . فإن لم يحدث شئ نعتبره انتهاكاً للقانون فإن العبودية لن تفرض كعقاب ، وهذا يفسر أيضاً نصيحة الرسول للعبيد بأن يخضعوا لسادتهم وأن يخدموهم بأمانة وعن طيب خاطر (أفسس ٦ : ٥) والذي يقصده هو أنه إن لم يحررهم سادتهم فهم يستطيعون أن يجعلوا عبوديتهم حرة إلي حد ما ، وذلك بأن يخدموا ، ليس بمكر الخوف بل بإخلاص المحبة إلي أن يختفي كل ظلم وتبطل كل رياسة بشرية وكل سلطان ويكون الله الكل في الكل (١كورنثوس ٥ : ٢٢ ، ٢٨) .

(العدالة في العلاقة بين السيد والعبد)

مما لا شك فيه أنه كان لأبائنا القديسين فى الإيمان عبيداً ، ولكنهم كانوا يتدبرون سلام بيوتهم ويفرقون بين وضع الأبناء ووضع العبيد فيما يتعلق بالخيرات الوقتيه فقط ، وعلى النقيض من هذا فإنه فيما يتعلق بعبادة الله الذى يجب أن نضع فيه رجائنا فى الخيرات الأبدية ، كانوا يعتنون بجميع أعضاء بيتهم بمحبة متساوية وهذا هو ما يفرضه نظام الطبيعة وهو أصل اسم " رب البيت " هذا الاسم الذى أصبح مقبولاً لدرجة أن من لا يحكمون بالعدل يسعدون بأن يُدعوا بهذا اللقب ، فأولئك الذين هم " آباء حقيقيون لبيوتهم " يعتنون بخير كل فرد يوجد فى البيت فيما يتعلق بعبادة وخدمة الله كما لو كانوا جميعاً أبنائهم فهم يتوقون للوصول للبيت السماوى ويرفعون الصلوات من أجل هذا ، حيث لن يصبح هناك إعطاء للأوامر لأنه لن تكون هناك حاجة لإتمام الواجبات اللازمة لراحة الذين الآن هم فعلاً فى النعيم . تلك الحالة الخالدة ، بيد أنه إلى أن نصل لهذا البيت فإن على

الآباء التزاماً بممارسة سلطة السادة أكبر من واجب العبيد فى تحمل وضعهم كخدام .

ومع ذلك فإن تسبب أحدكم فى تعكير صفو السلام المنزلى من خلال عصيانه فإنه يوبخ بكلمة ، أو لطمة ، أو غير ذلك من أنواع العقاب العادل المشروع ، وبالدرجة التى يسمح بها المجتمع البشرى . وهذا لصالح المخطئ بقصد إعادة انضباطه للسلام المنزلى الذى انفصل عنه لأنه ليس من الصلاح أن تساعد إنساناً حين تتسبب فى خسارته شيئاً من الخير ، هكذا أيضاً ليس من المقبول أن تبقى على إنسان حين تجعله بفعلتك هذه يسقط فى خطية أكبر ، من ثم فإن واجب الإنسان البرئ لا يتضمن فقط عدم إيذاء أى أحد بل أيضاً منع الإنسان عن الخطية أو معاقبة خطيته كى ما تقوّم هذا الإنسان الذي تم تأديبه، أو تضعه مثالاً للآخرين فيعتبروا مما حدث له . الآن ينبغى أن يبدأ المرء من بيته فهذا الجزء الصغير يكوّن المجتمع المدنى ، وكل بداية موجهة إلى نهاية من نوعها، وكل جزء يسهم فى كمال الكل الذى يكون جزءاً منه ، وبمعنى آخر فإن السلام المنزلى يسهم فى سلام المدينة، أى أن الانسجام المنظم بين الذين يعيشون معاً فى منزل فيما يتعلق بإعطاء وإطاعة الأوامر يسهم فى الانسجام المنظم فيما يتعلق بالسلطة والطاعة من المواطنين، وعلى ذلك فمن الملائم أن يستمد رب البيت أحكامه من قانون المدينة، وأن يحكم بيته بالطريقة التى تلائم سلام المدينة

(السلام فى المجتمع السماوى والسلام فى المدينة الأرضية)

بيد أن البشر الذين لم يؤسسوا حياتهم على الإيمان يبحثون عن سلام أرضي مبنى على أساس الأشياء الخاصة بهذه الحياة الوقتية ومميزاتها ، بينما نجد أن البشر الذين أسسوا حياتهم على الإيمان يتطلعون إلى البركات التى وُعد بأنها ستكون أبدية فى المستقبل ويستخدم الأشياء الأرضية والوقتية كسائح فى أرض غريبة وليست كأشراك أو عوائق تعيق طريقهم إلى الله ، بل ببساطة كمؤن تساعده على تحمل أعباء الجسد الفاسد الذى يثقل الروح ، وهكذا فإن كلا النوعين من الناس ، وكلا النوعين من البيوت على السواء يستخدمان الأشياء الأساسية لهذه الحياة الفانية لكن أهدافهما مختلفة ، هكذا أيضاً المدينة الأرضية التى لم تؤسس على الإيمان فهى تهدف إلى سلام أرضى ، ولكنها تحد هدف سلامها ، وهدف تناسق السلطة والطاعة بين مواطنيها على التحقيق الإرادى والجماعى على الاهداف الضرورية فقط لهذا العالم الفانى ، فإن المدينة السماوية أو

بالأحري ذلك الجزء منها الذى يواصل رحلته فى حياة الفناء فهى على نقيض هذا . وكذلك الذي يعيش على أساس الإيمان يجب أن يستخدم هذا السلام أيضاً إلى أن تزول حالة الفناء ، هذه لأن هذا السلام أمر أساسي ، وهذا يعود إلى ما نسميه حياة العبودية والأسر في هذه المدينة كأرض غريبة بالرغم من أنها تلقت الوعد بالفداء وعطية الروح كعهد يختم على حقيقة الفداء ، ولكنها لا زالت تطيع قوانين المدينة الأرضية التي تنظم حياة المدينة الفانية . أما هدف الطاعة فهو اشتراك كلا المدينتين في حالة الفناء ، وبالتالي وجود توافق بينهما فى الأشياء المتشابهة فى حالتها هذه.

(سلام المدينة السماوية هو السلام الحقيقى الوحيد)

فبينما تكون هذه المدينة السماوية فى رحلة هذا العالم ، فهى تدعو المواطنين من كل الأمم ، وبهذا تكوّن مجتمعاً من الغرباء يتحدثون بكل اللغات ، وهى لا تهتم بأى اختلاف في العادات أو القوانين أو الأعراف التى تحفظ وتحقق السلام الأرضى ، ليس معنى هذا أنها تبطل أو تلغى أياً منها بل تحافظ عليها وتتبعها شريطة ألا تكون عائقاً أمام الدين الحقيقى الذى يعلمنا أن نعبد الله الواحد السامى الحقيقى . وهكذا فإنه حتى المدينة السماوية يستخدم فى رحلتها هنا على الأرض ذلك السلام الأرضى وتدافع وتسعى إلى التوفيق بين المشيئات البشرية فيما يتعلق بالإمدادات الخاصة بطبيعة الإنسان الفانية بالقدر المسموح به، وبدون الإضرار بالدين الحقيقى والتقوى، وفى الحقيقة فإن هذه المدينة تربط السلام الأرضى بالسلام السماوى ، الذى هو فعلاً السلام الحقيقى لدرجة أنه يجب أن يُعتبر السلام الوحيد الذى يستحق هذا الاسم ، على الأقل فيما يتعلق بالخليقة العاقلة، لأن هذا السلام هو الصحبة المنظمة والمنسقة على أكمل وجه فى التمتع بالله ، وكذلك تمتع كل منا بالآخر فى الله ، وحين نصل إلى حالة السلام هذه ، فلن توجد فيما بعد حياة تنتهى بالموت بل حياة حقيقية مؤكدة ، ولن يوجد جسد حيوانى " يثقل الروح " فى فساده بل جسد روحى بلا شهوات ، جسد خاضع للإرادة فى كل جزء ، وهذا السلام تمتلكه المدينة السماوية بإيمان أثناء رحلتها فتحيا حياة البر على أساس هذا الإيمان ، ناظرة إلى بلوغ هذا السلام فى كل فعل صالح تؤديه فيما يتعلق بالله وفيما يتعلق بالقريب ، لأن حياة المدينة هى بالتأكيد حياة اجتماعية .

الرسائل

(عما إذا كان يجب اضطهاد المهرطقين : رؤية أوغسطين الأولى للتسامح)

بدأ فورتنيوس (Fortunius) يصر على أن أجيب على هذا السؤال بصراحة :

هل المُضطهِد أم المُضطهَد هو الذى على صواب ؟

وأجبت :- إن السؤال لم يُقدم على نحو صحيح ، فربما كان الاثنان على خطأ ، أو ربما أتى الاضطهاد من جانب أكثر الطرفين صلاحاً ، ومن ثم فليس من الصواب أن نستنتج أن الذى يعاني الاضطهاد هو صاحب الموقف السليم ، مع أنه يكاد أن يكون كذلك ، وحين أدركت أنه لا يزال يؤكد هذا بشدة راغباً فى أن أعترف بعدالة الأطراف التي ينحاز هو لها لأنهم تعرضوا للاضطهاد ، فسألته إن كان يؤمن بأن أمبروز أسقف كنيسة ميلان إنسان صالح ومسيحى، فوجد نفسه مضطراً لأن ينكر صراحة أن هذا الإنسان كان مسيحياً صالحاً لأنه إن كان قد اعترف بهذا لكنت أعلنت له على الفور أنه اعتقد أن من الضرورى أن يتعمد ثانية ، ومن ثم حين اضطر أن يقول فيما يتعلق بأمبروز إنه لم يكن مسيحياً أو إنساناً صالحاً قصصت عليه ما تعرض له من اضطهاد حين أحاط الجنود بالكنيسة ، أيضاً سألت عما إذا كان ماكسيميانوس (Maximianus) الذى انشق عن حزبهم فى قرطاج رجلاً صالحاً ومسيحياً فى نظره ؟ فلم يستطع إلا أن ينكر هذا، ولذلك ذكّرته أنه قد تعرض لهذا الاضطهاد حين سُويت كنيسته بالأرض . وقد حاولت بهذه الأمثلة أن أقنعه على قدر الإمكان بأن يكف عن تأكيد أن التعرض للاضطهاد هو أول علامة على الصلاح المسيحى .

وروى أيضاً أنه فى بداية انشقاقهم قام أسلافه بمحاولة مستميتة للتوصل لطريقة تطمس خطأ كاسيليانوس (Caecilianus) خشية حدوث انشقاق وذلك بأن عينوا أسقفاً مؤقتاً على شعب جماعته فى قرطاج قبل رسم ماجورنيوس (Majorhnus) معارضةً لكاسيليانوس، ورغم أن هذا الأسقف قد أُغتيل فى المكان الذى يجتمع فيه على أيدى أناس من جماعتنا، وأعترف أننى لم أسمع هذا من قبل ، مع أنه قد تم دحض وتفنيد الكثير من الاتهامات التى اتهمونا بها، ومن جانبنا فقد أثبتنا عليهم تهماً أكبر وأكثر عدداً، وبعد أن قص هذه الحكاية

بدأ مجدداً يصر أن أجيب عما إذا كنت فى هذه الحالة أرى القاتل أم الضحية أكثر صلاحاً كما لو كان استطاع أن يثبت أن هذا الحادث قد وقع كما روى هو . لذلك قلت له :- أولاً يجب أن نتحقق من صحة الرواية ، لأننا لا ينبغى أن نصدق كل ما يقال بدون فحص ، وحتى إن كانت صحيحة فليس من الممكن أن يكون الاثنان متساويين فى السوء ، فأحدهما قد تسبب فى موت الآخر ، تسبب السيئ فى موت الأسوأ منه لأنه من الممكن أن الذي يعيد التعميد يكون أكثر جرماً من الذى يقتل الجسد فقط . وبعد هذا لم يكن هناك أى مناسبة للسؤال الذى وضعه أمامى فيما بعد ، وهو : ينبغى أن لا يتم قتل أحد حتى ولو كان شريراً من جانب المسيحيين والصالحين كما لو كنا نسمى أولئك الذين يفعلون مثل هذه الأشياء فى الكنيسة الكاثوليكية أناساً صالحين ، وبالإضافة لهذا من الأيسر لهم أن يؤكدوا هذا التصريح دون أن يحاولوا إثباته لنا لأنهم أنفسهم ـــ باستثناء القليل منهم ـــ أساقفة وكهنة ورجال دين من كافة الأنواع يجمعون الرعاع الذين يتصفون بالجنون ويسببون ـــ حيثما كان من الممكن ـــ مذابحاً عديدة وخراباً لإيذاء ليس الكاثوليك فحسب بل فى بعض الأحيان لإيذاء من يشايعونهم . وعلى الرغم من هذه الحقائق أصر فورتنيوس الذى ادعى جهله بأفعالهم الحقيرة ـ التى يعرفها أفضل منى ـ على أن أعطي مثالاً لرجل صالح قتل حتى إنساناً شريراً . وبالطبع هذا ليس له صلة بالموضوع الذى نتناوله الآن لأننى سلمت بأنه أينما أُرتكبت مثل هذه الجرائم من جانب أناس لهم اسم المسيحيين ، فإن هذه الأعمال لا يمكن أن توصف بأنها أعمال أناس صالحين ، ومع هذا ، ولكى أبيِّن له ما هو السؤال الحقيقى ذكّرته بعدد الأنبياء الكذبة الذين ذبحهم إيليا بيديه (الملوك الأول ١٨ : ٤٠) فرأى بوضوح فى تلك المسألة ـــ لأنه لم يستطع حقاً إلا أن يرى ـ أن مثل هذه الأشياء شرعية للأبرار لأنهم إنما يفعلونها كأنبياء يرشدهم الروح ، وتجيزنا سلطة الله الذى يعلم بالتأكيد من أولئك الذين يفضل أن يُقتلوا . وبعد ذلك طلب منى أن أذكر له أى إنسان صالح فى العهد الجديد قتل أى فرد حتى لو كان مجرماً أو عاقاً .

عندئذ حاولت أن أوضح أنه ليس من الملائم ـ سواء لنا أو لهم ـ أن يوبخ أحدنا الآخر على فظائع ارتكبها أحدنا ، لأننى أسلم بأنه لا يمكن تقديم مثال من العهد الجديد عن إنسان صالح قتل أحداً ، ولكننى أصررت أنه بمثال ربنا نفسه يمكن أن نثبت أن البار قد سامح الشرير ، لأنه سمح لمسلّمه الذى تلقى بالفعل ثمن دمه بأن يظل غير معروف من بين

الأبرياء الذين كانوا معه حتى إلى قبلة السلام الأخيرة ، ولم يخف عن تلاميذه حقيقة أن من بينهم واحداً قادر على ارتكاب هذه الجريمة ، ومع هذا كان يقدم لهم سر جسده ودمه على قدم المساواة ودون أن يستثنى مسلّمه (متى ٢٦ : ٢٠ - ٢٨) .

انتهينا من هذا وتناولنا موضوعاً آخر عن الحديث الذى يتردد عن جماعتنا وما قيل عن أننا بيتنا النية على توجيه الاضطهاد ضد جماعة فورتنيوس ، وقال فورتنيوس إنه يريد أن يرى كيف سأتصرف في ما يخص هذا الاضطهاد وعما إذا كنت سأوافق على هذه الفظاعة أم أرفض تأييدها . فقلت إن الله يرى قلبي أما هم فلا يستطيعون ، وأنهم إلى الآن ليس لديهم أى دافع ليخشوا مثل هذا الاضطهاد الذى إن وقع فسيكون بالتأكيد نتيجة لعمل الأشرار ، ومع هذا فإنهم ليسوا أشراراً مثلُ بعض من جماعتهم . وبعد هذا أوضحت أننا لسنا مجبرين أن نسحب أنفسنا من شركة الكنيسة الكاثوليكية بسبب أى شئ يرتكب ضد مشيئتنا ، ضد اعتراضنا (هذا إن كان لدينا الفرص لنشهد ضده) حيث إننا تعلمنا أن نتسامح من أجل السلام الذى يصفه الرسول فى هذه الكلمات : « محتملين بعضكم بعضاً فى المحبة ، مجتهدين أن تحفظوا هذا السلام (أفسس ٤: ٢ و ٣) . وأكدت أنهم لم يحفظوا السلام حين تسببوا في الانشقاق مما ساعد حتى المعتدلين منهم أن يجيزوا بعض الشرور خشية أن يتحطم ما كان يبدو متماسكاً بعض الشئ رغم أنهم لم يحاولوا أن يحتملوا - ولو الأشياء البسيطة - فى سبيل الحفاظ على الوحدانية ، وقلت أيضاً : إن العهد القديم لم يعلن ولم يقف إلى جانب الوحدانية وما يتبعها من السلامة مثلما هو الحال الآن كما أعلنه ربنا فى إعلان المحبة الوارد فى العهد الجديد ، وعلى الرغم من هذا كان الأنبياء والناس المقدسين يميلون إلى الاعتراض على خطايا الشعب دون أن يحاولوا أن يفصلوا أنفسهم عن وحدة الشعب اليهودى وعن المشاركة فى الأسرار المعلنة آنذاك .

(« ألزمهم بالدخول » تأييد أوغسطينوس المتأخر للقوة والإجبار)

إلى أخى العزيز المحبوب ڤنسنتيوس (Vincentius) ، أوغسطين يرسل تحياته :

أنت تعتقد أنه لا يجب أن يُجبر أحد ليتبع الصلاح ، ومع هذا تقرأ أن السيد قال إلى عبيده « كل من تجدهم ألزمهم بالدخول » (لوقا ١٤ : ٢٣) . وتقرأ أيضاً كيف تم إلزام شاول وبعد ذلك بولس بالقوة العظيمة التى أجبره بها المسيح بأن يعرف ويتقبل الحقيقة .

لأنك لا تستطيع إلا أن تعتقد أن البصر الذى تتمتع به أعيننا هو أغلى عند الناس من المال والممتلكات ، وهو لم يسترد هذا البصر الذى فقده فجأة حين أسقطه الصوت السماوى على الأرض ، إلا حين أصبح عضواً فى الكنيسة المقدسة . أنت أيضاً تعتقد أنه لا يجوز استخدام أى إجبار مع أى إنسان بقصد إنقاذه من عواقب الإثم ، ومع هذا ترى فى أمثلة لا جدال فيها أن هذا بعينه هو ما يفعله الله الذى يحبنا بعناية حقيقية لخيرنا أكثر من أى أحد آخر ، وأنت أيضاً تسمع المسيح يقول: « لا يقدر أحد أن يقبل إلىّ إن لم يجتذبه الآب » (يوحنا ٦: ٤٤) . وهذا ما يحدث فى قلوب كل أولئك الذين يقتربون من الله من خلال خوفهم من غضبه . أنت تعرف أيضاً أن السارق قد ينثر الطعام أمام القطيع كى ما يقوده بعيداً ، وأنه أحياناً ما يعيد الراعى الخراف الضالة إلى القطيع مستخدماً عصاه .

ألم تختار سارة ـ حين كان لديها المقدرة ـ أن تذل الجارية الوقحة. هى لم تكرهها بقسوة فهى التى أوصلتها للأمومة بعطفها عليها . ولكنها فيما بعد عملت على كبح جماح كبريائها (تكوين ١٦ : ٥) . وبالإضافة لذلك فكما تعرف جيداً ، فإن هاتين المرأتين سارة وهاجر وابناهما إسحق وإسماعيل رموز تمثل الشخصيات الروحية والجسدية ، ومع أننا نقرأ أن الجارية وابنها تعرضا لمصاعب عظيمة من سارة إلا أن الرسول بولس يقول :– إن إسحق تعرض للاضطهاد من إسماعيل « ولكن كما كان حينئذ الذى ولد حسب الجسد يضطهد الذى حسب الروح هكذا الآن أيضاً» (غلاطية ٤ : ٢٩) . وهكذا فإن أولئك الذين يفهمون يدركون أن الكنيسة الكاثوليكية هى التى تتعرض للاضطهاد من خلال كبرياء وعقوق الذين يعيشون حسب الجسد الذين تحاول تقويمهم بآلام ومخاوف من النوع الوقتى ، ومن ثم فإن فى كل ما تفعله الأم الحقيقيه الصالحة حتى حين تعرض أبنائها لشئ قاس موجع فهى لا ترد على الشر بشر بل تطبق فائدة التهذيب لتبطل شر الخطية ، ليس بالكراهية التى تؤذى بل بالمحبة التى تداوى .....

دعنا يا أخى نتعلم أن نميز نوايا الأطراف فى الأفعال المشابهة ، دعنا لا نغلق أعيننا ونوبخ بلا مبرر فنتهم أولئك الذين يحثون عن خير الناس كما لو أنهم قد ظلموهم ، وبنفس الطريقة حين يقول الرسول إنه قد سلم بعض الشخصيات للشيطان كى يتعلموا ألا يجدفوا (١ تيموثاوس ١:٢٠) فهل رد على شر هؤلاء الناس بشر ؟ أم أنه قد رأى أنه عمل صالح

أن يُقَوم الأشرار بواسطة الشرير ؟

إذا كان التعرض للاضطهاد شيئاً جديراً بالثناء فى كل الحالات لاكتفى الرب بقول «طوبى للمطرودين » دون أن يضيف « من أجل البر » (متى ٥ : ١٠) . وبالإضافة لهذا فإن كان الاضطهاد مستحقاً للوم فى كافة الأحوال لما كان كتب فى الكتب المقدسة « الذى يغتاب صاحبه سراً هذا أقطعه » (مزمور ١٠١ :٥) . ولذلك ففى بعض الحالات فإن الذى يتعرض للضيق ليس دائماً على حق كما أن من يقوم بمضايقة غيره ليس دائماً على خطأ ، ولكن الحقيقة هى أن كل من الأشرار اضطهدوا الأبرار ، والأبرار اضطهدوا الأشرار . الأشرار بشرهم يؤذون والأبرار يسعون لعمل الخير بممارسة التهذيب . الأشرار يفعلون هذا بالقسوة أما الأبرار فبالاعتدال . الأشرار تدفعهم الشهوة أما الأبرار فتدفعهم المحبة ، لأن من كان هدفه القتل فإنه لا يهتم بالجرح . أما من كان هدفه أن يداوى فإنه يحترس عند استخدام مبضعه لأن الواحد يحاول أن يدمر السليم أما الآخر فيقوّم الضعيف . الأشرار قتلوا الأنبياء والأنبياء أيضاً قتلوا الأشرار ، اليهود جلدوا المسيح ، المسيح أيضاً جلد اليهود . الرسل سلمهم الناس للسلطات المدنية والرسل أنفسهم سلموا أناساً لسلطة الشيطان . فمن الضرورى فى كل هذه الحالات أن ننتبه إلى هذا : من كان على جانب الحق ومن كان على جانب الظلم ؟ ومن تصرف بدافع من رغبة فى الإيذاء ومن بدافع من رغبة فى التقويم وأين كان الخطأ ؟

أنت تقول إنه لا يوجد أى مثال فى كتابات كتبة الأناجيل أو الرسل عن أى التماس مُقدم نيابة عن الكنيسة إلى ملوك الأرض ضد أعدائها . من ينكر هذا ؟ فعلاً لا يوجد مثل هذا لكن فى ذلك الوقت لم تكن النبوّة ، « فالآن يا أيها الملوك تعقلوا ، تأدبوا يا قضاة الأرض اعبدوا الرب بخوف » . فقد كان كل ما تحقق فى هذا الوقت ما جاء فى نفس المزمور : « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه » (مزمور ٢ : ١و ٢ و ١٠ و ١١) ، فإذا كانت أحداث الماضى المسجلة فى كتب النبوّات قد قدمت نموذجاً تحت حكم الملك نبوخذ نصر لوقت الكنيسة أيام الرسل ، ولوقت ما هى عليه الآن ، ففى عصر الرسل والشهداء تحققت النبوة ، عندما أجبر الملك نبوخذ نصر الأبرياء والأتقياء أن يسجدوا لتمثاله وألقى فى النار كل الذين رفضوا ، وتحقق

ما تم التنبؤ به بعد ذلك فى هذا الملك نفسه حين تحول إلى عبادة الله الحقيقى فأصدر مرسوماً فى مملكته أن كل من يتحدث ضد إله شدرخ وميشخ وعبدنغو سيتعرض للعقاب الذى يستحقه . يمثل الزمان الأول لهذا الملك العصر السابق للأباطرة الذين لم يؤمنوا بالمسيح والذين قاسى المسيحيون على أيديهم بسبب الأشرار ، ولكن الزمان المتأخر لهذا الملك يمثل عصر ورثة العرش الإمبراطورى الذين آمنوا بالمسيح والذين قاسى الأشرار على أيديهم بسبب المسيحيين .

من الواضح أن هناك قوة وضغط تم توجيههما بقصد وحساب نحو المسيحيين الذين قادهم الأشرار للضلال ، وهناك إجراءات استخدمت لمنع خراف المسيح من التيهان ولإرجاعهم إلى القطيع ، وذلك بتوقيع عقوبات مثل النفى والغرامة ، ليفكروا فيما يقاسونه ، ويعرفوا لماذا يقاسونه ، ويتعلموا كيف يفضلون الكتاب المقدس على الأساطير والافتراءات البشرية. من ثم أعتقد أنك ترى الآن أن الشئ الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار حين يتعرض الإنسان للاضطهاد والمضايقة ، ليس حقيقة الاضطهاد فحسب بل بالأحرى طبيعة ذلك الشئ الذى اضطهد من أجله وما إذا كانت صالحة أم شريرة ، لا يستطيع أحد أن يكون صالحاً رغماً عن مشيئته ولكن خوفاً من التعرض لما لا يرغبه ، فهو إما أن يتخلى عن اتجاهاته العدائية أو يضطر لفحص حقيقة ما إذا كان جاهلاً به برضاه ، وتحت تأثير هذا الخوف يرفض الاعتراف بالخطأ الذى كان ميالاً للدفاع عنه ، أو يبحث عن حقيقة ما، كان لا يعرف عنها شيئاً فيما سبق ، ويحتفظ الآن عن طيب خاطر بما رفضه فيما مضى ، ربما كان لا جدوى على الإطلاق من تأكيد هذا فى كلمات إن لم يبين بأمثلة عديدة . نحن لا نرى مجرد قليل من الناس هنا وهناك بل عدة مدن دوناتية وليست كاثوليكية تكره بشدة الانشقاق الشيطانى ، وتحب بحماسة وحدانية الكنيسة ، وهؤلاء أصبحوا كاثوليك تحت تأثير ذلك الخوف الذى تكرهه أنت بقوانين الأباطرة ، بدءاً من قسطنطين الذى أمامه اتهمت جماعتك كاسيليانوس (Caecilianus) طوعاً ، وانتهاء بأباطرة عصرنا الذين أمروا بتنفيذ قرار القاضى الذى اختارته جماعتكم والذى فضلوه على محكمة من الأساقفة بالقوة ضدكم .

لذلك خضعت للدليل الذى تقدمه هذه الأمثلة ، والذى وضعه زملائى أمامى لأن رأيى الأصلى هو ألا يجبر أحد على الدخول فى وحدة المسيح ، وأن نتصرف بالكلمات فقط ، وأن

نقاتل بالمجادلات ، وأن نسود بقوة العقل ، لئلا يدّعى أولئك المهرطقون أنهم كاثوليك ، لكن رأيى أننا ضحدنا هذا الرأى ، ليس بكلمات أولئك الذين أنكروه بل بالأمثلة المقنعة التى استطاعوا أن يحددوها ، لأنه حتى مدينتى نفسها التى كانت فى جانب دوناتوس تحولت للوحدة الكاثوليكية بالخوف من المراسيم الإمبراطورية ولكنها الآن ليست مقتنعة بفكرة انحرافك الهدّام ، لدرجة أنه لا يمكن أن يصدق أنها قد اشتركت فى اثمك فى يوم من الأيام. يوجد آخرون كثيرون ذُكروا لى بالاسم ، إن الحقائق نفسها تثبت أن كلمة الكتاب المقدس تنطبق على هذا الأمر : « أعط حكيماً فيكون أوفر حكمة » (أمثال ٩:٩) لأنه كم من أناس كانوا مستعدين بالفعل لأن يكونوا كاثوليك وحركهم وضوح الحقيقة الذى لا يقبل الجدل ، ولكنهم كانوا يؤجلون اعترافهم بهذا لخوفهم من إيذاء جماعتهم ! . كم من أناس كانوا ملتزمين بغير الحقيقة ــ لأنك لم تطالب بهذا كملك ــ بل بالأغلال الثقيلة للعادة المتأصلة ، وهكذا تحقق فيهم القول الإلهى: « بالكلام لا يؤدب العبد لأنه يفهم ولا يُعنى » . كم من أناس اعتقدوا أن طائفة دوناتوس (Donatus) هى الكنيسة الحقيقية لأن الراحة جعلتهم فاترى الهمة أو مغرورين أو كسالى ، لدرجة أنهم كانوا لا يبذلون جهداً لفحص الحقيقة الكاثوليكية ! كم من أناس كانوا سيدخلون مبكراً ما لم تمنعهم افتراءات من يشوهون السمعة الذين أعلنوا أننا نقدم شيئاً آخر مما نقدم على مذبح الله : كم من أناس كانوا يؤمنون بعدم أهمية الجماعة التى ينتمى إليها المسيحى ، وظلوا فى الانشقاق الذى أحدثه دوناتوس (Donatus) فقط لأنهم ولدوا فيه ولم يكن أحد يلزمهم بأن يتخلوا عنه ويدخلوا فى الكنيسه الكاثوليكية ! لكل هذه الطبقات من الأشخاص كان الخوف من تلك القوانين هو سبب عودتهم للرب ، ولذلك فإن الملوك الذين أصدروا تلك القوانين قدموا خدمة للرب والآن نجد كثيرين يقولون : كنا مستعدين لذلك فى الماضى ولكن حمداً لله الذى أعطانا الفرصة لكى نفعل هذا فى الحال ونقطع كل حيرة التأجيل، ويقول آخرون : عرفنا أن هذا هو الحق ، ولكننا كنا أسرى لقوة العادة القديمة ، ولكن شكراً للرب الذى حطم تلك القيود، وأوردنا إلى السلام ، يقول آخرون : لم نعرف أن الحقيقة كانت هنا ولم نرغب فى أن نعلمها ، إلا أن الخوف جعلنا جادين لفحصها حين أصبحنا منتبهين للخطر لئلا نخسر الأشياء الوقتية أيضاً نحن الذين لم نربح الأشياء الأبدية ، ولكن شكراً للرب الذى أيقظنا من الإهمال من خلال الخوف ، ولأننا الآن قد أصبحنا قلقين سنبحث فى هذه الأشياء التى

لم نهتم بمعرفتها حين كنا متحررين من القلق!

ويقول آخرون: منعتنا التقارير الزائفة من دخول الكنيسة تلك التى لم نكن لنعرف زيفها ما لم ندخل الكنيسة ، ولم نكن لندخل إذا لم نُخبر ولكن حمداً للرب الذى أزال بسوطه ترددنا الجبان ، وعلمنا لنكتشف بأنفسنا مدى تفاهة وسخف تلك الأكاذيب التى نشرتها الإشاعة فى الخارج ضد كنيسته ، وبهذا نقتنع أنه لايوجد حق فى اتهامات مبدعى هذه الهرطقة حيث أن الاتهامات الخطيرة التى اخترعها تابعوها لا أساس لها من الصحة ، ويقول آخرون : اعتقدنا حقاً أنه لايهم انتمائنا لأى جماعة لكى نحفظ إيماننا بالمسيح . ولكن شكراً للرب الذى جمعنا من حالة الانشقاق وعلمنا أنه من الملائم أن نعبد الله الواحد فى وحدة واحدة .

الآباء المسيحيون اللاتينيون المتأخرون

سننهى دراستنا للعقيدة الاجتماعية لآباء الكنيسة باثنين من البابوات ، وهما ليو الأول (Leo I) وجريجورى الأول (Gregory I) . وقد سُمى كل منهما بالـ « كبير » ليس فقط بسبب قداستهما وقدرتهما الإدارية بل أيضاً بسبب أهمية تعاليمهما بل أنهما قدّما باقتدار التعاليم الاجتماعية الأكثر حداثة لخلفائهما بدءاً من ليو الثانى إلى يوحنا بولس الثانى.

الجزء الأول

ليو الكبير

ليو الكبير (٣٩٠ ـ ٤٦١ م) هو واحد من أعظم بابوات العصور القديمة وهو يتميز بأنه طورّ وحدة الكنيسة ودافع عن الحضارة الغربية ضد الغزاة الهمجيين.

يذكر ليو فى تاريخ العقيدة برسالته إلى فلافيان (flavian) التى تتعلق بوحدة المسيح التى تجمع الطبيعتين الإلهية والبشرية ، إلا أن تعاليمه الاجتماعية ليست أقل تأثيراً ، وبفضل فهمه للتجسد فقد كان لديه تقدير سام للكرامة الطبيعية الإنسانية ، ومن ثم فهو يدعو إلى احترام الفقراء والاهتمام بهم ، وفى عظاته يوصى بالصوم مصحوباً بتقديم الصدقات «ليكن امتناع المؤمنين طعاماً للفقراء» (عظة ٢٠) «الصوم بدون تقديم الصدقات ما هو إلا ألم للجسد أكثر منه تطهير للروح» (عظة ١٥) . وهو يؤكد على الهدف الاجتماعى للثروة والواجب الصارم لمشاركتها (عظة ١٠) . وهو أيضاً يدين الربا بشدة (عظة ١٧).

عظات ١٠ و١٧

(الخيرات تعطى لنا ليست كممتلكات شخصية بل لنستخدمها فى خدمة الله)

أحبائى، نحن نحفظ نصائح التقاليد الرسولية ، وبعناية الراعى برعيته ننصحكم أن تحتفلوا بحماسة بالممارسة الدينية بذلك اليوم الذى طهره أسلافنا من الخرافات الوثنية، وكرسوه لأعمال الرحمة . دعونا نبين أن سلطة أبائنا تحيا بيننا، وأن تعاليمهم لا تزال تحفظ الهدف المقدس من خلال طاعتنا لهذا النظام . نحن لا ننظر فقط لأزمنة الماضى بل لعصرنا أيضاً ، وأن ما ساعد أسلافنا فى تدمير الباطل كان مقصوداً منه أن يفيدنا فى

زيادة فضائلنا ، لأنه ما هو ذلك الشئ الذى يمكن أن يكون ملائماً أكثر للإيمان أو التقوى أكثر من أن نساعد المحتاجين ، وأن نعتنى بالمرضى ، وأن نخفف من احتياجات إخوتنا، وأن نتذكر حالتنا حين نرى آلام الآخرين ؟ لا يستطيع أن يفعل هذا إلا الشخص الذي يعرف ما هى العطايا الخاصة التي أعطاها له الله، لأن الله أعطي لكل فرد موهبة وعطية، وهو لم يمنح ثروة روحية فحسب بل أيضاً ثروات مادية ، ومن ثم فهو سيطلب حساباً عنها لأنه هو نفسه لم يمنحها لكى تُمتلك بل أودعها كأمانة لتُدار، ومن ثم يجب أن نستخدم عطايا الله بعدل وبحكمة ، لئلا تصبح وسيلة الأعمال الصالحة سبباً للخطية، فالثروات فى طبيعتها ونوعها صالحة ومفيدة جداً للمجتمع الإنسانى حين يديرها أناس ذو قلوب صالحة كريمة ، وحين لا يبددها المسرفون ، أو يخفيها البخلاء لأن هذه الثروات يمكن أن تتبدد سواء بالتخزين السيئ أو الإنفاق الأحمق.

لكن مع أنه شئ جدير بالثناء أن ننأى عن الإسراف وأن نتجنب التبذير والرغبات التافهة، ومع أنه يوجد أشخاص عديدون ميالون للعظمة ويعيشون بإسراف ، يترفعون عن إخفاء ثروتهم وينفرون من البخل الحقير القذر ، إلا أنه لا يوجد أية ميزة فى هذا الإسراف ولا توجد سعادة فيما يتعلق بهذا الغنى إذا كانت ثروتهم لخدمتهم فقط ، وإذا لم يساعدوا الفقراء بمالهم، وإذا لم يهتموا بالمرضى ، وإذا لم يجد الأسرى فدية فى وفرة ازدهارهم ، وإذا لم يجد الغريب راحة ، والمنفِى معونة . فالأغنياء من مثل هذه النوعية هم أكثر فقراً من الفقراء، إنهم يفقدون الثروة التى كان من الممكن أن يخلدوها ، وبينما يتعلقون بالممتلكات التى لن تدوم كثيراً والتى لا يستطيعون دائماً أن يتمتعوا بها بحرية يُحرمون من خبز العدل وحلاوة الرحمة . إنهم يتألقون من الخارج ويظلمون من الداخل، يعجبون بالأشياء الوقتية ويفتقرون للأشياء الأبدية ، لأنهم يجوّعون أرواحهم ويخزونها بالعرى ويودعون كل شئ فى مخازنهم الأرضية ولا يكنزون أى شئ فى مخازن الكنوز السماوية.

(واجب الرحمة يفوق سائر الفضائل)

لكن ربما يوجد بعض الأغنياء يحفظون بعض وصايا الرب الأخرى دون أن يساعدوا فقراء الكنيسة بالصدقات ، ولأنهم يتمتعون بمزايا الإيمان والاستقامة يعتقدون أنه سيغفر لهم لافتقارهم لهذه الفضيلة الواحدة . بيد أنه بدون هذه الفضيلة فإن فضائلهم الأخرى -

هذا ان كان لديهم بالفعل أية فضائل أخرى - تصبح غير نافعة ، لأنه على الرغم من أن إنساناً ما قد يكون خالياً من الإثم وطاهراً ورزيناً ومزيناً بغيرها من الأوسمة العظيمة ، ومع هذا فإن لم يكن رحيماً فإنه لا يمكن أن يستحق الرحمة . وربنا فى الحقيقة يقول : إن الرحماء مباركون لأن الله سيرحمهم وحين يأتى ابن الإنسان فى جلال ، ويجلس على عرش مجده ، وحين تجتمع كل الأمم ويتم تقسيم الأبرار والأشرار، فبسبب أى شئ يمجد أولئك الذين يقفون على اليمين ؟ فقط بسبب أعمال الرحمة والأفعال الخيرية التى يعتبرها يسوع أنها عُملت معه ، لأنه هو الذى جعل طبيعة الإنسان طبيعته الخاصة، ولم يسحب نفسه من الاتضاع البشرى فى أى صورة من الصور، وماذا سيكون سبب توبيخ أولئك الذين على اليسار؟ سيكون السبب فقط إهمال المحبة ، ووحشية القسوة ، وحرمان الفقراء من الرحمة، كما لو كان الفريق الأول ليس له أية فضائل أخرى ، والثانى ليس لديه أية خطايا أخرى ، ولكن فى يوم الدينونة الأخير العظيم ستوضع مثل هذه القيمة على سخاء العطاء أو على شر الطمع لدرجة أنها تفوق كل الفضائل الأخرى وكل الخطايا الأخرى . وهكذا فعن طريق هذا الشئ الصالح الوحيد سيدخل الناس إلى الملكوت ، وعن طريق ذلك الشئ الشرير الوحيد سيرسل الناس إلى النار الأبدية.

(فعالية تقديم الصدقات فى غفران الخطايا)

من ثم يا أحبائى لا يتملق أحدكم نفسه على أية ميزة من مزايا الحياة المقدسة إن افتقر إلى الأعمال الخيرية ، كما لن ينفعه نقاء جسده إن لم يطهر بالصدقات، فالصدقات تمحو الخطايا وتدمر الموت وتتغلب على عقوبة النار الأبدية ، ولكن من لا يتمتع بثمرها سيكون بعيداً عن رحمة معطى المكافأة كما يقول سليمان : « من يسد أذنيه عن صراخ المسكين فهو أيضاً يصرخ ولا يُستجاب » (أمثال ٢١:١٣) . طوبيا أيضاً يقول حين يعلم ابنه مبادئ الدين: « أعط صدقات من ثروتك ولا تحول وجهك عن الفقير ، وهكذا لن يحول الرب وجهه بعيداً عنك » (طوبيا ٤:٧).

هذه الفضيلة تجعل سائر الفضائل مفيدة ، فوجودها يحيى الإيمان نفسه، ويحيا بها البار أيضاً، وبدونها تسمى الأعمال ميتة لأنه كما أن الأعمال تجد مبدأها فى الإيمان هكذا أيضاً الإيمان يجد قوته فى الأعمال ، كما يقول الرسول « فإذاً حسبما لنا فرصة فلنعمل

الخير للجميع ولاسيما لأهل الإيمان فلا نفشل فى عمل الخير لأننا سنحصد فى وقته إن كنا لا نكل » (غلاطية ٦: ١٠. ٩) . وهكذا فإن حياتنا الآن هى وقت البذر ، ويوم المكافأة هو وقت الحصاد حين يحصد كل إنسان ثمار ما زرع وفقاً لمقدار ما بذره، ولن يخزى الرجاء وقت الحصاد، لأن المقياس الذى يقيس به الله إخلاصنا ليس مقدار ما أنفقناه ولكن مدى رغبتنا ومشيئتنا فى أن نبذر ونحصد ، فالقليل يثمر مثل الكثير.

لهذا يا أحبائى نفذوا الوصايا الرسولية ، ففى يوم الأحد يوم أول جمع للأموال المخصصة للأعمال الخيرية ، أعدوا أنفسكم جميعاً لعمل التكريس هذا كيما يقدم كل منكم حصته فى هذه التقدمة المقدسة وفقاً لقدراته، وستشهد لك صدقاتك نفسها ، والذين ينتفعون من عطاياك سيشفعون لك لكى تكون مستعداً دائماً لكل فعل صالح عند المسيح يسوع ربنا الذى يعيش ويحكم فى عالم لا نهاية له . آمين .

(الصوم ، الصلاة ،وتقديم الصدقات فى الكتاب المقدس)

أحبائى : وصايا الإنجيل تقويها تعاليم العهد القديم ، حين تنقل أشياء معينة من الناموس القديم إلى الناموس الجديد، وحين تثبت طقوس الكنيسة نفسها كيف أن يسوع المسيح لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله (متى ٥:١٧) . يوجد بالفعل نهاية للرموز فقد ألغاها وجود الحق نفسه ، إلا أن الأشياء التى تفرضها التقوى ، سواء للتحكم فى السلوك أو لعبادة الله التامة لا زالت توجد بيننا الآن فى نفس شكل تأسيسها الأول ، فلم تتعرض الطقوس الخاصة بكلا العهدين لأى تغيير ، ومن بينها الصوم ، لأننا عن طريق الصوم نقدم الشكر لله على فيضه الإلهى عن الثمار التي تقدمها الأرض بعنايته الإلهية السامية ليستخدمها الناس ، ولكى نبين أننا نقدم الشكر علينا أن لا نركز فقط علي التقشف فى الصوم ، ولكن يجب أن يصحبه تقديم الصدقات كى ما تنبت براعم العدل ومحصول الخير من تربة قلوبنا ، وبهذه الطريقة نستحق عطف الله بأن نظهر العطف على الفقراء لأن الصلاة فى التضرع إلى الله تكون قوية جداً حين تؤيدها أعمال الرحمة . وإذا لم يحول الإنسان مشيئته بعيداً عن المحتاجين فإن الرب سيسمع له لأن الرب نفسه يقول : « كونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم ، اغفروا يغفر لكم » (لوقا ٦ : ٣٦ و ٣٧) ، فماذا يمكن أن يكون أكثر شفقة من هذا العدل أو أكثر رحمة من هذه المكافأة حين يوضع حكم

القاضى فى يد الإنسان الذى يُحاكم ؟ إنه يقول : « اعطوا تُعطوا » (لوقا ٦:٣٨) . انظر كيف ينزع فى الحال قلق غير الواثق من نفسه وتردد البخيل ! فالرحمة تهب بثقة ما يعد الحق نفسه بإرجاعه .

(أن تقرض الرب أفضل من أن تقرض الإنسان)

كن ذا قلب صالح أيها المعطى المسيح ، اعط لتأخذ ، ازرع لتحصد ، فرّق لتجمع ، لا يكن لديك شك فيما يتعلق بالإنفاق ، حين تنفق ثروتك على نحو ملائم فإنها تزاد، لتتطلع إلى مكافأة الرحمة الصالحة، لتكن تجارتك فى الربح الأبدى ، ذلك الذى أعطاك يريدك أن تعطى وأنت مسرور، ذلك الذى يهب يريدك أن توزع قائلاً « أعطوا تُعطوا » ، فطبقاً لهذا الوعد أنت تعتبر من المحظوظين فاقبل الوعد لأنه رغم أنه لا يوجد شئ لم تأخذه إلا أنك لن تزداد إلا بمقدار ما تهب ، فإذا أحب أحدكم المال وإذا أراد أن يضاعف الثروة بزيادة لا حد لها فلتدعوه لكى يختار استخدام هذا الربا المقدس ، وليكن هذا طريقة للحصول على الربا الذى يجعله غنياً، وليس المتاجرة فى احتياجات البائسين حيث يقود الكسب الخادع إلى فخ الديون التى لا سبيل إلى تعويضها، ليثق وليقرض ماله للذى يقول : « أعطوا تعطوا لأنه بنفس الكيل الذى تكيلون به يكال لكم» .

يكون الإنسان ظالماً لنفسه إذا رفض أن يحتفظ للأبد بما هو جدير بمحبته ، فمهما أضاف إلى ثروته، ومهما جمع وخزن واكتنز فإنه سيمضى من هذا العالم فقيراً محتاجاً كما يقول النبى داود: «لأنه عند موته كله لا يأخذ» (مزمور ٤٩:١٧) . فإذا كان رحيماً فإنه سيقرض ثروته لذلك الضامن الأمين للفقراء الذى يدفع الربا بمنتهى السخاء ، بيد أن الطماع الشرير الذى يدّعى أنه يفيد الناس حين يخدعهم ، لايثق فى وعد الله الأمين ، ومع هذا يثق فى ضمانة الإنسان الذى يحركه الخوف ويعتقد أن الأشياء الحالية أضمن من الأشياء المستقبلية.

(الربا شر من كل النواحى)

ومن ثم فمهما كانت النتيجة فإن قضية المرابى دائماً شريرة ، لأنه سواء أضاف لثروته أم قللها ، فهو شرير على حد سواء ، بائس إن خسر ما أعطى ، وأكثر بؤساً إن أخذ ما لم يعطه ، يجب أن ننأى بأنفسنا عن شر هذا الربا بكل ما فى الكلمة من معنى يجب أن

يتجنب الناس ذلك الربح غير الجدير بالبشر، صحيح إن ثروتهم تتضاعف بزيادة غير عادلة إلا أن ثروة أنفسهم ، تتبدد، وفائدة الربا هي موت للروح ، ويوضح داود النبي دينونة الله لهذا يتساءل « يارب من ينزل في مسكنك ، من يسكن في جبل قدسك » (مزمور ١٤:١)، يعطيه الصوت الإلهي الإجابة والتعليم فيعرف أن الإنسان الذي يربح الراحة الأبدية هو ذلك الذي بالإضافة إلى ورعه - فهو لا يعطي ماله بالربا. ويُبين لنا أنه غريب عن سكن الله ويعيد عن جبل قدسه ذلك الذي يبحث عن الربح الخادع من المراباة في ماله ، أما إذا تمنى المرء أن يصبح غنياً من خسارة الآخرين ، فهو شئ جدير بأن يعاقب باحتياج أبدي .

(تجنبوا الطمع وشاركوا عطية الله مع الآخرين)

أنتم إذاً يا أحبائي يا من صدقتم وعود الله من كل قلوبكم اهربوا من الطمع واستخدموا عطايا الله بأسلوب عادل وبحكمة فيما أنتم تتمتعون بغناه ، واهتموا بأن يكون لكم شركاء في تمتعكم ، فكثيرون ينقصهم ما عندكم ، وعن طريق نقص هذه الاحتياجات يعطيكم الله فرصة التشبه به ، فعطايا الله تنتقل من خلالكم إلى الآخرين ، وبالتوزيع الملائم للأشياء الصالحة الوقتية قد تتملكون الأشياء الصالحة الأبدية .

الجزء الثاني

جريجوري الكبير Gregory the Great

كان جريجوري (٥٤٠ - ٦٠٤م) نبيل المولد ينتمي إلى أسرة ثرية ، إلا أنه تخلى عن مستقبله السياسي ليحيا حياة التقوى فباع ممتلكاته الشاسعة ووزع عائداتها على الفقراء ، أثناء منصبه كأسقف (٥٩٠ - ٦٠٤) . ودعم سيادة الأسقفية الرومانية ، وأسس سلطة البابوية الوقتية ولا سيما في تعاملاته مع اللمبارديين (الشعب التيوتوني الذي غزا إيطاليا عام ٥٦٨ الذين عقد معهم اتفاقية سلام منفصلة في عامي ٥٩٢ - ٥٩٣ م . وفي إدارته لممتلكات الكنيسة الشاسعة التي أنفق منها مبالغ ضخمة للتخفيف عن الفقراء ، أظهر حزماً وقوة في الشخصية ودماثة ومحبة ومهارة وحكمة ، ويعتبر نجاحه في تحويل إنجلترا إلى المسيحية إحدى دواعي ذيوع شهرته.

جريجوري مؤلف وفير الإنتاج - وكان مثله في ذلك مثل ليو الأول - ذا نزعة عقلية عملية

أكثر منها تأملية ، وكان معلماً أخلاقياً على نحو بارز (Moralia) . وكتب « القواعد الرعوية» و«المحادثات» ، « وتشمل أعماله الخطابية » « عظات على الإنجيل » و« عظات فى حزقيال». وفيما يتعلق بالتعاليم التاريخية يؤكد جريجورى تعاليم الآباء السابقين بخصوص الثروة والممتلكات: فتناول موضوعات « الممتلكات الخاصة كإدارة »، « الوظيفة الاجتماعية للممتلكات » ، الواجب الصارم فى العدل لمشاركة ممتلكات المرء مع الآخرين، سبب الوظيفة الاجتماعية للممتلكات هو أننا أخذنا كل خيراتنا من الله ليس لنمتلكها على نحو خاص بل لنستخدمها للخير العام . ألقى جريجورى عظة عن الغنى ولعازر ، ولذلك فمن المفيد أن نقارن تعليقه مع تعليق يوحنا ذهبى الفم وجيروم.

القواعد الرعوية

(كيف ننصح أولئك الذين لا يعطون)

٣ ، ٢١ ـ يجب أن يُقدم نصح لأولئك الذين لا يشتهون ممتلكات الآخرين ، ولايعطون مما يمتلكون وأيضاً لأولئك الذين يعطون مما لديهم ولكن لا يكفون عن أخذ ما يخص الآخرين. أما عن الذين لا يشتهون ممتلكات الآخرين ولا يعطون مما يمتلكون يجب أن يُنصحوا بأن يفكروا بعمق كيف أن الأرض التى يجب أن يوزعوها هى ملك مشترك لكل الناس ، ومن ثم فهى تنتج الغذاء للجميع ، ولذلك يخطئ الذين يعتقدون أنهم أبرياء ويستخدمون عطية الله المشتركة على نحو خاص ، فهم شركاء فى جريمة موت أقاربهم وذلك لأنهم لم يشاركوا فى ما أخذوه ، حيث أنهم ـ بطريقة ما ـ مهتمون بموت الذين يهلكون من الجوع عندما يرفضون إعانتهم ، لأننا حين نعطى الضروريات من أى نوع للفقراء ، فنحن بذلك لا نمنح ما نمتلك بل نرد إليهم ما هو ملكهم ، نحن بالأحرى ندفع ديناً علينا أكثر من كوننا ننجز أعمال رحمة.

(كيف ننصح الذين يعطون ولكن لا يزالون يسرقون)

من ناحية أخرى فإن الذين يعطون مما لديهم ولكن لايكفون عن أخذ ما يخص الآخرين يجب أن نقدم لهم النصح بألا يشتهوا الظهور كأسخياء ، ومن ثم يصبحون أسوأ بسبب هذا المظهر الخارجى للصلاح ، لأن هؤلاء الذين يعطون ما لديهم بلا تعقل لا يسقطون فى دمدمة نفاد الصبر فحسب ، بل أيضاً ينحرفون حتى إلى الطمع حين تدفعهم الضرورة ،

فما أكثر شقاء الذين يتعلمون الطمع بسبب ما يتمتعون به من وفرة ، وما أكثر شقاء الذين يحصدون محصول الخطايا من بذرة الفضيلة ؟ لذلك يجب أن ينصحوا أولاً بأن يتعلموا كيف يحافظون على ما هو ملكهم بصورة معقولة ، وأخيراً بألا يتجولوا وينتزعوا ما هو للآخرين ، لأنه إن لم يحرق أصل الخطأ فى شهوة الوفرة فإن شوكة الطمع التى تحيا من خلال الفروع لن تجف أبداً ، وهكذا فإن فرصة السلب تنتهى إذا ما تمت ممارسة حق التملك على نحو ملائم ، فبمجرد أن يتعلموا كيف لا يفسدوا الرحمة بأن يلقوا فيها شر السرقة ، ينصحون بعد ذلك كيف يعطون برحمة مما لديهم ، لأنهم يطلبون بعنف ما يهبون برحمة ، ولأن إظهار الرحمة بسبب وجود الخطية شئ وممارسة الخطأ بسبب إظهار الرحمة شئ آخر ، لأن الرحمة هنا لم تعد رحمة ، فهى لن تنمو وتصبح ثمراً حلواً لأن سم أصلها المهلك يجعلها مرة .

عظة

(خطية الغنى تكمن فى عدم العطاء)

٤٠ و ٣ ـ « كان إنسان غنى وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً ، وكان مسكين اسمه لعازر الذى طرح عند بابه مضروباً بالقروح » . يوجد من يعتقدون أن العهد القديم يتضمن وصايا أشد صرامة من وصايا العهد الجديد ، بيد أنهم يتسرعون فى الحكم ويخدعون أنفسهم، فالذى يعابه الناموس هو السرقة وليس الجشع ، والشئ الذى ينتزع بدون حق يرد أربعة أضعاف. لكن الرجل الغنى هنا لا يوبخ لسرقة خيرات الآخرين بل يوبخ لأنه لم يتخل عما يملك، والرجل الغنى هنا لم يفعل شيئاً تسبب فى تدميره ، بل كانت غلطته أنه رفع نفسه عالياً بتمسكه بثروته . لاحظ الفرق ، إذا أُدين إنسان لعدم توزيعه لممتلكاته الشخصية فماذا تكون عقوبة من يسلب ممتلكات الآخرين ؟ لا يجد أحدكم العذر لنفسه ويقول: «انظر أنا لا أسرق بل فقط أتمتع بحصتى الشرعية » . فسبب دينونة الغنى لم يكن انتزاعه أى شئ من جيرانه ، بل من خلال ثروته ، وما أرسله الى الهاوية هو أنه لم يكن لديه أية هواجس فى رخائه، وأنه حوّل الأشياء الصالحة المعطاة له لخدمة كبريائه ، وأنه لم يعتدّ بمشاعر الرحمة، وأنه لم يفتد خطاياه حين كانت لديه وسائل الفدية بوفرة.

(الله يعترف بالمتضعين ولكنه لا يعرف المتفاخرين)

الحق نفسه هو المتحدث هنا ، فيجب أن نلاحظ بانتباه كيف تحدث عن هذين الاثنين تباعاً: الغنى المفتخر ، والفقير المتضع ، ويأتى ترتيب الكلمات هكذا :- (كان إنسان غني) ثم (مسكين اسمه لعازر) تعرف أسماء الأغنياء فى الحياة العامة أكثر من أسماء الفقراء ، فكيف حدث إذاً أنه حين تحدث ربنا عن الاثنين ذكر اسم الفقير ولم يذكر اسم الغنى؟ والإجابة هى : إن الله يعرف المتضعين ، ولكنه لا يعرف المتفاخرين . ومن ثم ففى نهاية العالم يوجد بعض أناس يفتخرون بمعجزاتهم العظيمة ، ولهؤلاء يقول «إنى لم أعرفكم قط اذهبوا عنى يا فاعلى الاثم » . وعلى النقيض من هذا قيل لموسى « عرفتك باسمك » (خروج ١٢:٣٣) . وهكذا ففى النص الذى بين أيدينا يقول عن الغنى « كان إنسان » ، وعن الفقير « كان مسكين اسمه لعازر» والذى يعنيه هو «أنا أعرف الفقير الحليم وليس الغنى المتفاخر» .

(حكم ثنائى لله)

تفكر ثانية فى أمر خالقنا وكيف أن شيئاً واحداً يمكن أن يخدم أكثر من غرض، لدينا هنا لعازر المسكين المضروب بالقروح مطروحاً خارج باب الغنى ، ما هذا إلا شئ واحد ولكن بحكمة الله حقق هذا الشئ الواحد حكماً ثنائياً، ربما كان الغنى سيجد بعض العذر إن لم يكن لعازر بقروحه وفقره مطروحاً عند بابه ، وإذا كان بعيداً عنه وإذا لم يؤذ بؤسه العين ، وأيضاً إذا كان الغنى بعيداً عن نظر الآخر لكان عقل الفقير قد عانى إغراءً أقل، لكن الله وضع الواحد عند باب الآخر الفقر والقروح ضد الثروة والتنعم والوفرة، منظر الفقير الذى لم يُرحم ملأ كيل دينونة الغنى، ومنظر الغنى كان تجربةً لاختبار الفقير ، كلٌ فى نفس الوقت كان مرتب بعناية الله. فلنفترض أن جسد الفقير كان عبارة عن مجموعة من القروح، يفتقرإلى الخبز والصحة ، فيالها من إغراءات تلك التى ضغطت عليه كلما شاهد الآخر فى صحته وفى ثروته وتنعمه وتمتعه ، وكلما نظر إلى نفسه يتلفه البرد والألم بينما يتنعم الآخر بالأرجوان والبز، يحمل الفقير عبء جسده المصاب ، والآخر مطمئن فى ممتلكاته .

فكروا يا إخوتى فى اضطراب الإغراءات التى تكاثرت حينئذ فى قلب الفقير! كان فقره

سيؤلمه بشكل معقول لو أنه كان متمتعاً بصحة جيدة ، ومرضه كان سيؤلمه إلى درجة محتملة لو أنه كانت لديه وسيلة من وسائل المعيشة ، إلا أنه لكى يُختبر بالكامل أذبله الفقر والمرض فى وقت واحد ، فكان ينظر كيف أن الغنى كان يخرج وهو محاط بالمتملقين على جانبيه ، بينما هو فى إعوازه وبؤسه لا يزوره أحد، لاحظ الكلاب التى سمح لها بأن تلحس قروحه، وهكذا فحين سُمح بشئ واحد وهو طرح لعازر عند باب الغنى ، حقق الله الكلى القدرة حكماً ثنائياً فزاد الدينونة للغنى فى ظلمه ، وزاد من مكافأة الفقير فى تجربته. الواحد كان يرى يومياً موضع عدم رحمته ، والآخر يرى وسيلة اختباره . هذان هما قلبان على الأرض ولكن فاحص القلوب واحد فى السماء يختبر الواحد ويعده للمجد ويحتمل الآخر ويعده للجزاء .

(المصير المتعارض للعازر والغنى)

يمضى النص « فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم ومات الغنى أيضاً ودفن » يبحث الغنى فى عذابه الآن عن مدافع له فى الإنسان الذى لم يرحمه على الأرض «فرفع عينيه فى الهاوية وهو فى العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر فى حضنه فنادى وقال يا أبى إبراهيم ارحمنى وأرسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء ويبرد لسانى لأنى معذب فى هذا اللهيب» كم هى مدققة أحكام الله ، ويالها من دقة تلك التى يحدد بها مكافأة الأعمال الصالحة والشريرة !

عرفنا أن لعازر وهو على الأرض كان يشتهى الفتات الساقط من مائدة الغنى ولم يعطه إياها، والآن نرى الغنى فى الهاوية يتوق إلى ماء طرف إصبع لعازر لتبل لسانه .

(فكر فى ثروات هذا العالم بخوف)

لكن رد إبراهيم يجب أن يُلاحظ بخوف «يا ابنى اذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك كذلك لعازر البلايا ، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب» . لا نحتاج لتفسير هذه الكلمات يا إخوتى لكن ما نحتاجه هو أن نرتعد منها، فكل من تلقى خيرات خارجية فى هذا العالم ينبغى أن ينظر إلى هذه العطية الخارجية بخوف ، الخوف من أن تكون قد مُنحت لك كمكافأة وحيدة عن بعض أعمالك ومن أن الديانة التى تمنحك بركات خارجية هنا قد تمنع عنك مكافأة البركة الداخلية ، ومن ألا يكون الشرف أو الثروة هنا شئ مساعد للفضيلة ، بل المكافأة النهائية لعملك .

وفى كلمات « أنك استوفيت خيراتك فى حياتك » يُفترض أننا ندرك أن الغنى كان لديه شئ خيّر فى داخله يتطلب مكافأة من الأشياء الصالحة فى هذه الحياة ، وأيضاً فى الكلمات عن لعازر «كذلك لعازر البلايا» ، يُبين لنا أنه كان عنده شئ ما شرير يتطلب التطهير لكن شر لعازر طهرته نار الفقر المعدم ، وخير الغنى كوفئ بالرخاء فى هذا العالم الزائل ، ابتلى الواحد وتطهر بالفقر ، وكوفئ الآخر بالثروة . فإذا سارت الأمور على نحو جيد مع بعضكم فحين تتذكرون أعمالكم الصالحة انظروا لها بمخافة ورعشة لئلا تختبروا الرخاء الذى استحق اللوم ، فلا تحتقروا الفقراء أو تسلموهم للضياع ، فربما كان يتم تطهير نفاية الشر الضئيلة داخلهم فى فرن الفقر، خافوا على أنفسكم على أى حال لأنه عُرف عن الحياة الرغدة أنها تتبع الأعمال الشريرة . أما بالنسبة لهؤلاء الآخرين فأنا أدعوك أن تفكر بدقة كيف أن الفقر هو معلمهم الصارم الذى يهذب حياتهم وطرقهم إلى أن يقودهم إلى الصلاح .

عندئذ : «فوق هذا كله بيننا وبينكم هوّة عظيمة قد أثبتت حتى أن الذين يريدون العبور من هنا إليكم لايقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا» .


يجب أن نسأل أنفسنا ما تعنيه هذه الكلمات «الذين يريدون العبور من هنا إليكم لايقدرون » . أن يتمنى الذين فى الهاوية العبور إلى مكان المباركين شئ واضح على نحو كاف ، لكن حين يُقبل الناس فى النعيم بالفعل فكيف يقال عنهم إنهم يريدون العبور إلى المعذبين فى الهاوية ؟ مع هذا فإنه تماماً مثلما يحاول الأشرار العبور للأخيار - ليتخلصوا من الآلام التى تعذبهم - هكذا أيضاً من الطبيعى للأبرار أن يزوروا فى أفكارهم أولئك المعذبين الحزانى وأن يتمنوا أن يحرروهم ، بيد أنهم لا يقدرون أن يفعلوا هذا لأن أرواح الأبرار - مع أن صلاحهم الفطرى يحثهم على الرحمة - قد توحدت الآن فى بر خالقها وهم أنفسهم ملزمون على نحو شديد بمثل هذا البر بألا تحركهم شفقتهم على الأشرار فيما بعد.

(ساعدوا الفقراء والمنكوبين)

نكتفى بهذا القدر يا إخوتى من الدراسة الحرفية للقصة، دعونا نهتم الآن بكم أنتم ، لقد علمتم راحة لعازر الأبدية وكذلك عذاب الغنى ، فتصرفوا وفقاً لهذا بانتباه ، ابحثوا عن أولئك الذين سيبررون خطاياكم ويدافعون عنكم فى يوم الدينونة وهم الفقراء . لديكم كثيرون

مثل لعازر فى وسطكم ، كثيرون مثله مطروحون عند أبوابكم يحتاجون ما يتساقط من موائدكم حين تنالون كفايتكم . كلمات هذا الدرس المقدس ينبغى أن تحثنا لعمل وصايا التقوى ، فكل يوم نستطيع أن نجد لعازر إن نحن فقط بحثنا، وحتى وإن كنا لا نبحث فإننا فى كل يوم نرى لعازر ، يأتى الفقراء دون أن نبحث عنهم ويتزاحمون ليسألوا ، وهؤلاء هم من سيشفعون لنا فى يوم من الأيام ، يجب علينا نحن أن نسأل ومع هذا فهم يسألوننا، أفينبغى أن نرفض الطلب حين يكون من يطلبون هم من سيدافعون عنا ؟ لاتضيعوا فرص الرحمة ، ولاتهزأوا بوسيلة الخلاص الممنوحة لكم، فكروا فى الدينونة قبل أن تأتوا إليها، وحين ترون المنبوذين فى هذا العالم فلا تحتقروهم ، حتى وإن كان هناك أشياء يستحقون عليها اللوم فربما داوى الفقر عيوبهم ، إن كان هناك أشياء يستحقون التوبيخ عليها فيجب أن تحولوا مثل هذه الأشياء لمكافأتكم مستخدمين هذه العيوب نفسها لتثروا تقواكم، قدموا لهم خبزاً وكلمة أيضاً، خبز الطعام وكلمة التقويم، دعوهم يأخذون طعاماً أكثر مما طلبوا، أطعموهم قوتاً روحياً وجسدياً، فإذا كان الفقير يستحق اللوم انصحه ولكن دون أن تحتقره، أما إذا لم يكن هناك شئ نوبخه عليه فاعطه كل ما تقدر عليه من تبجيل ، لأنه هو من سيدافع عنك فيما بعد، لكنك تقول :- إننا نرى كثيرين ولا نستطيع أن نقيّم أهلية كل منهم على حدة ، اعط الجميع الاحترام والوقار وهكذا تتعاظم مهمتك فى أن تتضع للكل حيث أنك لا تعلم أياً من هؤلاء الفقراء هو المسيح.





Dar El-Thaqafa
Peter C. Phan
SOCIAL THOUGHT
Message of the Fathers of the Church
20
١٠١٠٩٢٢٧